



فلسفة

ف

رسائل فارسية

تأليف: مونتسكيو



0024478



Bibliotheca Alexandrina

مراجعة: عبد الحميد الدواخلى

كمال يونس

رسائل فارسیه

رقم الإيداع : ٤٠٣٣ / ١٩٩٢
I.S.B.N. 977 - 00 - 3313 - 8

حقوق الطبع محفوظة
دار سعاد الصباح
ص . ب : ٢٧٢٨٠
الصفاء ١٣١٣٣ - الكويت
ص . ب . ١٣٠ المقطم - القاهرة
فاكس : ٥٠٦١٠٣٠
٣٥ ش محي الدين أبو العز
ت ٣٤٩٧٧٧٩ - ٣٤٩١٧٢٧

الطبعة الثانية

١٩٩٢

الإشراف الفني : حلمي التوني

رسائل فارسية

تأليف: مونيتسكيو

ترجمة: أحمد كمال يونس

مراجعة: عبد الحميد الدواخلي

هذه ترجمة كتاب :

Lettres Persanes.

تأليف :

Montesquieu.

مقدمة

موننتسكيو فى الميزان

لقد كان حديثه أشبه بهيئته المتواضعة ، وشخصيته الحرة . وكان قوامه حسن التقسيم . وبالرغم من أن إحدى عينيه تكاد تكون معدومة ، والأخرى بالغة الضعف ؛ فإن الإنسان لا يلحظ ذلك مطلقاً ، وكانت قسما وجهه تجمع الرقة واللف معاً .

وكان شديد الإهمال لزيه ، يستخف بماوراء النظافة ، ولا يلبس إلا أيسر المنسوجات لا يحلّ لها شئ من ذهب أو فضة ، وكان كذلك بسيطاً فى مائتته وسائر شئونه .

هكذا تحدث عنه ومدحه

موپرتويس Maupertuis

وقالت عنه مدام شولنى (M^{me} Choulnes) : لقد أخرج حديثاً كتابه عن المجتمع (.....) ولم يتحدث إلا إلى الأجانب الذين يعتقد وأنه قد يستفيد منهم بعض الفائدة .

وتحدث عنه دار چنسون (D'Argenson) فقال : لم يتألم مونتسكيو من أجل إنسان ، ولم يكن له هوأى مطمع . وإنما قرأ ، وساح ، وجمع المعارف ثم كتب . وما فعل ذلك إلا لمتعته . ولما كان صافى الروح عميق التفكير فإنه عبّر تعبيراً ساحراً عن كل ما عرف ، لكن روحه شاعت فى كتبه ، أكثر مما كانت فى أحاديثه ؛ لأنه لم يكن يبغي الشهرة كما لا يجب أن يسلم نفسه إلى متاعب . وقد احتفظ بلهجته الجاسكونية التى أخذها عن موطنه الأصلى وكان يرى فوق طاقته أن يصلح هذه اللهجة .

آراء فى الرسائل الفارسية

فى القرن الثامن عشر :

قال فولتير فى كتابه إلى لام . دى سيدفيل

(Am. de Cideville) فى ٢٦ من يولية سنة ١٧٣٣ :

هل هناك أقوى من الرسائل الفارسية ؟ أو هل هناك كتاب كتب مثله

عن الحكومة والدين من غير شئ من الرعاية أو الإدارة ؟

وكتب فولتير أيضا إلى ام . سوران (Am. Saurin) سنة ١٧٦٨

فقال : لقد أجهد مونتسكيو نفسه فى الحط من شأن الشعراء - فى

الرسائل الفارسية . وكأنه أراد أن يهدم عرشا لم يستطع أن يتبوأه . لقد

أهان المجمع الفرنسى فى قسوة مع أنه طالما ألح أن يكون له مكان فيه .

وفى الحق أن له أحيانا خيالا شائعا فى التعبير ، وهذا فى رأى أهم ما

يستوجب التقدير .

وقال دالمبير (D'Alembert) فى الثناء على مونتسكيو : فى هذا النوع من الصور الحية عرض لنا إزبك - بوجه خاص - وفى خفة وحرارة ما استرعاه عندنا مما نفذت إليه عيناه مثل : عادتنا فى معالجة الأشياء التافهة جادين ، وقلبنا الأمور الهامة مزاحا وأحاديثنا الصاخبة البالغة فى التفاهة ، وضيق صدورنا فى مجال المرح وأقيستنا وأفعالنا التى تناقض دائما علمنا وحبنا للمجد مشفوعا باحترام المنفعة الذاتية ، وملقنا الوضيع الذى لافائدة منه ، وتظاهرننا بالأدب مع الأجانب مع احتقارنا لهم أو تصنعنا التحبب إليهم ، وغرابة أذواقنا التى لا يفوقها غرابة إلا مسارعة أوروبا كلها فى الأخذ بها ، واحتقارنا أجدر الأعمال بالاحترام وتشغل مواطنينا : وهى التجارة والتشريع وجدالنا الأدبى الحار الذى لا طائل تحته ، واندفاعنا فى الكتابة دون روية ، وحكمنا على الأشياء قبل اختبارها

وفى خطبة لمويرتوى (Maupertuis) أمام المجمع الملكى للعلوم فى برلين سنة ١٧٥٥ (٥ من يونية) ، قال :

أما أسلوب الرسائل الفارسية فأسلوب حى ، تشع أضواؤه وهذه الصفات جعلت كثيرا من الناس فى عصرنا الحاضر يعتبرونها أساسا للتقدير فى هذه المؤلفات الملأى بالروح والفكر . ولو لم تكن هذه الصفات أساس تقديرها لما لقيت ما لقيته من نجاح تستحقه ؛ فلم ير الناس أبدا فى كتاب آخر هذا المقدار من الحكمة الممزوجة بالمتعة ، والمعانى الكثيرة المركزة فى ألفاظ قليلة . وبعد أن نرى منه هذه الآثار القيّمة لعقل ممتاز لا

نستطيع أن نقول إن مونتسكيو كان فيلسوفاً سطحياً ، بل إننا نجد في هذه العقلية الرائعة فيلسوفاً عميقاً .

وقال جان جاك روسو (J.J. Roussau) حين كتب إلى السيد مولتو (Moultou) في ٢٥ من نوفمبر سنة ١٧٦٢ :

عندى ما أنصح لك بأن تقرأه : إنها الرسائل الفارسية ، إنها مطالعة ممتازة لشاب ناشئ في أول عهده بالكتابة ومع ذلك فسئرى فيها بعض أخطاء لغوية .

وقال لا هارب (La Harpe) في كتابه فلسفة الثامن عشر في المجلدين الأول والثاني سنة ١٧٩٩ :

كثير من هذه الرسائل معالجات هينة للسكان ، والتجارة ، والقوانين الجنائية ، والقانون العام ، (.....) والتهكم كان السلاح الذى يستخدمه فى كل الأحوال ، حتى ضد محكمة التفتيش بل إنه إنداك يزداد تهكمه مرارة لينقص من هيبة هذه المحكمة .

فى القرن التاسع عشر :

وقد تحدث م - ج شينير (M. J. Chenier) فى كتابه (لوحة فى تاريخ الآداب الفرنسية) فى الجزء السادس سنة ١٨١٦ فقال :

إن الرسائل الفارسية أثر جليل وإن بدا تافها ، فقد أحاط قصصه بإطار من السخرية ، والسخرية سلاح ماض فى يد مونتسكيو يحقق به

فلسفته .

وقال فيلمان (Villemain) فى كتابه دراسة فى الآداب الفرنسى سنة ١٨٢٨ :حاكى مونتسكيو (فى الرسائل الفارسية) أوساوى لابرويير (La Bruyère) فى ذكائه اللاذع فى تصويره للشخصيات ، وفى الإغراق فى السخرية وفى قوة الإفصاح عن الأخلاق . كما حاكى پسكال (Pascal) فى تعبيره القوى الحاد ، ذى الطابع الجذاب الذى امتاز به عصر غير عصرنا ، وفى تشككه الشاذ ، وخياله المرفف الذى انفعلت به نفسه . . . فالطابع السائد فى هذه الرسائل الأبيقورية الساخرة هو دراسة السياسة ، وفلسفة التاريخ وهى دراسات جديدة فى فرنسا . . .

*ويمكن أن ندرك مدى النجاح الباهر لكتاب كهذا ظهر بعد موت لويس الرابع بست سنوات ، فى فرنسا المرحة القلقة المنهارة فى عصر الوصاية . وقد تناول فيها بروح فكهة طرائف وحقائق لازعة ، ونقد طريقة لو (Law) وفئة من رجال الدين ، وصالونات الأدب فى باريس والسياسة الأوربية .

وقال سانت بيث فى حديث الاثنين (١٨٥١ - ١٨٥٧) :

فى الرسائل الفارسية أخذ مونتسكيو الشاب يلهو ويلعب ، وكان الجد فى لعبه ، ومعظم أفكاره بدت كتبت لما ينضج ، أو بعبارة أخرى نبت أخذ يتطور : فكان فى أول أمره أقل نضجا مما صار إليه أخيرا ثم نضج شيئا فشيئا : لأنه احتفظ بمعظم أفكاره ، لكنه فى مؤلفاته التى جاءت بعد ذلك كان على حال أخرى ، فقد فكر فيها على نسق آخر ، ولم يتكلم

فيها إلا جادا شاعرا شيئا فشيئا بعظمة المجتمع ، راغبا في تمجيد الطبيعة الإنسانية .

وكتب جوستاف لانسون (Gustave Lanson) في كتابه تاريخ الأدب الفرنسي سنة ١٨٩٤ ، فقال :

لقد كان مونتسكيو خير من سخر من الفضول الثقافية عند الباريسيين البلهاء ومن الأحاديث السفسطائية البراقة عند الطبقة الراقية ، وأشار إلى تبرج النساء وتدللهن ، وإلى الصور المختلفة من الخيال والزهو في المجتمع .

وليس في الرسائل الفارسية ظلٌ لدراسة نفسية عميقة ، ولكن بها قطعاً خطيرة (...) ففيها عبارات شديدة الوطأة على رجال المالية (...) كما شهّر بالإفراط في امتيازات الأشراف ، كما فضح الجشع الذي لا يقنع عند رجال البلاط ، وأبدى رأيه عن الشؤون الجارية ، ونقد طريقة لو (Law) . لكنه هاجم بوجه خاص حكم لويس الرابع المطلق فقد كان أشد مقتاً لهذا النظام من سان سيمون (Saint-Simon) وقد عرض كيف أن الملكية تنحط إلى جمهورية ، أو حكم مطلق ، وقد فصل من قبل نظريته عن السلطات التي تتوسطهما .

أحمد كمال يونس

محتويات الكتاب

صفحة

- ٩ الرسالة الأولى : من أوزبك إلى صديقه روستان بأصفهان
- ١٠ الرسالة الثانية : من أوزبك إلى كبير الخصيان في سراي أصفهان
- ١٢ الرسالة الثالثة : من زكي إلى أوزبك بمدينة توريس
- ١٤ الرسالة الرابعة : من زفيس إلى أوزبك بأرضروم
- ١٥ الرسالة الخامسة : من روستان إلى أوزبك بأرضروم
- ١٦ الرسالة السادسة : من أوزبك إلى صديقه نصير بأصفهان
- ١٨ الرسالة السابعة : من فاطمة إلى أوزبك بأرضروم
- ٢١ الرسالة الثامنة : من أوزبك إلى صديقه روستان بأصفهان
- ٢٣ الرسالة التاسعة : من كبير الخصيان إلى ابن في أرضروم
- ٢٧ الرسالة العاشرة : من ميرزا إلى صديقه أوزبك بأرضروم
- ٢٨ الرسالة الحادية عشرة : من أوزبك إلى ميرزا بأصفهان
- ٣٢ الرسالة الثانية عشرة : من أوزبك إلى الشخص نفسه
- ٣٥ الرسالة الثالثة عشرة : من أوزبك إلى الشخص نفسه
- ٣٧ الرسالة الرابعة عشرة : من أوزبك إلى الشخص نفسه
- الرسالة الخامسة عشرة :
- ٣٩ من كبير الخصيان إلى جaron الخصي الأسود بأرضروم
- ٤١ الرسالة السابعة عشرة : من أوزبك إلى الشخص نفسه
- الرسالة الثامنة عشرة :
- ٤٣ من محمد علي ، خادم الأنبياء ، إلى أوزبك في أرضروم .

- ٤٤ الرسالة التاسعة عشرة : من أوزبك إلى صديقه روستبان
- ٤٦ الرسالة العشرون : من أوزبك إلى زوجته زاشى بقصر أصفهان
- ٤٩ الرسالة الحادية والعشرون : من أوزبك إلى كبير الخصيان البيض
- ٥١ الرسالة الثانية والعشرون : من جارون إلى كبير الخصيان
- ٥٢ الرسالة الثالثة والعشرون : من أوزبك إلى صديقه ايبن فى أزميز
- ٥٣ الرسالة الرابعة والعشرون : من ريكا إلى ايبن فى أزميز
- ٥٧ الرسالة الخامسة والعشرون : من أوزبك إلى ايبن فى أزميز
- ٥٨ الرسالة السادسة والعشرون : من أوزبك إلى روكسان بسرأى أصفهان
- ٦٢ الرسالة السابعة والعشرون : من أوزبك إلى ناصر بأصفهان
- ٦٤ الرسالة الثامنة والعشرون : من ريكا إلى
- ٦٧ الرسالة التاسعة والعشرون : من ريكا إلى ايبن فى أزميز
- ٧٠ الرسالة الثلاثون : من ريكا إلى الشخص نفسه فى أزميز
- ٧٢ الرسالة الحادية والثلاثون : من رهيدى إلى أوزبك فى باريس
- ٧٣ الرسالة الثانية والثلاثون : من ريكا إلى
- ٧٤ الرسالة الثالثة والثلاثون : من ريكا إلى
- ٧٦ الرسالة الرابعة والثلاثون : من أوزبك إلى ايبن فى أزميز
- ٧٩ الرسالة الخامسة والثلاثون : من أوزبك إلى ابن عمه جمشيد
- ٨١ الرسالة السادسة والثلاثون : من أوزبك إلى رهيدى فى فينيس
- ٨٣ الرسالة السابعة والثلاثون : من أوزبك إلى ايبن فى أزميز
- ٨٥ الرسالة الثامنة والثلاثون : من ريكا إلى ايبن فى أزميز
- الرسالة التاسعة والثلاثون : من الحاج ايبن إلى اليهودى بن
- ٨٧ جوزدى معتنق المحمدية فى أزميز
- ٨٩ الرسالة الأربعون : من أوزبك إلى ايبن فى أزميز

الصفحة

- ٩٠ الرسالة الحادية والأربعون: من كبير الخصيان الأسود إلى أوزبك
- ٩١ الرسالة الثانية والأربعون: من فاران إلى أوزبك: سيده العظيم
- ٩٣ الرسالة الثالثة والأربعون: من أوزبك إلى فاران بحقائق فاطمة
- ٩٤ الرسالة الرابعة والأربعون: من أوزبك إلى رعدى في فينيس
- ٩٦ الرسالة الخامسة والأربعون: من ريكا إلى أوزبك في ...
- ٩٨ الرسالة السادسة والأربعون: من أوزبك إلى رعدى في فينيس
- ١٠٠ الرسالة السابعة والأربعون: من زاشي إلى أوزبك في باريس
- ١٠٢ الرسالة الثامنة والأربعون: من أوزبك إلى رعدى في فينيس
- ١٠٩ الرسالة التاسعة والأربعون: من ريكا إلى أوزبك في ..
- ١١١ الرسالة الخمسون : من ريكا إلى ...
- الرسالة الحادية والخمسون :
- ١١٣ من هارجوم مبعوث الفرس لدى المسكوف إلى أوزبك
- ١١٦ الرسالة الثانية والخمسون : من ريكا إلى أوزبك في ...
- ١١٨ الرسالة الرابعة والخمسون : من ريكا إلى أوزبك في ...
- ١٢١ الرسالة السادسة والخمسون : من أوزبك إلى آيين في أزميز
- ١٢٣ الرسالة السابعة والخمسون : من أوزبك إلى رهدى في فينيس
- ١٢٦ الرسالة الثامنة والخمسون : من ريكا إلى رعدى في فينيس
- ١٢٨ الرسالة التاسعة والخمسون : من ريكا إلى أوزبك في
- ١٣٠ الرسالة الستون : من أوزبك إلى آيين في أزميز
- ١٣٢ الرسالة الحادية والستون : من أوزبك إلى رعدى في فينيس
- ١٣٤ الرسالة الثانية والستون : من زيليس إلى أوزبك في باريس
- ١٣٦ الرسالة الثالثة والستون : من ريكا إلى أوزبك في ...

الصفحة

الرسالة الرابعة والستون :

- ١٣٨ من رئيس الخصيان السود إلى أوزبك في باريس .
- ١٤٢ الرسالة الخامسة والستون : من أوزبك إلى نسائه بقصر أصفهان
- ١٤٣ الرسالة السادسة والستون : من ريكا إلى إلى ...
- ١٤٥ الرسالة السابعة والستون : من ايبن إلى أوزبك في باريس
- ١٤٧ تاريخ افسردون واسترتيه
- ١٥٧ الرسالة الثامنة والستون : من ريكا إلى أوزبك في ...
- ١٥٩ الرسالة التاسعة والستون : من أوزبك إلى رعدى في فينيس
- ١٦٢ الرسالة الحادية والسبعون : من أوزبك إلى ريليس
- ١٦٣ الرسالة الثانية والسبعون : من ريكا إلى أوزبك في
- ١٦٤ الرسالة الثالثة والسبعون : من ريكا إلى ...
- ١٦٦ الرسالة الرابعة والسبعون : من ريكا إلى أوزبك
- ١٦٨ الرسالة الخامسة والسبعون : من أوزبك إلى رعدى في فينيس
- ١٧٠ الرسالة السادسة والسبعون : من أوزبك إلى صديقه ايبن في أزميز
- ١٧٣ الرسالة السابعة والسبعون : من ايبن إلى أوزبك في باريس
- ١٧٤ الرسالة الثامنة والسبعون : من ريكا إلى أوزبك في ...
- الرسالة التاسعة والسبعون :
- ١٧٨ من كبير الخصيان الأسود إلى أوزبك في بارس
- ١٧٩ الرسالة الثمانون : من أوزبك إلى رعدى في فينيس
- الرسالة الحادية والثمانون :
- ١٨٢ من ترجم سفير فارس في بلاد المسكوف إلى أوزبك في بايس
- ١٨٤ الرسالة الثانية والثمانون : من ريكا إلى ايبن في أزميز
- ١٨٦ الرسالة الثالثة والثمانون : من أوزبك إلى رعدى في فينيس

الصفحة:

- ١٨٨ الرسالة الرابعة والثمانون : من ريكا إلى ...
- ١٨٩ الرسالة الخامسة والثمانون : من أوزبك إلى ميرزا في أصفهان
- ١٩٢ الرسالة السادسة والثمانون: من ريكا إلى ...
- ١٩٤ الرسالة السابعة والثمانون : من ريكا إلى ...
- ١٩٦ الرسالة الثامنة والثمانون : من أوزبك إلى رعدى في فينيس
- ١٩٧ الرسالة التاسعة والثمانون : من أوزبك إلى ايبين في أزميز
- ٢٠٠ الرسالة التسعون : من أوزبك إلى الشخص نفسه في أزميز
- ٢٠٢ الرسالة الحادية والتسعون : من أوزبك إلى روستان في أصفهان
- ٢٠٣ الرسالة الثانية والتسعون : من أوزبك إلى رهيدى في فينيس
- الرسالة الثالثة والتسعون :
- ٢٠٣ من أوزبك إلى أخيه سانتون في خلوقزوين
- ٢٠٧ الرسالة الرابعة والتسعون: أوزبك إلى رعدى في فينيس
- ٢٠٩ الرسالة الخامسة والتسعون: من أوزبك إلى الشخص نفسه
- ٢١٢ الرسالة السادسة والتسعون: من كبير الخصيان إلى أوزبك في باريس
- الرسالة السابعة والتسعون:
- ٢١٤ من أوزبك إلى حسن درويش بجبل جاورن
- ٢١٧ الرسالة الثامنة والتسعون : من أوزبك إلى ايبين في أزميز
- ٢١٩ الرسالة التاسعة والتسعون : من ريكا إلى وعدى في فينيس
- ٢٢١ الرسالة المائة : ريكا إلى الشخص نفس
- ٢٢٤ الرسالة الأولى بعد المائة : من ريكا إلى ...
- ٢٢٥ الرسالة الثانية بعد المائة : من أوزبك إلى ايبين في أزميز
- ٢٢٨ الرسالة الثالثة بعد المائة : من أوزبك إلى الشخص نفسه
- ٢٣٠ الرسالة الرابعة بعد المائة : من أوزبك إلى الشخص نفسه

الصفحة

- ٢٣٢ الرسالة الخامسة بعد المائة : من رعدى إلى أوزبك في باريس
- ٢٣٤ الرسالة السادسة بعد المائة : من أوزبك إلى رعدى في فينيس
- ٢٣٨ الرسالة السابعة بعد المائة : من ريكا إلى ابن في أزمير
- ٢٤٠ الرسالة الثامنة بعد المائة : من أوزبك إلى
- ٢٤٢ الرسالة التاسعة بعد المائة : من ريكا إلى ...
- ٢٤٤ الرسالة العاشرة بعد المائة : من ريكا إلى
- ٢٤٦ الرسالة الحادية عشر بعد المائة : من أوزبك إلى
- ٢٤٨ الرسالة الثانية عشر بعد المائة : من رهيدى إلى أوزبك في باريس
- ٢٥٢ الرسالة الثالثة عشر بعد المائة : من أوزبك إلى رهيدى في فينيس
- ٢٥٥ الرسالة الخامسة عشر بعد المائة : من أوزبك إلى الشخص نفسه .
- ٢٥٧ الرسالة السادسة عشر بعد المائة : من أوزبك إلى الشخص نفسه
- ٢٦٠ الرسالة السابعة عشر بعد المائة : من أوزبك إلى الشخص نفسه
- ٢٦٣ الرسالة الثامنة عشر بعد المائة : من أوزبك إلى الشخص نفسه
- ٢٦٥ الرسالة التاسعة عشر بعد المائة : من أوزبك إلى الشخص نفسه
- ٢٦٧ الرسالة العشرون بعد المائة : من أوزبك إلى الشخص نفسه
- ٢٦٩ الرسالة الواحد والعشرون بعد المائة : من أوزبك إلى الشخص نفسه
- ٢٧٤ الرسالة الثانية والعشرون بعد المائة : من أوزبك إلى الشخص نفسه
- الرسالة الرابعة والعشرون بعد المائة :
- ٢٧٦ من أوزبك إلى رعدى في فينيس
- ٢٧٩ الرسالة الخامسة والعشرون بعد المائة : من ريكا إلى
- ٢٨١ الرسالة السادسة والعشرون بعد المائة : من ريكا إلى أوزبك في
- ٢٨٣ الرسالة السابعة والعشرون بعد المائة : من ريكا إلى ابن في أزمير
- ٢٨٥ الرسالة الثامنة والعشرون بعد المائة : من ريكا إلى أوزبك في ...

الصفحة.

- ٢٨٨ الرسالة التاسعة والعشرون بعد المائة : من ريكا إلى
- ٢٩٣ الرسالة الثلاثون بعد المائة : من ريكا إلى
- الرسالة الحادية والثلاثون بعد المائة :
- ٢٩٧ من رهيدي إلى ريكا في باريس
- ٣٠١ الرسالة الثانية والثلاثون بعد المائة : من ريكا إلى
- ٣٠٤ الرسالة الثالثة والثلاثون بعد المائة : من ريكا إلى
- ٣٠٥ الرسالة الرابعة والثلاثون بعد المائة : من ريكا إلى الشخص نفسه
- ٣٠٧ الرسالة الخامسة والثلاثون بعد المائة : من ريكا إلى الشخص نفسه
- ٣٠٩ الرسالة السادسة والثلاثون بعد المائة : من ريكا إلى الشخص نفسه
- ٣١٢ الرسالة السابعة والثلاثون بعد المائة : من ريكا إلى الشخص نفسه
- ٣١٤ الرسالة الثامنة والثلاثون بعد المائة : من ريكا إلى ايبين في سمين
- ٣١٧ الرسالة التاسعة والثلاثون بعد المائة : من ريكا إلى الشخص نفسه
- ٣١٨ الرسالة الأربعون بعد المائة : من ريكا إلى أوزبك في
- ٣١٩ الرسالة الحادية والأربعون بعد المائة : من ريكا إلى الشخص نفسه
- ٣٢٧ الرسالة الثانية والأربعون بعد المائة : من ريكا إلى أوزبك في
- الرسالة الثالثة والأربعون بعد المائة :
- ٣٣٣ من ريكا إلى ناتانيل ليفي (طيب يهودي) في ليفورن
- ٣٤٠ الرسالة الرابعة والأربعون بعد المائة : من ريكا إلى أوزبك
- ٣٤١ الرسالة الخامسة والأربعون بعد المائة : من أوزبك إلى
- الرسالة السادسة والأربعون بعد المائة :
- ٣٤٦ من أوزبك إلى رعدى في فينيس
- الرسالة السابعة والأربعون بعد المائة :
- ٣٤٩ من كبير الخصيان إلى أوزبك في باريس

صفحة

- الرسالة الثامنة والأربعون بعد المائة :
- ٣٥٠ من أوزبك إلى كبير الخصيان بقصر أصفهان
- الرسالة التاسعة والأربعون بعد المائة :
- ٣٥١ من نارسيت إلى أوزبك في باريس
- الرسالة الخمسون بعد المائة :
- ٣٥٢ من أوزبك إلى نارسيت في قصر أصفهان
- الرسالة الحادية والخمسون بعد المائة :
- ٣٥٣ من سليم إلى أوزبك في باريس
- الرسالة الثانية والخمسون بعد المائة :
- ٣٥٥ من ناسيت إلى أوزبك في باريس
- الرسالة الثالثة والخمسون بعد المائة :
- ٣٥٦ من أوزبك إلى سليم في قصر أصفهان
- الرسالة الرابعة والخمسون بعد المائة :
- ٣٥٧ من أوزبك إلى نسائه في قصر أصفهان
- الرسالة الخامسة والخمسون بعد المائة :
- ٣٥٨ من أوزبك إلى نصير في أصفهان
- الرسالة السادسة والخمسون بعد المائة :
- ٣٦٠ من روكسا إلى أوزبك في باريس
- الرسالة السابعة والخمسون بعد المائة : من زاتي إلى أوزبك في باريس ٣٦١
- الرسالة الثامنة والخمسون بعد المائة : من ذيليس إلى أوزبك في باريس ٣٦٣
- الرسالة التاسعة والخمسون بعد المائة : من سليم إلى أوزبك في باريس ٣٦٤
- الرسالة الستون بعد المائة : من سليم إلى أوزبك في باريس ٣٦٥
- الرسالة الحادية والستون بعد المائة : من روكسل إلى أوزبك في باريس ٣٦٦

الرسالة الأولى من أوزبك إلى صديقه روستان بأصفهان

لم نتمكن إلا يوما واحدا في مدينة « قم » بعد أداء صلواتنا على قبر
الغبراء التي أنجبت اثني عشر رسولا .

وصلنا أمس إلى مدينة « توريس » وهو اليوم الخامس والعشرون
لرحيلنا من أصفهان .

ربما كنت أنا وصديقي ريكا الوحيدين من أبناء الفرس اللذين
أخرجهما من ديارهما حبّ المعرفة ، ورغبا عن حلاوة العيش في حياة
هادئة ليبحثا جاهدين عن الحكمة .

لقد ولدنا في مملكة مزدهرة ، ولكننا لا نؤمن أن حدودها هي
حدود المعرفة لنا ، كما أننا لا نؤمن أن حكمة الشرق وحدها هي التي
تهدي سبلنا .

أرجو أن تقصّ عليّ ما قيل عن سفرنا ، ولكن دون أن تجاملني ،
لأنني لا أعول على كثير من المستحسنين له . أرجو أن تعنون ردّك على
مدينة أروزم التي سأمكنك فيها بعض الوقت .

أستودعك الله يا عزيزي روستان ، وتأكد أنني أينما كنت صديقك
المخلص ؟

من توريس — ١٥ من شهر صفر سنة ١٧١١ هـ .

الرسالة الثانية ،

من أوزبك إلى كبير النخعيان في سرراي أصفهان

إنك الحارس الأمين على أجمل نساء فارس . لقد وضعت بين يديك في ثقة أغلى ما أملك من الدنيا : إنك تحمل بين يديك مفاتيح هذه الأبواب العريضة المنال والتي لا تفتح إلا لي . وما دمت الساهر على حراسة هذا المستودع الذي يحوى ما أضن به من نفائس ، فإن قلبي يستريح ، ويستمتع بأمن تام : إنك تقوم بالحراسة في سكون الليل ، وصخب النهار ، ولا تكل عن مساندة الفضيلة إذا ترنحت ، وتعيد إلى نساء القصر صوابهن إذا حاولن الخروج على واجبهن . إنك قاهر الرذيلة وعماد الأمانة .

إنك تأمرهن وتطيعهن وتنفذ لهن رغباتهن في خضوع تام كما تحملهن في الوقت نفسه على تنفيذ شرائع القصر . إنك تحس نفرا إذا أدبت إليهن أتفه الخدمات ، وتخضع نفسك في احترام وخشية لأوامرهن المشروعة ، وتخدمهن كأنتك عبد لعبيدهن .

أما سلطانك عليهن فإنك كسيد تسوسهن مثلي إذا خشيت أن يفطن من قوانين الحياء والاحتشام .

تذكر دائما أنك لم تكن من قبل شيئا مذكورا ، حين كنت أخط عبيدى ، وأنى وضعتك في هذه المكانة ، وائتمنتك على نعم قلبي .

الزم في خضوع تام باب أولئك اللاتي يقاسمنى المحبة ، ولكن أشعرهن دائما بتبعيتهن التامة لسيدهن . قدم لهن كل أنواع الترف البريء

لإبعاد الضجر عنهم : رفه عنهم بالموسيقى والرقص والمشروبات اللذيذة
وشجعهم على الاجتماع معا . وإذا رغب في الذهاب إلى الريف فاصحبهم
إليه ، ولكن مر بقتل جميع الرجال الذين يبرزون لهم . حشهم على النظافة
لأنها دليل نقاء الروح ، وحدثهم عنى من آن لآخر .

إني مشتاق لهم في هذا المكان الجميل الذى يزدان بهم . . وداعا .

من توريس في ١٨ / من شهر صفر سنة ١٧١١ م .

الرسالة الثالثة

من زكي إلى أوزبك بمدينة تورييس

لقد أمرنا كبير الأغوات أن يصحبنا إلى الريف ، وسيخبرك أنه لم يحدث ما يعكر الصفو ؛ فقد نزلنا من هوادجنا - عندما أردنا عبور النهر - ودخلنا كمعادتنا في صناديق مغلقة ، وكان يحمل كلا منا عبدان ، وبذلك أمنا الأنظار أن تقع علينا .

كيف يتسنى لي أن أعيش يا عزيزي أوزبك في قصرك بأصفهان ، في الأماكن التي تذكرني دائما باللذات السالفة ، وتهيج كل يوم شهواتي في جموح متجدد . أهيم من جناح إلى آخر باحثاً عنك دون جدوى ، ولا أجد إلا ذكريات قاسية لهنتني الماضية : فتارة أرائني في هذا المكان الذي شهدني وأنا أضحك في أحضاني لأول مرة في حياتي ، ثم أتخيلك وأنت تفض النزاع المشهور بين نسائك اللاتي تدعى كل منهنّ تفوقها على سائر النساء في الجمال . ثم عرضنا أنفسنا عليك بعد أن بذلت كلّ منا أقصى جهدها في التزين والتجمل فتأملت أنت بسرور معجزاتنا في هذا الفنّ ، ورأيت إلى أي حدّ نستطيع أن نفقنّ في الحصول على إعجابك ، ولكن سرعان ما طلبت منا أن نعرض الجمال الذي وهبته إيانا الطبيعة بدلا من هذا الجمال المصطنع الذي أمرت بإزالته ، والتخلص من هذه الزينة التي تضيق بها ، فكان علينا أن نبذلناظرنا ببساطة الطبيعة كما شئت . أما أنا فكنت لا أحفل بالحنج ، ولا أفكر إلا في مجد الجمال . وكنت سعيدا يا عزيزي أوزبك بهذه المفاتن المعروضة أمام عينيك . رأيك

تتنقل من بهجة إلى بهجة وروحك الهائمة تظل طويلا غير مستقرة ،
ولا أخفى عنك ، يا أوزبك ، أنه كان يتملكني شعور أقوى من الطموح
أن أنال إعجابك . وبدالى من طرف خفى أنى أصبحت مسيطرة على
قلبك : لقد أمسكتنى ثم تركتنى ثم عدت إلى فعرفت كيف أستبقيك .
وكان النصر لى ، والحسرة لكل منافساتى .

وكان يبدو لنا أننا الوحيدان فى هذه الدنيا . وأن كل ما حولنا
لا يستحق أن يسترعى انتباهنا . كان الله فى عون منافساتى حين وهبن
الشجاعة على احتمال مشاهدة مظاهر الحب التى حظيت بها منك ! وإذا
كنّ رأين هيامى فقد أحسن الفارق بين حبي وحبهن . إنهنّ إذا استطعن
منافستى فى الفتنة ، فإنهن لا يقدرن على منافستى فى المشاعر المتأججة .
ولكن أين أنا ؟ وإلى أين تقودنى هذه القصة التى لا طائل تحتها ؟ ..
إنه من الشقاء ألا تصبح المرأة محبوبة ، ومن العار أن تفقد الحب .

إنك تركتنا - يا أوزبك - لتطوف فى هذه البيئات غير المتحضرة .
ما هذا المسلك ؟ إنك لا تعبأ بكونك محبوبا . واأسفاه ! إنك لا تحس
ما تفقده ! إنى أتهد كل يوم لغيابك ، ولكن ما من سميع ! ودموعى تنهمر
ولكنك لا تستمتع بها ! ويبدو أن الحب يحيا فى القصر ولا تحسه لأنك
تبتعد عنه دائما .

آه ! يا عزيزى أوزبك ، لو أنك تعرف كيف تكون سعيدا !

من سراى فاطمة ٢٢ من المحرم سنة ١٧١١ .

الرسالة الرابعة من رئيس إلى أدركت بأضدوم

لقد قرر هذا الوحش الأسود أخيراً أن يسلمني للغم . إنه يريد بكل ما أوتي من قوة أن يبعد عني جاريتي زيليد ، تلك التي تخدمني في حب صادق وتعرف يديها الماهرتين كيف تجعلني وتزينني وتمنحني الفتنة والجاذبية . إنه لا يكتفي بما أعاني من آلام الفراق ، بل يريد أن يمسّ شرفي في غيابك .

إن هذا الخائن يرى ثقتي بها لا بدّ أن تكون قائمة على بواعث آثمة ويحتريء على أن يفترض أنه سميع أو رأى أشياء لا يمكن أن تدور مطلقاً بخلدني ، وليس لذلك من سبب إلا أنني أطرده دائماً خارج الباب حيث ينتابه الملل والضجر . إني لشديدة الشقاء !

وإن عزلي وفضيلتي لا تكفيان لأكون بمأمن من شكوك باطلة . فبعد السوء أخذ يهاجمني حتى فيما يتعلق بقلبك وأصبح لزاماً عليّ أن أدافع عن نفسي !

لا . إني أحترم نفسي إلى حدّ يمنعني من أن أنزل إلى المستوى الذي أبرر فيه سلوكي . إني لا أودّ ضامناً لسلوكي سواك أنت ، سوى حبك لي وحي لك ، سوى دموعي أخيراً إذا دعا الأمر يا عزيزي أوزبك .

من حرملك فاطمة - ٢٩ من شهر المحرم سنة ١٧١١ .

الرسالة الخامسة من ررستان إلى أوزبك بأرضروم

إنك موضوع جميع الأحاديث بمدينة أصفهان ؛ إنهم لا يتكلمون
إلا عن رحيلك وبعضهم يعزو ذلك إلى الطيش ، وبعضهم ينسبه إلى
بعض أحزانك ، وأصدقاؤك هم وحدهم الذين يدافعون عنك لكنهم
لا يقنعون أحداً .

إن الناس لا يجدون سبباً لهجر نسائك وأهلك وأصدقائك ووطنك
لتذهب إلى أجواء مجهولة ليس لأبناء الفرس علم بها .

أما أم ريكا فلا عزاء لها ، وتطالبك بابنها الذي اختطفته منها .
أما أنا يا عزيزي أوزبك فأميل إلى الموافقة على كل ما تعمل ، ولكني
لا أستطيع أن أغفر لك غيابك ، ولا أن أتقبله مهما سقت لي من أسباب
لا يستسيغها قلبي مطلقاً .

وداعاً . أرجو أن تحبني دائماً .

من أصفهان يوم ٢٨ من شهر ربيع الأول سنة ١٧١١ .

الرسالة السادسة من أدركك إلى صديقته نصير بأصفهان

تركنا بلاد الفرس ، ودخلنا البلاد الخاضعة للأتراك ، وذلك على مسيرة يوم من إريوان ، ثم وصلنا إلى مدينة إرزيرون بعد اثني عشر يوماً وسنمكث فيها ثلاثة أشهر أو أربعة .

يجب أن أعترف لك يا نصير أنني شعرت بألم دفين عند ما اختفت بلاد الفرس عن ناظري ووجدت نفسي بين العثمانيين الغادرين .

وقد كنت أشعر أنني أصبحت ملحداً كلما توغلت في بلاد الإلحاد ، وتخلت وطني وأسرقي وأصدقائي ، وتيقّظ حناني ، وانتابني قلق انتهى باضطرابي وجعلني أشعر بأنني غامرت كثيراً بأسباب راحتي .

ولكن آلم الأشياء لقلبي هن نسائي ، فإني لا أستطيع التفكير فيهن دون أن أكون نهياً للأحزان ، وليس ذلك يا نصير لأنني أحبهن : فقد فقدت الشعور في هذه الناحية حتى صرت لا أشتي شيئاً . وإن حياتي في أجنحة القصر جعلتني أحذر الحب وأهدمه في نفسي ؛ ولكن مع برودي نشأت عندي غيرة دفينه تلتهمني ، لأنني أرى جمعاً من النساء يكاد يكون متروكا لهواه ، ولا أجد من يخبرني بخبرهن إلا نفوساً خسيصة ؛ فمن الصعب على نفسي أن أكون مطمئناً إذا أخلص عبيدي ، وما بالك إذا كانوا مخلصين ؟ أي أخبار محزنة ستصل إلى في هذه البلاد النائية التي

أجوبها ؟ إنه ألم لا علاج له لدى أصدقائي ، وإنه لمكان ينبغي لهم ألا يعلموا ما ينطوي عليه من أسرار أليمة .

ثم ماذا في استطاعتهم أن يفعلوا لي ؟ أليس الأولى بي ألف مرة أن أصفح سرّاً بدلا من الجهر بالعقوبة ؟

أي عزيزي نصير ، إني أثبتك كلّ ما بقلبي من أحزان . وفي ذلك ما بقي لي من عزاء وحيد في الحالة التي أنا عليها .

من مدينة أراضوم في العاشر من شهر ربيع الآخر سنة ١٧١١ -

الرسالة السابعة من فاطمة إلى أوزبك يا ضررم

لقد مخني على رحيلك شهران يا عزيزي أوزبك ومع ذلك لا تصدقه
نفسى لما ألاقه من ضعف . لى أجوب القصر كله كما لو كنت موجوداً
فيه ، ولا يزايلنى هذا الوهم أبداً . وما ظنك بامرأة تحبك ، واعتادت
أن تضمك دائماً بين أحضانها ، ولا هم لها إلا أن تقدم لك الأدلة على
حنانها ، لقد سعدت إذ ولدت حرة ولكن سلطان حبها قد استعبدها ؟

لم تكن عيناى قد امتلأت برجل قبل زواجى منك ، وما زلت أنت
الوحيد الذى سمح لبصرى أن يراه ؛ وإنى لا أضع هؤلاء الأغوات
البشعين فى صف الرجال ، فأقل نقائصهم أنهم ليسوا رجالاً مطلقاً ،
وإذا قارنت جمال وجهك بشناعة وجوههم ، أحسست أنى سعيدة .
إن خيالى لا يستطيع أن يتصور سحراً يفوق سحرك ، وأقسم لك
يا عزيزي أوزبك أنه إذا قدر لى أن أخرج من الوضع الذى أعيش فيه
بحكم مركزى ، أو استطعت أن أهرب من الحرس الذى يحيط بى ،
وسمح لى أن اختار رجلاً من رجال هذه العاصمة التى جمعت مختلف
الأناس فلن أختار — يا أوزبك — أحداً سواك ، فأنت وحدك الجدير
بالحب فى هذا العالم .

لا تظن أنى لنيايك أهملت جمالا هو أثير عندك ، فزالا الرغبة ،
التي كانت تدفعنى إلى أن أحوز إعجابك ، تحملنى على التجميل بالرغم من أنى

أعرف أنه لن يرانى أى إنسان ، وأن كل هذا التزين لن تستمتع أنت بشيء منه .

إننى لا آوى إلى فراشى إلا إذا تعطرت بأطيب العطور ، وأتذكر ذلك الزمان السعيد الذى كنت تأوى فيه إلى أحضانى ، وتترامى لى صورتك الحبيبة فى حلم لذيذ ، وخيالى يهيم فى رغباته كأنه يتعلل بالآمال . فكنت أفكر أحيانا أنك ستعود إلينا وقد زهدت فى هذه الرحلة المرهقة ، ويمضى الليل فى أحلام لا هى فى اليقظة ولا فى المنام . كنت أبحث عنك بجانبى ، ثم يخيل إلى أنك هربت منى . وكانت النار التى تلتهمنى تبدو هذه المرات وتوقظ مشاعرى . وعندئذ أراى شديدة الانفعال . إنك لا تصدق ذلك يا أوزبك ، ولكن من العسير على أن أعيش فى مثل هذه الحالة . فالنار تجرى فى عروقى . ولا أستطيع أن أعبر لك تعبيراً صادقاً عما أشعر به ، وكيف أشعر بما أعجز عن التعبير عنه ؟ إننى فى مثل هذه اللحظات ، يا أوزبك ، أود لو أعطى ملك الدنيا مقابل عطفك علىّ .

ما أتعس امرأة تترك وحدها ، وتحرم ذلك الشخص الذى يستطيع وحده أن يشبع هذه الوحدة ، دون أن تجد من يسليها ؛ فعليها أن تعيش فيما ألفت من تنهدات ، وفى ثورة الشوق العنيفة ، بعيدة من السعادة ، لا حق لها فى أن تضى السعادة على شخص آخر ! زينة قصر لا جدوى لها ، وحراسة بقصد المحافظة على الشرف ، لا من أجل سعادة الزوج !

ما أقسى قلوبكم معشر الرجال ! إنكم تنتشون بمشاعرنا الملتهبة حين لا نستطيع أن نطقها . إنكم تعاملونا على أننا فاقدرات الحساسية وتغضبون تماما من أن نكون كذلك . وتعتقدون أن شهواتنا التى كبحت زمناً

طويلاً ستنتشى حين يقع بصرنا عليكم . ليس من الهين أن يصبح أحدكم
محبوباً ، وأقرب منه أن يتسرب اليأس إلى حواسنا مما لا تنفع فيه براعتكم .

وداعاً يا عزيزى أوزبك ، وثق أننى لا أعيش إلا لأعبدك ، وأن
روحي متيمة بك ، وأن غيابك لا ينسينى ذكرك ، بل يلهب حبي إذا كان
من المستطاع أن يزيد لهيبه .

من قصر أصفهان فى ١٢ من ربيع الأول سنة ١٧١١ .

الرسالة الثامنة من أدركك إلى صديقه رسولان بأصفهان

لقد وصلتني رسالتك بأرض روم حيث أقيم ، وكنت على يقين من أن يحدث رحيلي ضجة ، غير أنها ضجة لا تضايقني . وماذا تبغى أن أتبع : حكمتي أم حكمة أعدائي ؟

لقد ظهرت في بلاط الملك منذ شبابي الغض ، وما أستطيع أن أقوله هو أن قلبي لم يفسد في البلاط . والتزمت خطة عظيمة من شأنها أن أجروا على أن أكون فاضلا . وعندما تكشف لي رذائل القصر ابتعدت عنها ثم اقتربت منها لا كشف عنها القناع . وحملت الحقيقة حتى وصلت بها إلى قوائم العرش ، وهناك تكلمت لغة لم تكن مألوفة حتى ذلك الحين : لقد زلزلت أركان الملوك وبثت الرعب في العابدين والمعبود على السواء .

وعندما تبين أن صراحتي كونت لي أعداء ، وأثارت ضغينة الوزراء ولم أحصل بها على رضا الأمير ، وعندما وجدت نفسي وسط حاشية فاسدة لا أعتمد فيها إلا على فضيلة لا تقوى على مواجهة هذا الفساد ، قررت أن أغادر البلاط . وزعمت أني مهتم اهتماما بالغا بدراسة العلوم ، وباستمرار هذا التظاهر ألفت العلوم حقاً ، فانسحبت إلى منزل بالريف ولم أعد أشغل بأى أمر . وقد كان لهذا الإجراء عيوبه : إذ ظلت دائماً عرضة لمكر أعدائي لأنى قضيت على الوسائل التي تحميني . وتسربت إلى أخبار سرية جعلتني أفكر في نفسي جدياً : فقضيت على نفسي بالنفي

بعيداً عن وطني ، وكان انسحابي من البلاط مبرراً مقبولا . ذهبت إلى الملك ، وبينت له ما ينتابني من رغبة في تعلم معارف الغرب ، وأوعزت إليه مقدار ما يمكن أن يستفيدة ملكه من رحلاتي ، فحزت قبوله ، ثم رحلت ، فأفلتت بذلك ضحية من يد أعدائي .

هذا هو ياروستان السبب الحقيقي لسفري ، فدع أصفهان تتكلم ، ولا تدافع عني إلا أمام أحبابي ، واترك أعدائي لتأويلاتهم الخبيثة ، وإني لسعيد بأن تكون هذه التأويلات هي الضرر الوحيد الذي يستطيعون أن ينالوني به .

إنهم يتحدثون عني الآن ، ومن المحتمل أن ينسوني تماما عما قريب ، أما أصدقائي . . . لا — ياروستان — لا أريد مطلقاً أن أستسلم لهذه الفكرة الحزينة : سأكون عزيزاً عليهم دائماً ؛ وإني أعتمد على إخلاصهم كما أعتمد على إخلاصك .

أرضروم — ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ١٧١١ .

الرسالة التاسعة من سيرة الخصال إلى إبي بن في أرضهم

إنك تتبع سيدك القديم في رحلاته ، وتجوب معه المقاطعات والممالك ،
فلا تعرف الأحزان سبيلا إلى نفسك ، وتشاهد في كل لحظة أشياء
جديدة ، فتستمتع بما تراه ولا تشعر بمرور الزمن .

وليس حالي كحالك ، فأنا رهين بين رهيب ، محاط دائماً بنفس المناظر
التي لا جديد فيها ، نهب للأحزان التي لا تتغير . تراني أئن تحت عبء الأعوام
الخمسين التي قضيتها في إرهاب دائم وقلق شديد . وخلال هذا العمر الطويل
لا أستطيع أن أقول بأني سعدت فيه يوم مشرق أو بلحظة هادئة .

وحينما أعد سيدي الأول مشروعه القاسي بأن يعمد إلى بنسائه ،
واضطرنني بالإغراء المصحوب بالتهديد الشديد إلى أن أفارق رجولتي إلى
الأبد ، وقد ظننت نتيجة لإرهابي بالأعمال التي لا تطاق أنني أضحي بشهواتي
في سبيل راحتي ورفعتي ، وكنت كنت تعيشاً ! لقد جهد عقلي في أن يطلعني
على المكسب وأخفي عني الخسارة ، كنت آمل أن أكون قد تخلصت من
أضرار مضاجعة النساء لعجزى عنها . ولكن واسوأ تأه ! لقد أطفئوا في
آثار الشهوة دون أن يقضوا على أسبابها ، وأجد نفسي ولا عراء لي محاطاً
بأشياء تثير الشهوات دون انقطاع . وأدخل القصر فأرى كل ما فيه
يشعروني بالأسى على ما فقدت : كنت أشعر بالحياة تدب دائماً في جسدي !
ويبدو لي أن المفاتن الطبيعية التي تظهر أمام عيني لا تنكشف لي إلا لتحزني .
وتضاعف شقائي . كنت أجد نفسي دائماً إزاء رجل سعيد

وفي هذا الوقت العصب ، لم أقد امرأة إلى سيدى ، إلا وعدت إلى مأواى والغيط يملأ قلبي ، والحسرة الشديدة تملك على نفسى .

وهكذا قضيت شبابى البائس : ليس لى غير نفسى أفضى إليها بسرى . كنت مثقلاً بالهموم والأحزان التى لا مفرّ من أن أ كظمها : وتلك السيدات اللاتى كنت أحن إلى أن أنظر إليهن بعيون ملؤها الحب ، لم أتطلع إليهن إلا بنظرات جد صارمة . ما أضيعنى لو فطن إلى ما كان يدور بنفسى ، وأى خير فاتهن إذا جهلن حالى .

ثم مضت حرارة الشباب وهأنذا قد أصبحت شيخاً أجد فى هذه الناحية هدوءاً وأنظر إلى النساء بلا مبالاة وأرد لهن جميع الإهانات وكل الآلام التى جرعتنى إياها . وأذكر دائماً أننى ولدت لأسيطر عليهن . ويخيل إلى أننى عدت رجلاً فى الحالات التى تتطلب منى قيادتهن . إني أمقتن حينما يبدو عليهن عدم المبالاة ، وحين يطلعنى عقلى على نواحي ضعفهن . وأجد لذة خفية فى أن أخضعهن ، ولو أننى أقوم على حراستهن لغيرى ، وعند ما أحرمن من كل شيء يخيل إلى أن حرمانهن من أجلى فأنال بذلك رضا غير مباشر . ومقامى فى القصر بمثابة إقامتى فى مملكة صغيرة ، وكل ما بقى لى من عواطف هو طموح يجد الآن ما يرضيه ، لأننى أرى نفسى مع السرور محوراً لكل شيء فى القصر ، وألا غنى عنى لحظة واحدة ، ولذلك أتحمّل راضياً حقد جميع النساء اللاتى وطدن قدمى فى الوظيفة التى أشغلها . لقد فعلن ذلك بجاحد . لأنهن يجدننى دائماً إزاء أظهر شهواتهن حاجزاً منيعاً : لهن يضعن المشروعات وأنا أقف لجأة دون تحقيقها . وأتسلح بالرفض ، وأندرع بالتدقيق ، ولا تجرى على شفتى سوى ألفاظ الواجب والفضيلة والاحتشام والحياء . إني لأحزنهن حين أتحدث دائماً عن ضعف جنسهن وعن سلطان سيدهن . ثم يؤلمنى

بعد ذلك أننى أضطر إلى كثير من الصرامة فى معاملتهم . وتلح على الرغبة فى أن أسمعهم أننى لست إلا أداة لمصلحتهم وأننى شديد التعلق بهم .

ليس هذا كل ما هتالك : فلم أخل من مضايقات لأحد لها ، لأن هؤلاء النساء الحاققات لم يكن لهن جميعاً من قصد سوى الانتقام البالغ ممن يضايقهن ، وإن كيدهن لعظيم . كان بيننا ما نسميه مد البحر وجزره من التسلط والخضوع ، وكن يكلفننى بالقيام بأخس الأعمال ، ويدين لى ازدراء لا مثيل له : كن يوقظننى فى الليل عشر مرات لأتقه الأشياء دون رعاية لشيخوختى وكنت مرهقاً دائماً بما يصدرن لى من الأوامر والأعمال وأهوائهن الحقاء . ويخيل لى أنهن كن يتناوبن فى استخدامى ، وأن أهواءهن الطائشة يلاحق بعضها بعضاً ، وفى أكثر الأحيان يحلو لهن أن يضاعفن اهتمامى بعملى ، إذ يمكنننى فى سررن لى بأسرار كاذبة : فمرة تقول إحداهن : إن شاباً يبدو خلف هذه الجدران ، ومرة تقول أخرى : نسمع ضوضاء فى هذه الناحية ، ومرة تقول ثالثة : ينبغى لنا أن نرد على رسالته ، وكل ذلك يزعجنى ، وهن يتضاحكن من هذا الانزعاج وتقر أعينهن حين يريننى هكذا معذباً ، وأحياناً أخرى يلزمننى بايهن فلا أفارقه ليلاً ونهاراً .

لأنهن يعرفن تماماً كيف يتمارضن وكيف يزعمن الضعف أو الإغماء أو الخوف ، ولا يعوزهن أى ادعاء ليصلن لى إلى الغاية التى يردنها . ويتحتم فى مثل هذه الأحوال الطاعة العمياء : والرعاية التى لا حد لها . والرفض الذى يتفوه به رجل مثل أمر لا يستساغ سماعه ، وإذا ترددت فى طاعتهم كان لهن الحق فى عقابى . لذلك يالجبى ، أوش أن أفارق الحياة من أن أنزل إلى مثل هذا الدرك من الهوان .

وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، فإتنى لست فى أية لحظة واثقا

من عطف سيدي ورعايته ، فلي في قلبه نوازع كثيرة من العداة لا تفكر إلا في ضياعى : ذلك أن لنسائه أرباع ساعات من الخلوة لا أسمع فيها شيئاً مطلقاً ، أرباع ساعات لا يرد فيها لمن طلباً . أرباع ساعات أكون فيها أنا المخطيء دائماً . إني أقود إلى فراش سيدي نساء حاققات على : أعتقد أنهن في هذا الفراش يعملن من أجل ، وأن تكون مصلحتي موضع رعايتهن ؟ إن أخوف ما أخافه هو دموعهن وتنهدهن وأحضانهن ولذاتهن أيضاً : لأنهن في مكان نصرهن . وإن فتتهن لتبث الرعب في قلبي : فما يقدمه للسيد في الحاضر يحو في لحظة واحدة جميع خدماتي السابقة ، ولا شيء يقف بجانبى لدى سيد ليس له أى سلطان على نفسه .

كم من مرة حدث لى أن آويت إلى فراشى متمتعاً برضا سيدي ، وأقوم منه وهو ساخط على ١١

وماذا فعلت في ذلك اليوم الذى جلدت فيه بقسوة خارج القصر ؟ تركت امرأة بين ذراعى سيدي ١ وما إن رآته ملتجئاً حتى سكبت سيلاً من الدموع ، وشكت وعرفت كيف تنلطف لشكاياتها وتبالغ فيها كلما أثارت فيه الرغبة ، فكيف يطمئن بى مقام فى مثل هذه اللحظة الشديدة الخطورة ؟

لقد ضيعت من حيث لا أدري . إني ضحية مفاوضات تقوم على الشهوات ، ومعاهدة عقدتها التهنيدات . هذه — يا عزيزى لىبى — الحالة القاسية التى أعيش فيها دائماً .

كم أنت سعيد ! فاهتمامك كله موجه إلى شخص أوزبك ، ومن اليسير عليك أن ترضيه ، وأن تظل محتفظاً بحظوتك لديه حتى آخر أيامك .

من قصر أصفهان فى آخر شهر صفر سنة ١٧١١ م .

الرسالة العاشرة من ميرزا إلى صديقه أوزبك بأمرهم

لقد كنت وحدك العوض عن غياب ريكا عني ، كما كان ريكا عزائي عن غيابك . إننا في حاجة إلى وجودك بيننا — يا أوزبك — فأنت روح مجتمعنا .

ما أقسى أن تنقطع الصلات التي عقدتها القلوب والعقول ! نحن نتناقش هنا كثيراً : ومناقشاتنا تدور عادة حول الأخلاق .

وقد طرح أمس موضوع هو : أياكون الناس أسعد بلذاتهم ، وإشباع حوائجهم ، أم بممارسة الفضيلة ؟ وكثيراً ما سمعتك تقول : إن الناس ولدوا ليكونوا فضلاء ، وإن العدالة صفة لازمة لهم لزوم وجودهم ، فأرجوك أن تشرح لي ما تعني بهذه العبارة .

لقد تحدثت مع رجال الدين فأياسوني بآياتهم القرآنية^(١) ، وأنا لا أكلهم كئومن صادق الإيمان ، ولكن كرجل ، وكواطن ، وكأب لأسرة . ووداعاً .

من إصفهان في آخر صفر سنة ١٧١١ م .

(١) هو معترف بأنه غير مؤمن فبريد دليلاً عقلياً لا عقلياً .

الرسالة الجهادية عشرة من أدنك إلى ميرزا باصفهان

إنك تدع عقلك ، وتلجأ إلى عقل ، وتتنازل حتى تستشيرني ، وتعتقد أنني أهل لأن أعلمك ؛ يا عزيزي ميرزا ، إن هناك أمراً يرضيني أكثر من حسن رأيك فيّ ، إنها صداقتك التي فزت بها .

ولأجيبك عما طلبت مني ، لا أرى لزوماً أن أستعمل الحجج المجردة ؛ فهناك بعض الحقائق لا يمكن فيها الاقتناع ، بل تتطلب أن يحسها الإنسان : كالحقائق الخلقية . وربما أثرت فيك هذه القصة التاريخية ما لا تؤثره الفلسفة الدقيقة :

كان في البلاد العربية شعب صغير يدعى التروجلوديت ينحدر عن التروجلوديت القدماء ، الذين كانوا — إذا صدقنا المؤرخين — أشبه بالبهائم منهم بالناس . لم يكونوا مشوّهي الخلق ، ولم يكس جلودهم الشعر كالديبة ، ولا يصيحون ، وكانت لهم عيون ؛ لكنهم كانوا تعسين ومتوحشين إلى حدّ كبير ، فلم يكن عندهم أي قاعدة للإنصاف أو العدالة .

وكان لهم ملك من أصل أجنبيّ عنهم ، أراد أن يهذب شراستهم الطبيعية فعاملهم بقسوة ، فتعصبوا عليه وقتلوه ، واستأصلوا الأسرة الملكية كلها .

وما إن حدث هذا حتى اجتمعوا لاختيار حكومة ، وبعد جدل عنيف وعراك عينوا حكما ، وما كاد هؤلاء الحكام يختارون حتى أصبحوا لا يطاقون فقتلهم كذلك .

هذا الشعب المتحرر من النير الجديد ، لم يعد يُحكم إلا طبيعته الوحشية . واتفق أفرادُه على ألا يطيعوا أحداً بعد ذلك ، وأن كل شخص لا يرعى إلا مصالحه دون رعاية لمصالح الآخرين .

هذا القرار الإجماعي ، أَرْضَى جميع أفرادهم إرضاء تاما . وقال كل منهم : فيم أقتل نفسي في العمل لأناس لا أهتم بهم مطلقا ؛ سأفكر في نفسي وحدها . سأعيش سعيداً : وما يعنيني في أن يكون الآخرون كذلك ؟ سأحصل على جميع ما أحتاج إليه ، وإذا تم لي ذلك فلا أهتم مطلقا بأن يكون سائر التروجلوديت بأئسين .

وحان شهر البذر ، فقال كل في نفسه : لن أحرث من حقل إلا بمقدار ما أحتاج إليه من قمح لغدائي ، وكية كبيرة لا داعي لها عندي ، ولن أبذل مطلقا جهداً في غير طائل .

لم تكن الأرض في هذه المملكة الصغيرة ذات طبيعة واحدة : فنها الجدية ، والجبلية ، ومنها البقاع المنخفضة التي تروى بكثير من الجداول .

وفي هذا العام كان الجفاف شديداً ، فلم تنل الأماكن المرتفعة شيئاً من الماء ، أما التي نالت الري فقد أخصبت وأتت بخير كثير : وهكذا كاد سكان الجبال يهلكون جميعاً لقسوة سكان المنخفضات ، إذ رفضوا أن يقاسموهم الحصاد .

ثم كانت السنة التالية غزيرة الأمطار : فسعدت الأماكن المرتفعة بنحبب غير معهود ، وغرقت الأرض المنخفضة بالماء ، فضج نصف

الشعب مرة أخرى من المجاعة ، لكن هؤلاء البائسين وجدوا أناساً عاملوهم بالقسوة التي وجدوها منهم من قبل .

وكان لرجل من أعيانهم امرأة رائعة الجمال ، عُلِقَ بِحُبِّهَا أَحَدُ الْجِيرَانِ فاخْتطفَهَا ، ونشأت معركة عنيفة بينهما ، وبعد السباب والضرب اتفقا على أن يحتكما إلى رجل من التروجلوديت كان له قدر أيام قيام الجمهورية . ذهاباً إليه ، وأرادا أن يبسطا أمامه الحجج ، فقال لهما : ماذا يعنيني من أن تكون هذه المرأة لك أو له ؟ إن لدى حَقلاً أحرثه ؛ فلن أضيع وقتي في فض ما بينكما من نزاع ، ولن أشغل نفسي بقضايا كما وأهمل أحمالي ، دعاني في هدوء ، ولا تزعجاني بعراككما . ولم يكتف بذلك بل تركهما ، وانصرف إلى أرضه يعمل فيها . وكان المغتصب أقوى الطرفين ، فأقسم أنه يؤثر أن يموت على أن يردّ هذه المرأة ، أما الآخر فقد تأثر تأثراً بالغاً من ظلم جاره ، وقسوة القاضى ، وفي أثناء عودته يائساً لقي في طريقه امرأة شابة جميلة عائدة من النبع . لم يعد لديه امرأة ، وأعجبته هذه المرأة وزاد سروره بها أن علم أنها زوجة ذلك الرجل الذى اتخذها قاضياً ، ولم يتأثر لما كان فيه من تعس الحال : فاخْتطفَهَا ، واصططحبها إلى منزله .

وكان هناك رجل يملك حقلاً على حظ من الخصب ، وكان يزرعه بعناية فائقة ، فاتحد عليه اثنان من جيرانه ، فطرداه من منزله ، واحتلا حقله . وكان بينهما اتحاد لمقاومة من يريد اغتصاب الحقل منهما ، وداما على ذلك أشهرا ، ولكن أحدهما ضايقه أن يقاسمه غيره ، ما يستطيع أن يملكه وحده ، فقتل صاحبه ، وأصبح وحده مالك الحقل ، ولكن ملكه لم يدم طويلا ؛ فقد وثب عليه اثنان آخران من التروجلوديت ، ووجداه أضعف من أن يقاوم ، فقتلاه .

وكان من التروجلوديت رجل شبه عار ، رأى صوفاً يباع ، فسأل

عن ثمنه ، فقال التاجر في نفسه : من الطبيعيّ ألا أبغى في صوفي ثمناً
إلا بمقدار ما أشتري به مكيالين من القمح ؛ لكنني سأبيعه بضعفي ثمنه ،
فأحصل بذلك على ثمانية مكيالين ، وتمت الصفقة ، ودفع الثمن المطلوب .
ثم قال التاجر : لأنني ناعم البال ، سأحصل على القمح في الحال . فسمعه
الأجنبي ، وقال له : أنت في حاجة إلى قمح ؟ عندي ما أبيعك منه ، لكن
اثمن قد يثير عجبك ، فأنت تعلم أن القمح عزيز المنال ، وأن المجاعة فاشية
في جميع الجهات ، ولكن هات ما أخذت مني من مال ، وسأعطيك
مكيالاً واحداً من القمح : أريد أن تموت جوعاً ، لأنني لن أرضى بغير
هذا التصرف بديلاً .

وحدث أن مرضاً عضالاً غزا هذه المقاطعة . فأقن إليها طبيب ماهر
من بلد مجاور ، ووصف الدواء الناجع حتى إن جميع من عالجهم شفوا .
ولما زال المرض ، ذهب إلى جميع من عالجهم يطلب أجره فلم يجد إلا
الرفض ، فعاد إلى بلده مرهقاً من الجهود التي بذلها في هذه الرحلة الطويلة .
ولم تمض إلا فترة وجيزة حتى علم أن المرض نفسه فشا من جديد ،
واشتدت وطأته بدرجة لم تعهد قط في هذه البلاد المنكورة للجميل .
فذهب القوم إليه هذه المرة ، لكنهم لم يظفروا بأن يحییء إليهم . وقال
لهم : اذهبوا ، أنتم قوم ظالمون ، إن في أرواحكم سما هو أقتل لكم من
هذا المرض الذي تريدون الشفاء منه ، أنتم لا تستحقون أن تشغلوا
مكاناً على الأرض ، لأنكم صفر من الإنسانية ، وتجهلون قواعد
الإنصاف : وأعتقد أنني أعصى الآلهة التي عاقبتكم إذا أنا عارضت
عدالتها في غضبها عليكم .

من أرضروم في ٣ من جمادى الآخرة سنة ١٧١١ الميلادية .

الرسالة الثانية عشرة من أوبك إلى الشخص نفسه (١)

لقد رأيت يا عزيزي ميرزا كيف أن التروجلوديين لم يهلكهم سوى
شروهم وكانوا ضحايا ظلمهم . وأنه لم ينبج من الشقاء الذي حل بهذا
الشعب الوافر العدد إلا أسرتان ، وذلك أن رجلين من هذا الإقليم امتازا
بسلوكهما ، وشعرا بإنسانيتهما ، وعرفا العدالة ، وأحبا الفضيلة ، وتوثقت
صلاتهما لصلاح قلوبهما ولفساد قلوب الآخرين . ورأيا التنافر يسود
الشعب فأحسا بالراء لهم ، وكان ذلك سبباً في دعم اتحادهما ، وعملا
في تضامن مشترك ، لنفع مشترك ، ولم ينشأ بينهما جدل إلا ما تمليه المحبة
العذبة الرقيقة ، وعاشا في جانب ناء بعيد عن سائر أفراد الشعب الذين
لا يستحقون أن يعاشروهم ، وعاشوا حياة هائلة سعيدة . زرعوا بتلك
الأيادي الطاهرة ، فكان أن الأرض أصبحت تؤتي ثمارها من تلقاء نفسها .

كانا يحبان زوجاتهما ، وكانا جد محبوبين من زوجاتهما ، وكان كل
همهما أن ينشأ أطفالهما على الفضيلة ، فكانا يعرضان عليهم دائماً ما سى
شعبهم ويضعان نصب أعينهم موطن العبرة في سلوكهم ، وما آل إليه
أمرهم ، وكان أهم ما حرصا عليه أن يشعرا أبناءهما بأن مصلحة الأفراد
تتحقق دائماً بتحقيق المصلحة العامة ، فإذا أريد فصلهما فقد أريد فقدهما ،
وبأن الفضيلة ليست مطلقاً أمراً يرهقنا ، ولا ينبغي أن نعتبر ممارستها
شيئاً شاقاً ، ويوجهانهم إلى أن إنصاف غيرهم إحسان إلى النفس .

(١) هي في الواقع تنتم للرسالة السابقة .

ولم يمض زمن طويل حتى قرت أعين الآباء الفضلاء بنظراتهم من الأبناء ، وتكاثر هؤلاء الشباب الناشئون في رعايتهم بالزواج السعيد ، فلما العدد ، وقوى الاتحاد ، ولم تضعف كثرتهم فضائل أنفسهم ، بل قويت الفضيلة عندهم بازدياد النماذج الفاضلة من ناشئتهم .

فن ذا الذى هياً لهذا الشعب السعادة ؟

إن شعباً يتصف بمثل هذه الاستقامة هو محبوب من الآلهة ، إذ ما كاد يفتح عينيه ويتعرف على الآلهة حتى استشعر خشيتها ، وهذب الدين من طباعه ، ما تركته الفطرة جافياً .

لقد أقاموا الأعياد لتقديس الآلهة ، فالفتيات يتزين بالأزهار والفتيان يعلنون ابتهاجهم بالرقص الإيقاعى على أنغام الموسيقى الريفية ، ثم تمتد الموارد التى تسودها البساطة كما يسودها السرور .

وفى هذه المجتمعات تتحدث الطبيعة الساذجة ، وتتعلم القلوب تبادل المحبة ، وفى البساطة العذرية الخجول يبدو اعتراف مفاجئ بالحلب سرعان ما يمنحه الآباء الرضا ، أما الأمهات الحائيات ، فيسرن ما يتوقعنه من زواج وفى هنىء .

ويذهبون إلى المعابد ليطلبوا من الآلهة نعمها ، وليس الثراء الوافر ولا الوفرة الكثير ، لأن مثل هذه الأمانى لا تليق بالتزوج لودين السعداء ، ولا يعرفون من الرغبات إلا ما يرضى مواطنهم ، ولا يضرعون أمام المذابح إلا ليطلبوا من الآلهة الصحة لأبنائهم ، والاتحاد لإخوانهم ، والحنان لنسائهم ، والحب والطاعة لأبنائهم . وتأتى الفتيات إلى المعبد وفى نفوسهن إشار كريم ، إذ لا يطلبن من التوفيق إلا ما يمكنهن من إسعاد أزواجهن .

ولذا عات القطعان من المراعى مساء ، وخلصوا الثيران المجهدة
من المحارث ، اجتمعوا على عشاء يسير ، وتحدثوا عن ظلم أسلافهم
وجبروتهم ، وتغنوا بالفضيلة والسعادة الناشئتين مع الشعب الجديد .

ثم تغنوا بعظمة الآلهة وفضلها الذى يناله من يستمنحه ، وغضبها
الذى لامفر منه لمن لا يخشونها ، ثم وصفوا الحياة الريفية الممتعة ، والسعادة
التي تجملها البراءة ، ثم يستسلمون لنوم هادى لا ينغصه أبدا هم أو حزن .

والطبيعة لا تنقصهم شيئا من رغباتهم ومطالبهم . وفى هذا البلد السعيد
أصبح الجشع غريباً ، وتبادل أهله الهدايا فصار كل معط يؤمن بأنه
أفضل من غيره .

وأصبح الشعب التروجلودى يعد نفسه أسرة واحدة : فقطعان
الماشية تكاد يختلط بعضها ببعض ، والتعب الوحيد الذى كان يتخفف منه
هذا الشعب عادة هو ألا يقتسم هذه القطعان .

من أرضروم فى ٦ من جمادى الآخرة سنة ١٧١١ الميلادية .

الرسالة الثالثة عشرة من أوزبك إلى الشخص نفسه

لا أدري كم أحدثك عن فضائل التزويج لوديين ؛ ففي يوم من الأيام قال أحدهم : « إن أبي سيجرث حقله غداً ، لذلك سأستيقظ قبله بساعتين ، حتى إذا ذهب إلى حقله وجدته محروثاً » .

وقال آخر لنفسه : يبدو لي أن أختي هويت شاباً من أقاربنا ، فينبغي لي أن أحدث أبي لأحمله على الموافقة على زواجهما .

وجيء إلى ثالث وقيل له : « إن اللصوص قد سلبوا قطيعك فقال : إنه لا يحزنني من ذلك إلا أن بالقطيع عجلة بيضاء ناصعة كنت أريد أن أقدمها قرباناً للآلهة » .

وسمع شخص يقول لآخر : « يجب أن أذهب إلى المعبد لأشكر الآلهة ، لأن أخي الذي يحبه أبي ويؤثره كثيراً وأحبه أنا كذلك ، قد استرد عافيته » .

وقال غيره : « إن الذين يزرعون الحقل المجاور لحقل أبي يتعرضون لوهب الشمس وحرها في أثناء النهار فينبغي أن أزرع هناك شجرتين ليستطيع هؤلاء المساكين أن يفيثوا إليهما ، ويستريحوا تحت ظلالهما » .

وفي يوم من الأيام اجتمع عدد كبير منهم وشهدوا شيخاً يلوم شاباً اتهم بأنه ارتكب عملاً شائناً ، فقال الشبان : « لا نظنه ارتكب هذا الجرم ، وإن كان قد فعله فليته يكون آخر من يموت من أفراد أسرته » .

وجيء إلى رجل منهم وقيل له : إن قوماً غرباء سلبوا متاع بيتك ،
 وذهبوا به كله ، فقال : « إن لم يكونوا ظالمين فعسى أن تمتعهم به الآلهة
 أكثر مما تمتعت به ، ، .

لكن وفرة النعم لا تسلم من حسد الناس : فاجتمع جيرانهم ، وتعللوا
 بعزل باطلة ، وقرروا أن يسلبوا قطعانهم ، فلما علموا بذلك أرسلوا إليهم
 رسلاً خاطبهم بالعبارات التالية :

ماذا فعل بكم التروجلوديون ؟ هل خطفوا نساءكم ؟ هل سلبوا أنعامكم ؟
 هل أتلغوا حقولكم ؟ لا . نحن قوم عادلون نخاف الآلهة فماذا تريدون
 منا إذن ؟ أتريدون صوماً تنسجون منه ثياباً ؟ أتريدون لبناً من دوابنا ،
 أو ثماراً من أرضنا ؟ ضعوا أسلحتكم ، تعالوا إلينا ، وسنعطيكم كل
 ذلك ؛ لكننا نقسم بأقدس أيماننا أنكم إذا دخلتم أرضنا أعداء لنا ، فسنعدمكم
 شعباً ظالماً . ونعاملكم معاملة الوحوش المفترسة .

لقد رفضت هذه العبارات في ازدراء ، ودخل القوم المتوحشون
 مسلحين أرض التروجلوديين ، معتقدين أنهم غير مستعدين للكفاح ،
 وأنه لا سلاح لهم إلا براعتهم ، لكنهم كانوا على أتم أهبة للدفاع ،
 وضعوا نساءهم وأطفالهم بينهم ، وعجبوا من ظلم أعدائهم ، لأمس كثرة عددهم ،
 وتحمس نفوسهم ، وأراد الابن أن يفتدى أباه ، والزوج أن يموت دون
 زوجته وولده ، وحرص الأخ على أن يحمي إخوته ، ودافع الصديق عن
 أصدقائه ، وحارب جميعهم من أجل شعبهم ، ومن قضى نحبه منهم حل
 محله آخر حماية للحمى ، وولعاً بالغاً بالانتقام .

تلك كانت معركة بين الظلم والفضيلة ... وهؤلاء الناس الجبناء الذين
 لم يسعوا إلا إلى الغنيمة لم ينجلوا من الفرار ، واستسلموا أمام فضائل
 التروجلوديين ، ولو لم يدركوا لها كنهها .

إيرزيرون في ٩ جمادى الآخرة سنة ١٧١١ الميلادية .

الرسالة الرابعة عشرة من أدركك إلى الشخص نفسه

حينما نما الشعب على مر الأيام ، رأى أن الوقت آن ليختار له ملكاً : واتفقوا على أن يكرموا بالتاج أصحابهم ، فاتبعت أنظارهم جميعاً إلى شيخ جليل بسنه وفضله العقيم ، ولكنه لم يشأ أن يشهد هذا الاجتماع وتسأل إلى نيته . ضيق النفس من الهم .

ولما أرسلوا إليه نواباً يخبرونه بأنهم اختاروه ملكاً قال لهم : لم يشأ الله أن أكون الذى أوقع التروجلوديين فى مثل هذا الخطأ حين يعتقدون أنه ليس بينهم أعـدل منى ! لقد شرفتمونى بالتاج لكنى لن أقبله إلا إذا كنتم مصرين على ذلك ، ولكن يجب أن تعلموا أنى سأموت ألاماً لأنى شهدت مولد التروجلوديين الأحرار ، ثم أراهم اليوم يصبحون رعية لحاكم . وانهمر من عينيه سيل من الدموع وقال : ما أشقى يومى ! لما إذا عـمرت حتى شهدته ؟ ثم صاح قائلاً بصوت حاد : أيها التروجلوديون أرى حقاً أن فضائلكم بدأت تثقل كاهلكم ، فى الحالة التى كنتم فيها ، ولا رئيس لكم ، كنتم تحملون أنفسكم على الفضيلة حملاً ، وفى غير هذه الحال لن تثبتوا عليها طويلاً ، وستقعون فيها وقع فيه أسلافكم من شقاء . غير أن هذا الذى يبدو شديد العسر عليكم : فأثرتم أن تخضعوا لأمير وأن تطيعوا قوانينه لأنها أقل صرامة من خصائلكم . وتعلمون أنكم منذ الآن تستطيعون أن ترضوا مطامعكم ، وتنموا ثرواتكم وتضعفوا

أمام شهواتكم المردولة ، وإذا لم تستطيعوا الخلاص من الكبائر فليست
في حاجة إلى الفضيلة . ثم توقف برهة عن الكلام ، وانهمر دمه وبكى
بكاء مرأ لم يبكه أبداً ثم قال : وماذا تؤملون في أن أصنع ؟ كيف يمكن
أن آمر أحدكم بفعل ما ؟ أتريدون أن يصنع أحد صنيعاً فاضلاً لأنني
أمرته به ؟ وكان يمكن أن يفعله دون تدخل بدافع من كريم طبعه ؟

أيها التروجلوديون ! إنني في آخر حياتي ، ودمي قد جمد في عروقي ،
وأوشك أن ألقى أسلافكم الكرام ، فلماذا تريدون مني أن أزعمهم
وتضطروني أن أقول لهم : إنني تركتكم تحت سلطان غير سلطان الفضيلة .

أرضروم في ١٠ من جمادى الآخرة سنة ١٧١١ الميلادية .

الرسالة الخامسة عشرة من كبير النحويين إلى جاريون المحقق الأندلسي

أرجو أن يكون الله رائدك في تلك الجهات ، وأن ينجيك من جميع
الآخطار .

ولو أني لم أعرف مطلقاً هذه العلاقة التي تربط الناس بعضهم ببعض
وتسمى المحبة ، ولو أنني منطو على نفسي ؛ فقد أشعرتني بأنني ما زلت
ذا قلب . وحينما كنت قاسياً مع جميع العبيد الذين يعملون تحت إمرتي
كنت أنظر بسرور إلى طفولتك النامية .

وحان الوقت الذي وقعت فيه عينا سيدي عليك ، لأنه كان لازماً
أن تحدث الطبيعة حينها حالت القيود بينك وبين الطبيعة .

ولن أصرح لك عما إذا كنت قد أحسست الماء أو سروراً ، لأنك
رقيت إلى مستوى . لقد كفكفت من دمعك ، وهدأت من صراخك ،
وآمنت أني أراك تولد مولداً جديداً ، وتخرج من خدمة يجب عليك فيها
دائماً أن تدعن وتخضع ، لتدخل في خدمة تخولك الأمر والنهي .
لقد عنيت بتربيتك والقسوة لا تنفصل أبداً عن التعليم . ولقد ظللت
طويلاً وأنت تجهل أنك عزيز علىّ ، والواقع أنك عزيز علىّ ، بل أقول :
لاني أحبك كما يحب الأب ابنه ، إذا كان لقب الأبوة والبنوة يلائم

حالتنا التي صرنا إليها . ستجوب بلاداً مأهولة بالمسيحيين الذين لم يؤمنوا قط^(١) . ومن العسير أن تسلم من دنسهم ؛ وإلا فكيف يستطيع النبي أن يركبك وأنت بين الملايين الكثيرة من أعدائه ؛ وأرجو أن يحج سيدي إلى مكة عند عودته ، لتتطهروا هناك جميعاً في أرض الملائكة .

من قصر إصفهان في ١٠ من جمادى الآخرة سنة ١٧١١ م .

(١) هذا رأي المؤلف ، وهو مسيحي ، ولمه يشير إلى أولئك المسيحيين الذين لم يؤمنوا بالمسيحية كما ينبغي . المراجع

الرسالة السابعة عشرة من أدركك إلى الشخص نفسه

أيها الشيخ الصوفي ! إنني لا أستطيع أن أهدي من صبري ،
ولا أعرف كيف أنتظر ردك السامى . إن عندى شكوكا ينبغي أن تستقر
باليقين ، وأشعر أن عقلى هائم فاهمه الطريق المستقيم ، أنزلى طريقى
يا منبع الضياء ، واحقق بقلبك الإلهى المشكلات التى أعرضها عليك ،
وارحنى من نفسى ، فإنى أخجل من السؤال الذى أوجهه إليك :

من أين جاء المشرع بتحريم هذه الأشياء التى سماها رجساً ؟ ولماذا
حرّم علينا أن نمسّ جسم الميت ، وأوجب علينا لتطهير أرواحنا أن
نغتسل باستمرار ؟

إنه يبدو لى أن الأشياء ليست طاهرة أو دنسة بذاتها . ولا أستطيع
أن أدرك أى صفة تتصل بموضوع ما تجعل الأشياء هكذا : إن الوحل
لا يبدو لنا قذراً إلا لأن نظرنا يتأذى به ، أو لأن بعض حواسنا الأخرى
تنفر منه ، لكنه فى مادته لا يختلف عن الذهب أو الماس ، إن فكرة
الدنس بمسّ جثة لم تأت إلينا إلا من التقوُّز المركز فى طباعنا ؛
وإلا فكيف نستطيع أن نتصور أن الأجسام التى لم تغتسل قط أجسام
دنسة مالم يتأذى بها شمسنا أو نظرنا ؟ الحواسّ إذاً — أيها الشيخ الصوفى —
هى الحكم الوحيد فى طهارة الأشياء أو دنسها : لكن الأشياء لا تظهر

بحال واحدة لدى جميع الناس ، فما يسبب شعور ارتياح عند بعضهم قد يحدث نفوراً وتقزراً عند آخرين .

ويترتب على الاعتماد على الحواس في الحكم أنه لا يمكن استخدام قاعدة ثابتة في الحكم على الأشياء إلا إذا قيل : إن كل شخص يستطيع — بحسب هواه — أن يقرر فيما يعنيه حكماً ما ، ويميّز بين الأشياء طاهرها ونجسها .

ولكن أليس هذا أيضاً — أيها الشيخ الصوفي — مضاداً لقواعد التمييز التي أقامها ديننا العظيم ، وأسس القانون الذي سطرته يد الملائكة ؟

من أضرّوم في ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ١٧١١ .

الرسالة الثامنة عشرة

من محمد علي، خادم الأنبياء، إلى أوتيك في أرض روم

إنك توجه إلينا دائماً الأسئلة التي وجهت من قبل كثيراً إلى نبيّنا المقدس . وكأنك لم تقرأ الأقوال المأثورة عن العلماء ، ولم تقصد إلى الينايع الصافية من آثار العقلاء ؛ إنك لو رجعت إليها لتلاشت شكوكك .

ما أشقى أولئك الذين جعلوا كل همهم دائماً شئون الأرض ، ولم ينظروا مطلقاً بعين متأملة في ملكوت السماء ، وأولئك الذين يعظمون رجال الدين ، ولا يحترثون على مخالطتهم أو الاقتداء بهم !

أرضيون أولئك الذين لا يتدبرون أسرار الخلود . إن أنواركم التي تهتدون بها أشبه بظلمات الأغوار ، وإن استدلالكم العقلي أشبه بالغبار الذي تثيره أقدامكم ، والشمس في كبد السماء في شهر شعبان الملهب حرارة .

وهكذا أنت في أوج تفكيرك لا يمكنك أن تبلغ مستوى أقل الأئمة . وفلسفتك العقيمة أشبه ببرق يؤذن بالعاصفة والظلام : وأنت وسط العاصفة ، تعصف بك الريح كما تشاء .

في قم ، آخر شعبان سنة ١٧١١ .

هذه الرسالة يبدو فيها بوضوح أنها أساطير خيالية لا أصل لها في الدين ، ويتجلى فيها سعة خيال موتسكيو ، وما عرف عنه من دعايات فكهة .
المراجع .

الرسالة التاسعة عشرة من أوزبك إلى حديق رومنان

لم نقيم في توكات سوى ثمانية أيام ، وبعد مسيرة ثلاثة وثلاثين يوما
وصلنا إلى سمين (أزمير) .

وليس بين توكات وأزمير مدينة واحدة تستحق الذكر . ولقد رأيت
متعجبا ضعف الإمبراطورية العثمانية : هذا الجسم المريض لا يعتمد
على علاج رقيق معتدل ، بل يعالج بأدوية عنيفة تضنيه ، وتستنفد
جهده بلا انقطاع .

إن الباشوات لا يحصلون على مراكزهم إلا بسلطان المال ، لذلك
يذهبون إلى المقاطعات التي يحكمونها وقد خسروا ما لديهم من مال ،
فينهبون المقاطعات ويفسدون فيها كأنها بلاد مفتوحة . والجيش عات
لا يستجيب إلا لنزواته والحصون مخربة ، والمدن مقفرة ، والحقول
خاوية ، والزراعة والتجارة مهملتان إهمالا تاما .

وإهمال القصاص شاع في هذه الحكومة القاسية ، والمسيحيون الذين
يزرعون الأرض ، واليهود الذين ينمون الضرائب معرضون لألوان
قاسية من الاضطهاد .

وملكية الأراضي لا يطمأن إليها ، فتبع ذلك أن انحطت قيمتها ،
وقلّت الرغبة في اقتنائها ، لأن الحكم لا يقف في سبيل مطاعمهم عقد
ملكية ولا ملكية ثابتة .

وهؤلاء الهمج تركوا الفنون وراءهم ظهرياً حتى فن الحرب . وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا ترتقي رقياً مطرداً ظلوا هم في جهالتهم الجهلاء، ولم يختر بياهم أن يأخذوا عن الأوربيين مخترعاتهم الحديثة إلا بعد أن حاربوهم بها مرات كثيرة .

ولم تكن لهم خبرة بالبحار ولا بأعمالها ، ويمكن أن يقال : إن خفة من المسيحيين خرجوا من الصخر^(١) أجهدوا العثمانيين ، وأرهقوا إمبراطوريتهم .

ولقصورهم في أعمال التجارة سمحوا — بعد شيء من الجهد — للأوربيين الناشطين ذوى الإقدام بأن يمارسوها في بلادهم ، وظنوا أنهم مفضلون على هؤلاء الأجانب بأن سمحوا لهم بأن يحصلوا الثراء في ديارهم .

وفي هذه الأرجاء الشاسعة من البلاد التي جبتها لم أجد غير أزمير مدينة يمكن أن تعتبر غنية قوية ، والأوربيون هم الذين جعلوها كذلك ولو وكل أمرها إلى الأتراك لجعلوها أشبه بسائر المدن .

وهذه — يا عزيزى روستان — فكرة صادقة عن هذه الإمبراطورية التي كانت قبل قرنين من الزمان ميداناً لانتصارات بعض الفاتحين .

في أزمير في ٢ من رمضان سنة ١٧١١ .

(١) بريد اليونانيين .

الرسالة العشرون من أوزبك إلى زوجته راشي بقصر أصفهان

لقد أساءت إليّ يا راشي ، وأحس في قلبي تقلبا ينبغي أن تخافيه
إذا لم يدع لك بمادى عنك فرصة من الوقت تغيرين فيها من سلوكك ،
وتهدئين فيها الغيرة العنيفة التي تأكل قلبي .

إني أعلم أنك وجدت في خلوة بنادر : الخصي الأبيض الذي
سيدفع رأسه ثمناً لغدره وخيائته . كيف يبلغ بك النسيان حداً ألا
تشعري أنه غير مسموح لك بأن تستقبلي بحجرتك خصياً أبيض
مادام في خدمتك عدد من السود ؟ ومن لغو القول ما قلت لي : إن
الخصيان ليسوا رجالاً ، وأن طهرك يضعك فوق الأفكار التي يمكن
أن يولدها عنك عدم التكافؤ . وهذا قول لا يقنعك ولا يقنعني .
أما أنت فلأنك فعلت شيئاً يحرمه عليك قانون القصر ، وأما أنا
فلأنك سلبت شرفي بتعرضك للنظرات ، أقول : للنظرات . وربما
تلوث بتصرفات خائن وجرائمه ، وفوق ذلك بحسراته وبأسه الناشئ
عن عجزه .

ربما قلت لي إنني كنت مخلصاً دائماً لك . عجبا ! أتستطيعين
ألا تكوني مخلصاً ؟ وكيف كنت تغافلين يقظة الخصيان السود
الذين يرقبون الحياة التي تحيينها ؟ وكيف كنت تكسرين المزاليج
والأبواب الموصدة عليك ؟ أنت تفخرين بالطهر الذي لم يترك للتجربة ،

ولألا لأمكن أن تسلبه منك ألف مرة نزواتك القذرة ، ولحرمت الإخلاص الذى تتشدين به كثيرا .

وددت لو لم تفعل قط ما يشير شكوكى ، وأن هذا الوغد لم تمتد يدها الدنستان إليك ، وأنت لم تمتع نظره بمتاع سيده ، وأنت استترت بثيابك ، وأقمت هذا الحاجز اليسير بينك وبينه ، وأنت ألبأتته إلى أن يستشعر فى نفسه هذا الاحترام المقدس نحوك ، لو كنت فعلت ذلك لغضّ بصره ، ولظل لجنبه مضطرباً أمام العقاب الذى هبأ نفسه له . وإن صحّ كل ما نسب إليك فلا أقلّ من أنك ارتكبت شيئا يخلّ بواجبك . وإذا كنت حملته على المخالفة دون أن يستفيد شيئا ، ودون أن يشبع نزواتك الجاححة ، فماذا عساك أن تفعل به لترضى هذه النزوات .

وماذا تريد بعد أن تفعل إذا استطعت أن تخرجى من هذا المكان المصون الذى تعتبرينه سجناً ، وهو لرفيقاتك ملجأ أمين يحمينهن من أذى الرذيلة ، ومعبد مقدس يعالج ضعفك الجنىسى ، وهو حمى لا يرام بالرغم من خور طبيعتك ؟ أو ماذا تفعلين إذا تركت وشأنك ، ولم يكن عندك من وسائل الدفاع عن نفسك سوى حبك إياى ، ذلك الحب الذى أسأت إليه إساءة بالغة ؟ والواجب الذى خنته خيانة زريّة .

ما أظهر تقاليد البلد الذى تعيشين فيه ! إنها خلصتك من جنيات أخسّ العبيد ! ينبغى لك أن تعترفى بفضلى إذ فرضت عليك أن تحبسى فى المكان الذى أنت به ، لأنى لا أجد مكانا غيره أجدر بأن تعيشى فيه .

إنك لا يمكن أن تحتلمى رئيس الحصيان لأن عينيه ساهرتان على سلوكك ، ولأنه يسدى إليك نصائح الرشيدة . لقد قلت : إن دمامته

بلغت حداً لا تحتفلين معه رؤيته دون ألم ، ولكن في رعاية مثله يضع المرء كنوزه الثمينة . والحق أن الذي يضايقك هو أن الخصى الأبيض الذي يدنس شرفك ليس في مكان هذا الأسود . وماذا فعلت بك جاريتك الأولى ؟ إنها قالت لك : إن رفع الكلفة بينك وبين الجارية الصغيرة زيليد خارج عن حد اللياقة . هذا فقط هو سبب كراهيتك إياها .

يا راشي ، يجب أن أكون قاضيا صارما ؛ فلست إلا زوجا لا ينبغي من نخبته إلا أن يراك بريئة . إن ما عندي من الحب لزوجتي الجديدة روكسان جعلني أشعر برقة وحنان نحوها ، وينبغي أن يكون لك عندي مثله فلست أقل منها جمالا . سأقسم حيي بينكما . ولا تفوقك روكسان إلا بأن عفتها مزوجة بجمالها .

من أزمير في ١٢ من ذي القعدة سنة ١٧١١ .

الرسالة الحادية والعشرون من أوزبك إلى كبير الشخصيات الديني

لا بد أن تضطرب عند فض هذه الرسالة ، أو بالحرى ينبني أن تكون قد اضطربت حينما أغضيت عن خيانة نادر . وأنت في هذه الشيخوخة الباردة الهزيلة لا تستطيع — دون جرم — أن تمتد طرفك إلى الأشياء المنيعه التي أعدت لمناعى ، وأنت الذى وكلت إليه ألا يسمح مطلقاً لقدم خائنة أن تقف ياب المكان المنيع لتختلس النظرات من كل ما تقع عليه العين . لقد سمحت لمن وضعت فيهم الثقة أن يفعلوا ما لم تجترى أنت عليه ، ولم تحسب حساب الصاعقة التي توشك أن تنقض عليك وعليهم .

ثم ما أنت ؟ إنك من الآلات الخسيسة التي أستطيع أن أحطمها كما أشاء ، وليس لك أن تعيش إلا في طاعتي ، ولن توجد في الدنيا إلا لتجأ خاضعاً لشريعتي ، أو لتتوت بأمرى ، ولا تبقى على قيد الحياة إلا لتخدم سعادتي وحبي وغيرتي إذا تطلبت هوانك . ولا يمكن أن يكون لك هم في الحياة إلا خضوعك لى ، ولا روح إلا حيث أريد ، ولا أمل إلا أن أهنأ :

إننى أعلم أن بعض نساء يتألمن ألماً لا صبر معه من القوانين القاسية التي يفرضها الواجب ، وأن ظهور الخصى الأسود لمن باستمرار يضايقهن ، وأنهن متعبات من هذه الأوامر المزعجة التي يرذهن بها إلى رعاية حق

الزوج . لاني أعرف ذلك ، ولكنك أنت الذي سمح لهذه الفوضى أن
تكون . ستعاقب عقاباً زاجراً لكل من يخلّ بالثقة التي أمنتها .

لاني أحلف بجميع أنبياء الله ، وبعلى أعظم الأوصياء جميعاً ، أنك إذا
قصرت في واجبك فسأرى حياتك كحياة الحشرات التي أجدها تحت
قدمي .

من أزمير في ١٢ من ذي القعدة سنة ١٧١١ .

الرسالة الثانية والعشرون من جيارون إلى كسبر انخسبان

كلما ابتعد أوزبك عن القصر لوى رأسه نحو نساؤه المصونات . إنه
يقنّئ ، ويسكب الدمع ويشند ألمه ، وتقوى شكوكه ، ويريد أن يزيد من
عدد حراسهن . إنه سيرسلني إليكم مع جميع العبيد السود الذين يصحبونه .
إنه لم يعد يخاف على نفسه ؛ إنه يخاف على من هنّ أعزّ عليه من نفسه
ألف مرة .

إنني غاد إليك إذن لأعيش تحت أمرك ، وأشاركك العمل ، إلهي !
ما أعظم شأنك ! كم من الأسباب تُعدّ لسعادة رجل واحد !
يبدو أن الطبيعة وضعت النساء تحت قوامة الرجال ، ثم أخرجتهن
منها ثانية ، وقد نشأت الفوضى بين الجنسين لأن حقوقهما متكافئة .
أما نحن فقد دخلنا في نمط للنسق جديد : فأنشأنا الكراهية بيننا وبين
النساء ، والمحبة بين الرجال والنساء .

ستصير جبهتي متجهّمة ، وسأرسل نظرات عابسة . وسيفرّ السرور
من بين شفّتي . سيكون ظاهري هادئاً ، وروحي قلقة . لن أنظر قط
تجمّيع الشيخوخة لأظهر فيها أحزاني .

لقد كان يسرنى أن أكون في حاشية سيدى بيلاد الغرب ، ولكنّ
إرادتي ملك له ، لقد شاء أن أحرس له نساءه ، وسأحرسن بإخلاص .
وأنا أعرف كيف أسوس هذا الجنس الذى إذا حيل بينه وبين العيب
بدا متكبراً ، والقضاء عليه أيسر من إذلاله . إنى تحت رعايتك .

فى أزمير ١٢ من ذى القعدة سنة ١٧١١ .

الرَّسَالَةُ الثَّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ من أوزبك إلى صديقه إيهتن في أزمير

أبحرنا أربعين يوماً وصلنا فيها إلى ليفورن ، وهي مدينة جديدة وهي دليل على عبقرية دوقات توسكانيا الذين جعلوا من قرية مملوءة بالمستنقعات أعظم مدن إيطاليا ازدهارا .

والنساء فيها يتمتعن بحرية واسعة : إنهن يستطعن رؤية الرجال من خلال بعض النوافذ التي تسمى غَسِيرَات (Jalousies) : ويستطعن الخروج كل يوم مع بعض العجائز : ولا يضعن على وجوههن إلا قناعاً شفا^(١) . وإخوان أزواجهن وأعمامهن وأخوانهن والأحفاد يستطيعون رؤيتهن ، دون أن يستنكر الزوج من ذلك شيئاً .

إنه لمشهد رائع أن يرى مسلم لأول مرة مدينة مسيحية . ولن أتحدث عن الأشياء التي تسترعى الانتباه كاختلافنا في المباني والملابس والعادات الأساسية : إن في جميع ما أرى حتى في التزهات شيئاً طريفاً يجعلني أشعر شعوراً غريباً لا أستطيع التعبير عنه .

سنرحل غداً إلى مرسيليا ، ولن نطيل فيها الإقامة ، وخطتي أنا وريكا أن نتجه بلا توقف إلى باريس التي هي قاعدة الأباطورية الأوربية . إن المهاجرين يؤمنون دائماً المدن الكبيرة التي تعتبر كموطن عام لجميع الأجانب . وداعاً . وكن على يقين من أنني مقيم على حبك .

من ليفورن في ١٢ من شهر صفر سنة ١٧١٢ .

(١) شفا : لا يستر ما وراءه شترأ تاماً .

الرسالة الرابعة والعشرون من ريكال إلى إيبث عن أزسيه

لقد حللنا بباريس منذ شهر ، كنا فيه في حركة دائبة . فالمرء قبل أن يسكن في حاجة إلى إعداد تام ، وإلى أن يجد الناس الذين يتجه إليهم ، وإلى أن يؤثت مسكنه بالأشياء الضرورية التي يحتاج إليها دائماً .

باريس كبيرة كإصفهان ، فالمنازل فيها عالية إلى درجة أن الناس يحلفون أنها لم تعمّر إلا بالفلكسيين^(١) . ومن السهل أن تدرك أن مدينة مبنية في الهواء ، فيها ست بيوت أو سبعة بعضها فوق بعض ، غصت بالسكان ، إذا خرج جميع سكانها في الشارع فإنه يضيق بهم .

قد لا تصدقني في ذلك ، فنذ شهر من وجودي هنا ، كنت لا أجد أحداً يسير في المدينة . ليس في الدنيا أناس يستغلّون أجسامهم كالفرنسيين ، إنهم يحرون ، بل يطيطون ، فعربات آسيا البطيئة ، وخُطّا جمالنا المنتظمة ، تصيبهم بدوار . وأنا الذي لم أعود مطلقاً هذا الانطلاق ، أغدو وأروح على قدمي دون أن أغير مشيتي ، أنطلق أحياناً كما ينطلق المسيحي فلا أكاد أسير حتى أتلطّخ من رأسي إلى قدمي ، ولا أستطيع أن أغفر ما ينالني من ضربات الأذرع المتتالية بانتظام . وحدث أن رجلاً كان آتياً من ورائي ، فصدمني صدمةً أدارتني نصف

(١) أي سكنوها لعلوها لرصد الكواكب .

دائرة ، وصدمني آخر من الناحية الأخرى فأوقعني فجأة حيث صدمني الأول ، ولم أسر إلا مائة خطوة حتى تحطمت كأني سرت عشرة فراسخ .

ولا تظن أني أستطيع الآن أن أحدثك بعمق عن أخلاق الأوربيين وعاداتهم ، لأنني أنا نفسي لم أكون عنها إلا فكرة يسيرة ، فلم يكن لدي وقت إلا لأعجب بما أرى .

إن ملك فرنسا أعظم ملوك أوروبا . إنه لا يمتلك مناجم الذهب بكماله ملك أسبانيا ، لكنه أوسع منه ثراء ؛ لأنه يستغل غرور رعيته وجهم للفخر ، وهذا مورد لا ينفد كما تنفذ المناجم ، فإذا أراد أن يثير حرباً ضروساً ، أو يعين عليها فليس له مورد إلا أن يبيع ألقاب الشرف ؛ فبمعجزة الغرور الإنساني يدفع مراتب جنده ، ويقوّى حصونه ، ويعده أساطيله .

ومن جهة أخرى فإن هذا الملك ساحر عظيم ، إذ يؤثر بسلطانه أيضاً على تفكير رعيته فيجعلهم يفكرون كما يريد ؛ فإن لم يكن في خزانته سوى مليون جنيه ، وهو في حاجة إلى مليونين ، فما عليه إلا أن يقنعهم بأن جنيتها يساوي جنيتها فيصدقوه ، وإذا كانت حرب شديدة الوطأة ، وهو مفلس ، فلا يكلفه ذلك إلا أن يدخل في روعهم أن قطعة الورق مال فيسلبوا له بذلك ؛ بل بلغ الأمر إلى أن جعلهم يعتقدون أنه يشفيهم من شتى الآلام إذا لمسهم ؛ فما أعظم قوته وسلطانه على نفوسهم !

إن ما أحدثك به عن هذا الملك لا ينبغي أن يثير عجبك ؛ إذ أن هناك ساحراً آخر أعظم منه قوة ؛ سلطانه على الملك نفسه أعظم من سلطان الملك على سائر الناس . هذا الساحر يسمى البابا ؛ فلطالب أقتع الملك أن

ثلاثة ليست إلا واحداً ، وأن ما يؤكل من الخبز ليس خبزاً ، وأن ما يشرب من النبيذ ليس نبيذاً ، وأمثلة كثيرة من هذا النوع .

وليبقى الملك متعلقاً به دائماً ، ولثلا يدع له قط أن يفقد ما اعتاده من الإيمان به ؛ فقد درج على أن يرسل إليه من وقت لآخر بعض مبادئ الدين لي عمل بها ؛ فنذ سنتين أرسل إليه كتاباً كبيراً يسمى : دستوراً ، وأراد أن يضطر هذا الملك وشعبه — مهتداً بعقوبات جسيمة — أن يؤمنوا بكل ما حوى هذا المکتوب . أما الملك فقد نجح معه ، إذ خضع من فوره وأعطى بذلك مثلاً لرعيته ، ولكن بعضهم ترمدوا ، وقالوا : إنهم لا يريدون أن يصدقوا مطلقاً بكل ما جاء في هذا المکتوب .

إن النساء كن المحركات لهذه الثورة ، فأحدثن انقساماً في البلاط ، وفي كل المملكة ، وفي كل الأسر . إن هذا الدستور حرم عليهن أن يقرأن كتاباً يقول جميع المسيحيين إنه نزل من السماء . وانه قرأه انهم : ولغظهن من الإهانة التي وجهت إلى جنسهن أثرن القوم كلهم ضد الدستور ، وضمن الرجال إلى جانبهن إذ لم يكونوا راغبين مطلقاً في هذه الفرصة أن يمتازوا على النساء بشيء . ومع ذلك يجب الاعتراف بأن المفتي لم يسيء تعليل الرأي ، ورأى على العظیم يوجب تعلم مبادئ قانوننا المقدس : وبما أن النساء خلقت أدنى منا ، وقد أخبرنا بأنهن لن يدخلن الفردوس قط ، فلماذا نوجب عليهن أن يُقبلن على قراءة كتاب لا غاية من قراءته إلا معرفة الطريق إلى الفردوس ؟

سمعت عن الملك أموراً تدخل في العجائب ، ولا أشك في أنك لن تتردد في تصديقها .

يقال : إنه حينما اشتبك الملك في حرب مع جيرانه الذين تحالفوا جميعاً عليه ، كان في مملكته عدد لا يحصى من أعداء له غير ظاهرين يحيطون

به من كل جانب ، ويقال أيضا : إنه بحث عنهم في مدة تربو على ثلاثين عاما ، وبالرغم من عناية بالغة لا يدركها فتور ، من بعض أتباعه الذين يحظون بثقته ، فإنه لم يستطع أن يظفر بواحد منهم . إنهم يعيشون معه ، إنهم في بلاطه ، وفي عاصمته ، وفي جيشه ؛ وفي محاكمه ، ومع ذلك يقال : إنه ليخزُنه أن يموت قبل أن يعرفهم . يقال : إنهم موجودون بوجه عام ، ولكن لا وجود لهم على وجه التخصيص : إنهم جسم ، ولا أعضاء . وبلا شك ، كأن الله أراد أن يعاقب هذا الملك لأنه لم يكن عنده حظ من الاعتدال نحو أعدائه الذين انتصر عليهم ، فأعطاه من الأعداء أعداء غير ظاهرين لهم من العبقريّة والحظ ما يفوق عبقريته وحظه .

سأستمر في الكتابة إليك ، وسأخبرك بأشياء بعيدة كل البعد عن طبيعة الفرس وذكائهم . إنها هي الأرض التي تحملنا جميعا ؛ لكن الناس في القطر الذي أعيش فيه ، والناس الذين يعيشون في القطر الذي أنت به — يختلفون أشد اختلاف .

من باريس في ٤ من ربيع الآخر سنة ١٧١٢ .

الرسالة الخامسة والعشرون من أوزبك إلى ابن أزمير

تسلمت رسالة من ابن أخيك رعدى ، أخبرنى فيها بعزمه على الرحيل من أزمير إلى إيطاليا ، وأن هدفه الوحيد من رحلته أن يتعلم ، ويصبح بالتعلم أكثر منك فضلا . إني أهنئك بأن يكون لك ابن أخ سيكون لك هناة وسلوى فى الشيخوخة .

إن ريكما يكتب إليك رسالة طويلة ، وقد أخبرنى أنه حدثك كثيرا عن هذه البلاد التى نحن فيها . إن حيوية تفكيره تجعله يلتقط الأشياء بسرعة ، أما أنا فلازنى أبطأ تفكيرا ، فليست فى حال تسمح لى بأن أقول لك شيئا ذا بال .

إنك موضوع أحاديثنا الرقيقة : ولا نستطيع أن نوفى القول عن استقبالك الجميل فى أزمير ، ولا عن الخدمات التى تدفعك المحبة إلى أن تقدمها لنا كل يوم . أيمكن أياها الكريم - ابن - أن تجد أينما كنت أصدقاء شاكرين للمعروف مخلصين مثلنا ؟

أ أستطيع أن أراك قريبا ، لأستعيد معك تلك الأيام السعيدة التى مرت بسرعة حلوة بين صديقين ؟ وداعا .

من باريس فى ٤ من شهر ربيع الآخر سنة ١٧١٢ .

الرسالة السادسة والعشرون من أوزبك إلى ركن بن بشار أصفهان

ما أسعدك ياروكسان بكونك في بلاد فارس الجميلة ، وأنتك لست في
هذه الأجواء المسمومة حيث لا يعرف الناس الحياء ولا العفة !

ما أسعدك ! تعيشين في قصرى كما تقيم البرامة بعيدة كل البعد عن
شرور الإنسانية ، وتجدين نفسك — مع السرور — سعيدة بالعجز عن
الزلل ، بعيدة عن أن تمتد إليك نظرة آثمة من رجل : فذاك نفسه في
الحفلات وحزبتها لم يستطع أن يرى ثغرك الجميل ، ولم تقصرى قط في
ستره ببرقع مصون .

ما أسعدك ياروكسان ! عندما تكونين في الريف يكون لديك عدد
من الخصيان الذين يمشون أمامك ليقتلوا كل جريء لا يفر حتى لا تقع
عيناه عليك .

وما أشد حزنى في أيام زواجنا الأولى لأنى لا أزال فيها ! وما أقل
صبرى عن رؤيتك ! ولكنك مع ذلك لم تشبى رغبتى فيك ، بل على
عكس ذلك أشعلت رغبتى فيك بالإباء العنيد ، والحياء النافر ، وكأنك
لم تفرق بينى وبين غيرى من الرجال الذين يحق لك أن تحتفى منهم دائماً...
أتذكرين ذلك اليوم الذى اختفيت فيه منى بين عبيدك الذين أطاعوك .

نقدعوني ، ففرت من بحى عنك ؟ وذلك اليوم الذى ذرفت فيه دموعك
الضارعة .. أتذكرين ذلك الوقت الذى فقدت فيه كل رسائلك المستمدة
من شجاعتك ؟

لقد أخذت خنجرا وهددت بأن تذبحى به زوجا يحبك ، إذا استمر
فى مطالبتك بشىء تحببته أكثر من حبك لى . شهران مرا فى هذه
المعركة بين الشهوة والحياء . وأمعنت فى طهرك الآبى ، ثم ظلمت ثلاثة
أشهر لا تستطيعين فيها أن تنظري إلى دون أن يحمر وجهك ، وكأن
حياك الخجل يؤنبني ... ، ولم أشعر أننى ملكتك ملكا تاما ؛ فقد كنت
تحرمينى من كل ما تملكين إبداءه من جاذبية وفتنة ، وقد كنت نشوان
بما لى من متع عظيمة لأظفر منها بشىء .

ولو أنك نشأت فى هذه البلاد التى نحن فيها الآن ما كنت تضطرين
هذا الاضطراب ؛ فالنساء هنا فقدن كل تصوّن ؛ فهن يبرزن للرجال
بوجه مكشوف كأنهن يرغبن فى هزيمتهن ، لهن يبحثن عنهم بنظراتهن ،
ينظرن فى الطرقات وفى بيوتهن أيضا . واستخدام الخصيان غير معروف
عندهن . ويقابل البساطة النبيلة ، والحياء المحبب الذى يسودكن وقاحة
شرسة هنا لا يمكن أن يالفها الإنسان .

نعم - ياروكسان - لو كنت هنا لاستشعرت الهوان فى هذا العار
الشفيع الذى تردى فيه جنسكن ، وففرت من هذه الأماكن الفاحشة ،
ولتهدت من أجل ماواك الأمين الذى تجدين فيه الطهر ، وتطمنين فيه

على نفسك ، ولا تتعرضين فيه لأى خطر يزعجك ، وأخيرا تستطيعين فيه أن تحيىنى دون خوف من أن تفقدى شيئا من حبك لىاى .

وعندما تجملين وجهك البهى بأجمل الألوان ، وحينما تتعطين بأففس العطور ، وعندما تزينين بأجمل ثيابك ، وحينما تحاولين أن تتفوقى على أترابك فى الرقص وبحلاوة الغناء ، وحينما تنافسين — برقة وظرف — فى الجاذبية والحلاوة والمرح . حينما تفعلين شيئا من ذلك لا أستطيع ان أتخيل أن شيئا ما عندك لا يحوز إعجابى ، وحينما أراك فى تواضع تحميرين خجلا إذا التقت نظراتك بنظراتى وتتسللين إلى قلبى بكلماتك الرقيقة الملائمة ، لا أعرف طريقا للشك فى حبك ياروكسان .

ولكن كيف ينبغى أن أفكر فى نساء أوربا ! إن فنه فى صبح وجوههن وفى أنواع الزينة التى يتجملن بها ، وعنايتهن بأنفسهن ، ورغبتهن الملحة فى نيل الإعجاب ممن يهتم بهن ، كل هذه بقع تدنس شرفهن ، وإهانات لأزواجهن . وليس معنى هذا ياروكسان أنى أفكر فى أنهن يدفعن الجريمة إلى مدى بعيد حتى أن سلوكا كهذا ينبغى أن يظن منه أنهن يسرفن فى الفجور إسرافا شنيعا تقشعر منه الأبدان ، ويسىء إساءة بالغة إلى الثقة الزوجية ، والوفاء لها . وهناك عدد قليل 'تركن للانطلاق إلى هذا المدى : إنهن جميعا يحملن فى قلوبهن حظاً من الفضيلة رسخ فيها ، ورثته من يوتهن وأضعفته التربية لكنهن لم تقض عليه ، ، إنهن يستطعن التحلل من واجباتهن الخارجية التى يتطلبها الحياء ، ولكن إذا كان الأمر يتعلق بأن يسرن الخطوات الأخيرة فإن الطبيعة تتور .

وهكذا ترين أننا عندما نحجبكن ، ونضيق عليكى ، ونحرسكن بالعديد من العبيد ، وعندما نكبح جماح شهواتكن إذا أرادت الانطلاق ، فليس

ذلك لأننا نخشى خيانتك، بل ذلك لأننا نعلم أن الطهر مهما عظم لا يسلم ،
وأن أقل دنس يلوّثه .

إنني أشفق عليك ياروكسان ، فظهرك الذي ثبت طويلا على الاختبار
جدير بزواج لا يغادر مطلقا ، وهو الذي يستطيع بنفسه أن يكبح
نزواتك التي لا تخضع إلا لعفتك .

• باريس في ٧ من رجب سنة ١٧١٢ .

الرسالة السابعة والعشرون من أوزبك إلى ناصر بإصفهان

نحن الآن في باريس : تلك المدينة الرائعة المنافسة لمدينة الشمس .
وعندما غادرت أزمير كلفت صديقي ليهن أن يسلمك صندوقاً به هدايا
لك ، وستسلم هذه الرسالة من هذا الطريق نفسه .

وبالرغم من أن بيني وبينه خمسمائة فرسخ أو ستمائة فإنني أعرفه
أخباري ، وأعرف أخباره بسهولة ، كما لو كان بإصفهان وكنت في قم .
لأنني أرسل رسائل إلى مرسيليا التي ترحل منها باستمرار سفن إلى أزمير ،
ومن هناك يرسل منها ما يخص فارس عن طريق القوافل الأرمينية التي
ترحل كل يوم إلى إصفهان .

ريكا يتمتع بصحة تامة : فقوة بنيتها ، وشبابه ، ومرحه الطبيعي
تجعله دائماً يتغلب على كل ما يلاقه .

أما أنا فلست في عافية ، لأن جسمي وعقلي مجهودان ، ولأنني أستسلم
لأفكار يشيع فيها الحزن يوماً فيوماً ، وصحتي التي بدأت تضعف جعلتني
أتجه بمشاعري نحو وطني ، وجعلت هذه البلاد التي نحن فيها غريبة
جداً عليّ .

لكنني أستحلفك يا نصير أن تدع نساى يجهل حقيقة حالى ، لأنهم
إن كن يجهلني فإنني أحب أن أحبس دموعهن ، وإن كن على عكس ذلك
فإنني لا أريد أن أزيد من غطرسهن .

ولإذا عرف خصياني أنني في خطر ، وأمنوا العقاب على اللطافات
الدينئة فإنهم سيصغون من فورهم إلى صوت المداعبة من هذا الجنس
الذى يسمع الصخر ، ويحرك ما لا حياة فيه .

وداعاً يا نصير . وقد سرّنى أنى قدمت لك الأدلة على ثقى بك .

من باريس فى ٥ من شعبان سنة ١٧١٢ .

الرسالة الثامنة والعشرون من سيكالي

رأيت أمس شيئاً غريباً إلى حد ما ولو أنه يحدث كل يوم في باريس .
وذلك أن الناس يجتمعون في آخر العشاء ، ثم يمثلون مشهداً سمعته
يسمونه هزليا . وأكثر الحركات على منصة عالية فسيحة تسمى مسرحا ،
وعلى جانبيه مقاصير صغيرة تسمى (ألواجأ) فيها رجال ونساء يمثلون
معاً تمثيلا صامتاً يشبه كثيراً ما هو متبع في بلادنا (فارس) .

هنا محبة تيمها الحب تعبر عن ضناها ، وأخرى أكثر حيوية تلتهم
حبيبها بعينها ، وهو يلتمها كذلك ، وجميع الأهواء والميول بادية على
الوجوه ، مُعَبَّر عنه أفصح تعبير . وليست التمثيلية أقل حياة لأنها
صامتة . وهناك لا تظهر الممثلات إلا بنصف أجسامهن ويحملن عادة فراء
مراعاة للحشمة يسترن بها أذرعهن . وفي أسفل المسرح مجموعة من الناس
واقفة تسخر من الممثلين الذين فوقه ، وهؤلاء يضحكون من الأولين .

ولكن الذين يحملون أكبر نصيب من الجهد فئة قليلة ، اختيرت
لهذا العمل ، تَقَدَّم سنُّ أفرادها تقدماً لا يطيقون معه التعب الذي
يتحملونه ، إنهم مضطرون إلى التنقل السريع من مكان إلى مكان .
ويمرون من أما كن لا يعرفها غيرهم ، ويصعدون بمهارة من طابق إلى
طابق ، ولا تكاد تجددهم أعلى حتى تراهم في الأسفل ، وتجددهم في كل
مقصورة ، ويغوصون حتى يقال إنهم قد فقدوا ، ثم يظهرون مرة أخرى

وكثيراً ما يتركون مكان التمثيل ليذهبوا إلى تمثيلية بمكان آخر . ويرى أيضاً أولئك الذين يغدون ويروحون على عكازات في سهولة كسائر الناس الذين يمشون على أرجلهم وذلك إيجاز ما كان يمكن أن يصل إليه الوهم . وأخيراً يذهب الناس إلى مسارح تمثل فيها هزليات خاصة : وتبدأ الهزلية بانحناء الرؤوس للتحية ، ثم بالعناق ، ويقال إن هذا التعارف أعطى رجلاً الحق في أن يضمه آخر ضمّاً شديداً . ويبدو أن المسكان يشعر بالشفقة . وقد قيل إن الأميرات اللاتي يحكمن هذا المكان لم يكن عنيفات مطلقاً ، ما عدا ساعتين أو ثلاثاً في اليوم يكن فيه عنيفات بعض العنف . ويمكن أن يقال إنهن في سائر الأوقات رقيقات لينات ، والنشوة تغادرهن بسهولة .

وكل الذي أحدثك به يكاد يجرى مثله تماماً في المكان الذي يسمونه (أوبرا) وكل ما بين الحالين من فرق أن المكان الأول ، حديث ، والأوبرا بها غناء . وبالأمس قاذي أحد أصدقائي إلى مقصورة تخلع فيها إحدى الممثلات الرئيسيات ، وتعرفنا تعرفاً وثيقاً استدعى أن أنسلم في اليوم التالي رسالة منها هذا نصها :

« سيدى . . . »

« إننى أتعس فتاة في الدنيا ، وقد كنت دائماً أعف بمثلة في الأوبرا . ومنذ سبعة أشهر أو ثمانية كنت في المقصورة التي رأيتني فيها أمس . وحينما كنت في زى كاهنة لإلهة الصيد جاء إلى شماس ، لم يحترم ثيابي البيضاء الكهنوتية ولا طرحني البيضاء وخصابتي ، وخدع برأى . وعبثاً بالغت له في بيان شناعة التضحية التي فعلتها معه ، فأمن في الضحك ثقة منه بأننى أبعد ما أكون عن القداسة . ومع ذلك فأنا حبلى لا أجرؤ لكبر بطنى على الظهور ثانية على خشبة المسرح . أما من ناحية الشرف

فإنى مرهفة إلى حد لا يمكن تصوره ، وأنا دائماً على رأى القائل : إن الفتاة الأصلية تفقد عفتها أيسر مما تفقد حيائها . ومن هذه الرهافة يسهل عليك أن تدرك أن هذا الشاب الشماس لم يكن لينجح معى ، لولا أنه وعدنى بأن يتزوجنى ، وبهذا الباعث الشرعى سار بى فى الإجراءات المألوفة فى مثل هذه الحال ، وبدأ بالنهاية التى كان ينبغى أن تكون آخر شيء ، فصرت بعد أن دنس شرفى بغدره غير راغبة فى العمل بالأوبرا ، لأنهم — وهذا سر بينى وبينك — لا يعطوننى مطلقاً ما يكفى لحياتى ، ولأنى منذ الآن تتقدم بى السن ، وإفقد مظاهر الجاذبية ، أما أجرى فباق على ما هو عليه ، بل يبدو أنه سينقص على مر الأيام . وقد علمت من رجل بحاشيتك أن بلادك تقدر الراقصة الماهرة تقديراً كريماً . فإذا صرت فى أصفهان وأتانى الحظ مسرعاً . فإذا تفضلت بأن تمنحنى رعايتك وصحبتى معك إلى هذا البلد فإنك بذلك تقدم معروفاً إلى فتاة بعفتها وسلوكها لن تستسلم لها . يحزمها من أن تكون جسيمة بإحسانك وفضلك . إننى . . .

باريس فى ٢٠ من شوال سنة ١٧١٢ .

الرسالة التاسعة والعشرون من ريكال إلى إبيثن في أنزير

البابا رأس المسيحيين ، وهو معبودهم القديم الذي اعتادوا تمجيده .
وقديماً كان الملوك أنفسهم يرهبونه ، لأنه يخلعهم في يسر كما يفعل
سلاطينا العظام مع ملوك أرمينيا وجورجيا . والآن لم يعد أحد يخشاه ،
ويقول هو عن نفسه : إنه وارث أحد المسيحيين الأوائل المسمى القديس
بطرس . والحق إنه ميراث ضخم : لأن لديه كنوزاً هائلة ، وقطراً
كبيراً تحت سلطانه .

والأساقفة هم رجال القانون الذين يخضعون له ، ثم إن لهم تحت
سلطانه عملين مختلفين أشدّ اختلاف : إذا اجتمعوا فعلوا ما يفعله البابا
من إعداد نصوص العقيدة وإذا انفردوا لم يكن لهم عمل قط إلا الإعفاء
بفتاواهم من تنفيذ القانون . ذلك لأنك تعلم أن الديانة المسيحية مثقلة بعدد
لا حصر له من الشعائر الصعبة . ولما كان من المسلم به أن القيام بهذه
الواجبات الدينية لا يكون أيسر إلا بأساقفة مبشرين بفتاواهم ، فقد
أخذوا هذا الجانب الأخير من العمل رعاية للمصلحة العامة : فمثلاً إذا أراد
الإنسان ألا يصوم ، أو أراد ألا يلتزم بمراسم الزواج ، أو ألا
يفي بنفره ، أو أن يتزوج غير عابئ بالموانع القانونية ، بل في بعض
الآحيان لو أراد أن يحنث في قسمه ، فما عليه إلا أن يذهب إلى الأسقف
أو إلى البابا فيمنحه الإعفاء في الحال .

والأساقفة لا يضعون نصوص الدين من تلقاء أنفسهم . فهناك عدد لا يحصى من الفقهاء ، وجهرتهم من النساك ، يثيرون فيما بينهم كثيراً من المسائل الجديدة في الدين : ويدعونها للجدل طويلاً ، وتظل حربُ الرأي الضروس قائمة حتى ينتهى الأمر فيها إلى قرار .

وهكذا أؤكد لك أنه لم تكن قط مملكة مسرحة للحروب الأهلية كمملكة المسيح . إن الذين يُخرجون إلى حيز الوجود رأياً جديداً يُدعون في أول الأمر مارقين . ولكل بدعة اسمها ، وكأن هذا الاسم كلمة السر عند الذين يعتنقونها . وليس كل من يريد الابتداع مبتدعاً : فما هو إلا قسمة الخلاف مناصفة ، ويميز الذين يُتهمون بالبدعة من سواهم ، ومهما يكن التمييز واضحاً أو غير واضح ، فإنه يجعل إنساناً ناصع البياض كالثلج ، ويمكن أن يعد من الأرثوذكس .

إن ما أقوله لك لا بأس منه في فرنسا وألمانيا : لأنى سمعت الناس يقولون : إن في أسبانيا وإيطاليا بعض العباد الذين لا يعرفون المزاح ، يحرقون الإنسان كما يحرق الهشيم . وإذا وقع إنسان في أيدي هؤلاء الناس^(١) ، فالسعيد منهم من يسبّح الله دائماً بحبات^(٢) صغيرة من الخشب في يده ، أو يلبس من ثياب الرهبان ، أو زار أحياناً المقاطعة المسماة غاليسيا^(٣) . وإلا فهو مسكين وقع في ورطة أى ورطة . فإذا حلف كالوثنيين أنه من الأرثوذكس ، فإنه من المحتمل جداً ألا يمهل حتى

(١) رجال محكمة التفتيش .

(٢) مسبحة .

(٣) كانت عاصمة سبتياجو ، وفيها قبر القديس سان جاك دي كومبوستل ، وهو قبر يزار ويحج إليه المسيحيون .

تفحص حاله ، ويحرق كما يحرق المبتدعون ، ومهما يّسن أنه من المميزين ، فإنه بلا امتياز ، ويصير رماداً حتى قبل التفكير في أن يستمع إليه .

إن القضاة الآخرين يظنون المتهم بريئاً ، أما هؤلاء فيرون المتهم دائماً جانياً . وفي حالة الشك تصبح قاعدتهم في الفصل الميل إلى القسوة . ويبدو أن ذلك لا اعتقادهم أن الناس أشرار . لكنهم من ناحية أخرى يحسنون الظن بهم إذ لا يصمونهم أبداً بأنهم أهل للكذب : ويقبلون شهادة الأعداء الأساسيين والنساء ذوات السيرة السيئة ، وشهادة الذين يمارسون مهناً مخزية . وهم في حكمهم يعاملون من يلبسون الثوب الكبريتي^(١) بجمالة يسيرة : بأن يقولوا لهم : إنهم متألمون لرؤيتهم في هذه الثياب التعسة ، وأنهم ذو رقة ، يمتقنون الدم ، وأنهم متألمون لرؤيتهم محكوماً عليهم ، لكنهم يجدون عزاءهم أنهم يصادرون جميع ثروات هؤلاء التعسين ، ويستأثرون بها لأنفسهم .

ما أسعد الأرض التي يسكنها أبناء الأنبياء ! إن هذه المشاهد غير مألوقة فيها . والدين الكريم الذي حملته الملائكة إليها يحتسى بحقيقته نفسها ، فليس في حاجة مطلقاً في بقاءه إلى هذه الوسائل العنيفة .

من باريس في ٤ من شوال سنة ١٧١٢ .

(١) ثوب يلبسه المحكوم عليهم بالإعدام .

الرسالة الثلاثون من ريكاب إلى شخص نفسه في الزمير

أهل باريس في درجة من التطلع والفضول تصل إلى حد الإفراط ،
إذ أنه عند ما وصلت إليها كانت تتطلع إلى الأنظار كأنني هابط من
السماء : فالشيوخ والرجال والنساء والأطفال كلهم يحبون أن يروني .
وإذا خرجت أطل الناس جميعاً من النوافذ ، وإذا حللت في التويلري
رأيت دائرة من الناس أحاطت بي ، والنساء أيضاً يكوّن حولي قوساً مزداناً
بشتى الألوان . وإذا كنت في مسرح أتفرج فيه أجد أول ما أجد مائة
منظار تصوب نحو وجهي . وخلاصة القول : إن الأنظار لم تتجه إلى
أحد كما اتجهت إليّ . وسمعت أحياناً أن أناساً لا يكادون يخرجون من
حجراتهم يقولون فيما بينهم : يجب أن نعرف أن سحنه سحنة فارسيّ .
والشيء الذي يدعو إلى العجب أني وجدت صورتي في كل مكان : تلتشر
في جميع الدكاكين ، وفوق المدافئ . ويعلقون صورتي ما داموا يخشون
ألا يظفروا برويتي في وضوح .

وأرى أن الشرف العظيم لا يكون إلا بما يبرره ، ولا أرى نفسي
شيئاً بالغ الغرابة ولا نادر الوجود . ومع أني أحسن الظنّ بنفسي لم
أتصور مطلقاً أنني جدير بأن أقلق راحة مدينة كبيرة لم أعرف فيها قط .
وقد حملني ذلك على أن أخلع الثياب الفارسية وأرتدى الأوربية لأرى

هل يبقى في سحتى شيء مُعجِب . وهذه التجربة عرفتني قيمتي الحقيقية ،
 إذ أتني لما تخلصت من كل حلية أجنبية قدرت تقديرأ أدق ،
 وكان من حق أن أتألم من الخياط الذى أفقدني انتباه الجمهور وتقديره
 في لحظة واحدة ، وحرمتني حلتته اعتبارى ، واهتمام الناس بى ؛ وكأني لم
 أكن شيئاً مذكوراً ، فصرت أحياناً أقضى ساعة في جماعة دون أن
 يلتفت إليّ أحد ، أو يتيح لى فرصة أن أفتح فمى ؛ ولكن إذا حدث
 عرضاً أن يخبر أحدٌ الجمع أنني فارسى سمعت حولى على الفور لخطأ :
 فيقول قائل : وى اوى اهل السيد فارسى ؟ هذا أمر غريب ! كيف
 يمكن أن يكون الإنسان فارسياً !

باريس في ٦ من شوال سنة ١٧١٢ .

الرسالة الحادية والثلاثون من رهندي إلى أوزبك في باريس

إني الآن في فينيس^(١) يا عزيزي أوزبك ، يستطيع المرء أن يرى جميع مدن الدنيا ثم يملكه العجب إذا وصل إلى فينيس ، ويظل مأخوذاً بأن يرى مدينة وأبراجاً ومساجد تخرج من سطح الماء ، ويرى عدداً من الناس لا يحصى في مكان كان ينبغي أن يرى فيه سمكا .

لكن هذه المدينة النجسة ينقصها أئمن كنز في الدنيا : أغنى الماء الطاهر ، فمن المستحيل أن يتطهر المرء فيها طهرأ شرعياً ، ونبينا الطاهر يكرهها ، إنه لا ينظر إليها من علياء سمائه إلا سخطاً .

ولولا ذلك يا عزيزي أوزبك لكنت مفتونا بالحياة في مدينة تزداد ثقافتها يوماً فيوماً : تعلمت فيها أسرار التجارة ، وعرفت ما يشغل الأمراء وأساس تكوين حكومتهم . ولم أغفل شيئاً من أحوال الأوربيين إلا عرفت حتى خرافاتهم . وعكفت على دراسة الطب والطبيعة والفلك ، واهتممت بدراسة الفنون حتى أتخلص من السحب التي كانت تغطي ناظري في الوطن الذي ولدت فيه .

من فينيس في ١٦ من شوال سنة ١٧١٢ .

(١) البندقية .

الرسالة الثانية والثلاثون من ميكال

بالأمس ذهبت لأشاهد بيتاً يجتمع فيه نحو ثلثمائة شخص يعيشون في مسكنة إلى حد ما . وقد بدا لي أن أخف لزيارة هذا البيت لأن الكنيسة والمباني لا تستحق الاهتمام .

والذين يقطنون في هذا البيت مرحون ، فكثير منهم كانوا يلعبون الورق ، أو ألعاباً أخرى لا أعرفها مطلقاً . ولما هممت بالخروج خرج معي واحد منهم ، وعندما سمعني أسأل عن طريق ماري (Marais) وهو أبعد أحياء باريس ، قال لي إنني ذاهب إليه ، وسأقودك فاتبعني . وهداني إلى الطريق بحال تدعو إلى العجب وخلصني من كل ارتباك ، ونجاني موقفاً من المركبات والعربات . فلما كدنا نصل دفعني حب التطلع إلى أن أسأله : أستطيع يا صديقي الطيب أن أعرف ما أنت (١) ؟ فأجابني : إنني أعمى ياسيدي . فقلت له : وكيف يمكن أن يكون ذلك ؟ أنت أعمى ؟ ولم لم ترج السيد الفاضل الذي كان يلعب الورق معك أن يقودنا ؟ فقال : إنه أعمى كذلك ، ثم قال : منذ أربعمئة سنة ونحن ثلثمائة أعمى في هذا البيت الذي وجدتني فيه . والآن ينبغي أن أتركك ، وهاك الشارع الذي سألت عنه ، أما أنا فسادخل في غمار الناس ، ثم أدخل هذه الكنيسة وأقسم لك أنني سأجبر فيها أكثر الناس الذين لن يستطيعوا أن يجبروني .

من باريس في ١٧ من شوال سنة ١٧١٢ .

(١) ما أنت ؟ أى ماحقة حالك ، ولأنا لسأل بمن التي هي المعتلة .

الرسالة الثالثة والثلاثون

من ريبكا إلى

النبيذ غال جداً في باريس لكثرة الضرائب المفروضة عليه ، كأنهم يريدون أن ينفذوا أحكام القرآن الذي يحرمه .

عندما أفكر في الآثار المشومة لهذا الشراب لا أستطيع أن أمتنع عن اعتباره أخطر هدية قدمتها للطبيعة للإنسان . وإن كان شيء يعيب حياة ملوكنا ، ويسئ إلى سمعتهم فهو إفراطهم في الشراب ، إنه أفكك مورد مسموم جزاء ظلمهم وقسوتهم .

أقولها خزيًا للناس : إن القانون حرّم الخمر على أمرائنا ؛ لكنهم يشربونها بإفراط يحط من قدرهم ، ويحرمهم شرف الانتساب إلى الإنسانية . هذه عاداتهم وعلى عكس ذلك فهي عادة سمح بها للأمراء المسيحيين ، لكن لم يلحظ أنهم حينما يشربونها يرتكبون أي خطأ . والعقل الإنسانيّ هو التناقض بعينه . وفي الفجور الداعر يتمرّد الإنسان ضد التعاليم . وقد وضع القانون ليجعل الناس أكثر استقامة ، لكنه في أكثر الأحيان لا يستغلّ إلا في جعلهم أكثر إجراماً . ولاني إذ أستنكر هذا الشراب الذي يقضي على العقل ، لا أستنكر المشروبات التي تنعش الإنسان .

وحكمة الشرقيين تبدو في البحث عن أدوية لعلاج الحزن كعنايتهم بمقاومة الأمراض الخطيرة ، وإذا أصيب أوربيّ بضرّ فليست لهم وسيلة

لعلاجه إلا قراءة شيء للفيلسوف المسمى سنسكا ، لكن الآسيويين أرشد
من الأوريين وأعلم بالطب في هذا الأمر ، إذ يتعاطون مشروبات جديزة
بأن تجعل الإنسان مريحاً مبهجاً ، وتهوّن عليه ذكريات آلامه .

ليس شيء أدعى للحزن من أن يلمس المرء عزاءه من أن الشرّ
في الدنيا لا بد منه ، وأنه لا فائدة من العلاج ، ومن نحس الطالع ، ومن
مشيئة القدر ، ومن شقاء الإنسانية ، وما يستدعى السخرية أن نبغى
تخفيف الآلام بأن نعتقد أن الإنسان ولد بائساً ، والأولى أن نرتفع
بروح الإنسان فوق تفكيره ، وأن ننظر إليه باعتبار أنه ذو مشاعر بدلا
من أن نعتبره متعقلا .

والروح في اتصالها بالجسم مكبوتة به دائماً ؛ فإذا كانت دورة الدم
شديدة بطيئة ، أو لم يكن للعقول حظ من الصفاء ، أو مقدار كاف منه
وقعنا في الضنى والحزن . ولكننا إذا تناولنا بعض المشروبات التي يمكن
أن تغير من حال أجسامنا ، فإن الروح إذ ذاك تكون جديرة بأن تتلقى
إحياءات تفرّج عنها ، وتستشعر مسرة دفينه لرؤيتها الآلة الجسمية
تستعيد — كما يقولون — حركتها وحياتها .

من باريس في ٢٥ من ذى القعدة سنة ١٧١٢ .

الرسالة الرابعة والثلاثون من أوزبك إلى إيبين في أزمير

نساء فارس أجمل من نساء فرنسا ، لكن الفرنسيات أطرف منهن ،
ولا تملك ألا تحب الأوليات ، كما تعجب بالآخريات . فالفارسيات أرق ،
وأكثر حياء ، والفرنسيات أكثر مرحا وظرفا .

والجاذبية في فارس أتت من الحياة المنتظمة التي تحيها النساء بها :
فهن لا يلعبن الميسر ، ولا يسهرن ، ولا يشربن النبيذ قط ، وقليلًا
ما يخرجن فيتعرضن للهواء .

ويجب أن تعترف بأن القصور أعدت لرعاية الصحة أكثر مما هيئت
للشهووات والمسررات . إنها حياة تسير على وتيرة واحدة ليس فيها إثارة
مطلقاً ، وجميع من فيها مرهق بالتعبية وبالواجب . والمتع نفسها في القصر
عنيقة ، والمسررات قاسية لا تكاد ترتشف إلا لتكون دليلاً على السيطرة
والخضوع للرجال .

والرجال كذلك في فارس ليس لهم من المرح ما للفرنسيين ، فلا ترى
فيهم مطلقاً هذه الطلاقة الروحية ، ولا مظهر الرضا الذي تجده هنا
في وجوه الناس مهما اختلفت أحوالهم ، ومنزلتهم الاجتماعية .

والأمر في تركيا أسوأ من ذلك ، فقد تجد أسراً تناسلت ، وانحدر
الآباء من الآباء ولا تجد منهم ضاحكا منذ أنشئت دولة السلاطين .

وهذه الرصانة لدى الأسويين نتيجة لقلة الاختلاط بينهم ؛ فلا يرى بعضهم بعضاً إلا إذا اضطروا إلى الاجتماع في حفل . والمحبة التي هي الرباط الجميل بين القلوب ، والتي جعلت الحياة هنا عذبة — لا يكاد الأسويون يعرفونها . إنهم ينقبضون في بيوتهم ، حيث يجدون فيها دائماً من يلقيهم من معاشريهم ، بحيث تبقى كل أسرة منعزلة عن سائر الأسر .

وإلى ذلك أقص عليك ما قاله لي يوماً رجل من أهل تلك البلاد التي أنا فيها . قال : إن أكبر ما أستنكر من تقاليدكم أنكم مضطرون إلى الحياة مع عبيد تستشعر قلوبهم ونفوسهم الهوان من حالهم التي هم عليها . فهؤلاء الأذال يضعفون في أنفسهم مشاعر الفضيلة التي يكتسبها المرء من الطبيعة ، ويقضون على هذه المشاعر منذ الطفولة لشدة ملازمتهم لكم . تخلصوا إذن من أوهامكم : فإذا ينتظر من تربية تؤخذ عن بئس يقوم شرفه على حراسة نساء غيره ، ويفخر بأخس عمل يزاوله آدمي ، وهو محتقر حتى في فضيلة الإخلاص وهي من رتبته الوحيدة بين سائر صفاته ، لأنه لم يتمسك بها إلا بدافع الحسد والغيرة واليأس ، ويتحرق شوقاً إلى الانتقام من الجنسین على السواء ، فهو شر نماذج الجنس البشري ، اللذين يزدريانه ، ويرضى بأقصى ألوان العسف من الجنس القوي ، ما دام في استطاعته الإساءة إلى الجنس الضعيف ؛ ويتخذ من نقصه ، ودمايته وتشويه خلقته كل فخار ، إذ وصلت به إلى ما هو عليه من مكانة ، وليس له اعتبار ، لأنه غير جدير بأن يكون ذا خطر ، وعليه أن يلزم دائماً الباب الذي نيط به أشد من المزلاج والمتاريس التي يغلق بها الباب ، ويزهو بأنه يقضى خمسين سنة من حياته في هذه المهنة الحقيرة التي يحرس فيها غيره سيده ، ويمارس كل ما فطر عليه من خسة .

باريس في ١٤ من ذي الحجة سنة ١٧١٣ .

تري يا عزيزي إمين أنني أخذت عن أهل هذه البلاد ، تأييد الآراء
المتطرفة وحرصهم على مخالفة المألوف .

وقد قرر النبيّ الحكم في هذه المسألة ، ونظم حقوق الرجال والنساء ،
وقال : يجب على النساء أن يعظمن أزواجهن ، وعلى الأزواج أن يكرموا
زوجاتهم ، وللرجال على النساء درجة من الفضل .

من باريس في ٢٦ من جمادى الآخرة سنة ١٧١٣ .

الرسالة الخامسة والثلاثون من أدركك إلى ابن عمه جشيد

ما رأيك في المسيحيين أيها الدرويش الجليل ؟ أعتقد أنهم يوم الدين سيكونون كالأتراك المنافقين الذين سيكونون حميراً لليهود يقودونهم بأسرع الخطى إلى جهنم ؟ إننى أعلم علم اليقين أنهم لن يصلوا مطلقاً إلى منازل الأبرار ، ولن يشفع لهم أبداً على العظيم . ولكن هل تعتقد أنهم لحرمانهم السعادة بأن يمجّدوا مساجد في بلادهم سيكونون في العذاب السرمدي ، وأن الله سيعاقبهم لأنهم لم يدينوا بدين لم يعرفهم إياه ؟ أستطيع أن أقول لك : إننى امتحنت كثيراً من هؤلاء المسيحيين لعل أجد عندهم فكرة عن على العظيم خير الناس^(١) فوجدتهم لم يسمعوا عنه شيئاً أبداً . إنهم لا يشبهون مطلقاً هؤلاء الكفار الذين عرّضهم أنبيأؤنا عليهم السلام على حد السيف لأنهم رفضوا أن يؤمنوا بمعجزات السماء ، بل الأولى أن يشبهوا هؤلاء الأشقياء الذين يعيشون في ظلمات الوثنية قبل أن ينبثق نور الهداية الإلهية لنبينا العظيم .

ومن جهة أخرى إذا اخترنا دياتهم من كتب وجدناها أصلاً لدياتنا . وكما ملكنى الإعجاب من أسرار الحكمة الإلهية التى يبدو لى أنها أرادت بذلك أن تمهد للتطور الدينى العام ، وقد سمعت الناس يتحدثون عن كتاب لأحد فقهاءهم عنوانه : المضارة المنتصرة La polygamie ،

(١) هذا رأى الشيعة أما المسلمون فيؤمنون أن محمداً هو خير الناس .

Triomphante فيه أبان أن تعدد الأزواج مأمور به عند المسيحيين .
وغسل المعمودية عندهم صورة للطهر الشرعى عندنا . والمسيحيون
لم يخططوا إلا في تقدير قيمة الأثر لهذا الطهر الأول ، وفي أنهم يعتقدون
أنه يجب أن يغنى عن سائر الأطهار . وأن قساوستهم ورهبانهم يصلون
سبع مرات^(١) في اليوم مثلنا ، ويؤمنون أن يتمتعوا بالفردوس حيث
يتعمون باللذات الكثيرة بعد البعث .

إن عندهم مثلنا صوماً مفروضاً ، وقمناً لشهوات الجسد يرجون به
من الله مغفرة ورضواناً . ويقدمون الملائكة الأطهار ، ويسيتون الظن
بغيرهم . وعندهم تصديق خالص للمعجزات التي يجريها الله على يدي
رسوله إلى عباده . ويعترفون مثلنا بأن أعمالهم وحدها لا تكفي ، بل هم
في حاجة إلى من يشفع لهم عند الله . إنى أرى في كل مكان الديانة
المحمدية ولو أنى لا أجد فيها محمداً . ومن حسن الحظ أن الحقيقة تنطلق
وتبدد دائماً الظلمات التي تحيط بها ، وسوف يأتى يوم لا ترى فيه الأبدية
على الأرض إلا المؤمنين الصادقين . والدهر الذي يفنى كل شيء سيفنى
ذنوب البشر ، وسيعجب الناس عندما يرون أنفسهم تحت لواء واحد ،
وسيفنى كل شيء حتى القوانين ، وسترفع المثل المقدسة من الأرض ،
وتوضع في السجلات السماوية .

من باريس في ٢٠ من ذى الحجة سنة ١٧١٣ .

(١) الصلوات في الإسلام خمس كل يوم لا سبع .

الرسالة السادسة والثلاثون من أدنك إلى رحبيدي في فينيس

القهوة شائعة في باريس ، تقدم في عدد كبير من المحال العامة ، التي يجلس الناس في بعضها يتحدثون ، وفي بعضها الآخر يلعبون الشطرنج : ومن بين هذه المحال محل يعد القهوة إعداداً يمنح الذكاء من يشربها ، وأقل ما يقال : لا يخرج من المقهى خارج إلا وهو يعتقد أنه صار في ذكائه خيراً ، ما كان قبل دخوله إياه أربع مرات .

لكن الذي يسوءني من هذه العقول الثيرة أنها لا تقدم نفعاً لوطنها ، وإنما تتسلى مواهبهم بأشياء تافهة ، وخذ مثلاً لذلك أننى لما وصلت إلى باريس رأيت القوم في نقاش مستعر حول موضوع تافه ، لا يمكن تصور تفاهته ، إذ كان عن شهرة شاعر يوناني قديم ، مات منذ ألبى سنة ، ولا يعرف موطنه ، ولا تاريخ مولده على وجه التحديد . وقد اتفق الطرفان المتنازعان على أنه كان شاعراً ممتازاً ، وإنما كان الخلاف في تقدير حظه من الإجابة والإحسان : فن هؤلاء الذين يوزعون المجد والشهرة من يضع الشاعر فوق قدره ، ومنهم من يراه دون ذلك ، ومن أجل ذلك قام الصراع ، وحمى الوطيس . وكان أحد الجانبين رقيقاً في نقاشه ، وكان الآخر عنيفاً في أسبابه ، وكانت مفاكهاتهم ومداعباتهم شديدة المرارة . فكان عجبى من طريقة المناقشة لا يقل عن عجبى من موضوعها . فقلت في نفسى : لو أن إنساناً بلغ به الطيش إلى أن يهاجم سمعة مواطن شريف أمام هؤلاء المتحمسين للشاعر الإغريق لما تحمس

كل هذا التحمس . وأعتقد أن الحماسة المرفهة من أجل الأحياء أولى أن تكون أشد من التحمس للأموات . ثم قلت : مهما كانت الحال فإنى أرجو الله أن يحفظنى من حقد النقاد لهذا الشاعر الذى لم يسلم من حقدهم الممقوت بعد أن غبر فى قبره ألفى سنة !

لأنهم يلوحون بأيديهم فى الفضاء متوعدين ولا عدو أمامهم ، فإذا يكون حالهم إذا ثار غضبهم لمواجهة عدو من أعدائهم !

إن من حدثك عنهم آنفاً يتجادلون بلغة عامية مبتذلة ، ومع ذلك ينبغى أن نميزهم عن نوع آخر من المتنازعين الذين يستخدمون لغة بربرية كأنها تزيد شيئاً فى حدة المتنازعين وعنادهم . فهناك أحياء ترى كثيفة بالسكان ، غاصة بهذا النوع من الناس : يتغذون بالخلاف ، ويعيشون على البراهين المعتمدة ، والنتائج الخاطئة . وهذه حرفة يموت أصحابها جوعاً لكنهم لا يقلعون عنها .

وُرى شعب بأسره ، قد طرد من بلاده ، فعبر البحار ليقيم فى فرنسا ، ولم يحمل معه ما يتق به ضرورات العيش سوى موهبة رائعة فى الجدل . وداعاً .

من باريس فى آخر ذى الحجة سنة ١٧١٣ .

الرسالة السابعة والثلاثون

من أوزبك إلى إيسين في أزمير

لقد طعن ملك فرنسا في السنّ ، ولم يحدث في تاريخنا أن ملكاً حكم مثل مدته في طولها . ويقال عنه ؛ إن لديه قدرة على أن يفرض طاعته :

وعلى النهج الذي يدبر به أمر أسرته وحاشيته ، يسوس دولته . وكثيراً ما سمعه الناس يقول : بأنه لا يستهويه من أنظمة الحكم في العالم إلا حكم الأتراك ، أو سياسة شاه إيران المعظم ، فكثيراً ما ينهج في الحكم نهجاً شرقياً .

لقد درست أخلاقه فوجدت بها تناقضاً أعياى تفهمه : فثلاً كان أحد وزرائه في الثامنة عشرة من عمره ، بينما كانت عشيقته في الثمانين من عمرها ! وكان يحب التدين ولا يطبق الدقة في اتباع أولئك الذين يدعون إلى الدين . وهو يفر من صخب المدن ، وقليل ما يتحدث إلى الناس ، ولكن ليس له همّ من الصباح إلى المساء إلا أن يحمل الناس على الحديث عنه .

وهو مولع بالغنائم والانتصارات ، ولكنه بمقدار حبه إياها يكره أن يرى قائداً مظفراً على رأس جنده ، كما لو كان هذا القائد على رأس جيش أعدائه .

ويخيل إلى أنه وحده قد فاض عليه الغنى بدرجة لا يؤملها أى

أمير ، وقد أرهقه الفقر إلى حال لا يحتملها أى شخص من الناس .

وهو يحب أن يكافئ من يخدمه : لكنه يبذل في سخاء لمن يسامرونه ولبطالة رجال بلاطه ، أكثر مما يبذل لقواده نظير حملاتهم الموفقة . وقد يؤثر — كثيرا — رجلا يساعده في خلع ملابسه أو يقدم له منشفة حين يجلس إلى مائدة الطعام ، على قائد كسب له معارك وفتح مدنا . ولا يؤمن بأنه ينبغي للملك أن يهتم بتوزيع مكارمه ، ولا بالبحث عما إذا كان من يمنحه العطايا أهلا لها أو غير أهل ، ويرى أن مجرد اختياره لمن يمنحه يضفي عليه صفة الأهلية .

وكذلك نراه يهب رجلا فرّ من واجبه فرستين معاشاً ضئيلا ، وينعم على آخر — قد هرب أربعة فراسخ — منصبا حكوميا كبيرا .

إنه يعنى بفخامة مبانيه : حتى إنه يزّين حدائق قصره بثماثيل يفوق عددها سكان مدينة كبيرة . وحرسه الخاص يشبه في قوّته حرس أمير دانت له كل التيجان ؛ فجيوشه موفورة العدد ، وموارده عظيمة ، وأمواله لا تنفذ .

باريس في ٧ من المحرم سنة ١٧١٣ .

الرسالة الثامنة والثلاثون

من ريسكا إلى ليسبن في أزمير

إنها لمسألة كبيرة لدى الرجال أن يعرفوا ما إذا كان الأولى أن تسلب النساء الحرية أو تبقى لهن . ويبدولى أن هناك أسبابا تؤيد سلبها وأسبابا تعارضه . فإذا قال الأوروبيون : ليس من الكرم أن نجعل من نحبتهن بائسات ، فإن رجالنا الآسيويين يجيبون بأن من الهوان أن يتنازل الرجال عن سلطانهم على النساء ، وقد منحتهم الطبيعة إياه فإذا قيل لهم : إن العدد الهائل من النساء المحجبات يضايقنا ، أجابوا بأن عشرةا من النساء المطيعات ، أقل إزعاجا من واحدة غير مطيعة .

فإذا عارضوا بدورهم قائلين : إن الأوروبيين لا يعرفون السعادة مع نساء لا يخلصن لهم ، أجيبوا بأن هذا الإخلاص الذي يفخرون به كثيرا لا يمنع الملل الذي يستتبع إشباع الشهوات باستجابة نساتنا لنا ، وأن اطمئناننا إلى امتلاكهن لا يدع لنا مجالا لرغبة منا ولا لحرف منهن . وأن قليلا من التدلل ملتح يثير الرغبة ويمنع الفجور .

وربما حير رجلا أعقل منى أن يقرّر أنه إذا كان الآسيويون يجتهدون في البحث عن الوسائل الخاصة التي تهدى من قلقهم فإن الأوروبيين يجتهدون أيضا في ألا يكون عندهم قلق مطلقا .

وبالجملة فقد قالوا : إذا كنا سنصبح بائسين بصفتنا أزواجاً فسنجد

وسيلة للتعويض بصفتنا عشاقا . وإذا حُوقّ لزوج أن يشكو من خيانة زوجته ، فذلك لأنه ليس في العالم سوى ثلاثة أشخاص من هذا القبيل . وسيصيرون دائماً مضغة في الأفواه إذا أصبحوا أربعة .

ومسألة أخرى : هي معرفة ما إذا كان القانون الطبيعي أخضع النساء للرجال ؛ قد قال لي بالأمس فيلسوف من ذوى الكياسة : لا ؛ فالطبيعة لم تفرض قانونا كهذا . وما لنا من السلطان عليهن هو في الحقيقة طغيان . ولم يترك لنا هذا السلطان إلا لأنهنّ أسمح ، ويستتبع ذلك أنهنّ أسمى إنسانية وتفكيراً ، وذلك يوجب أن نسلم لهنّ بالتفوق إذا كنا محققين ، أو نحدد ذلك لأننا لسنا منصفين .

وإذا كان حقاً أنه ليس لنا على النساء إلا سلطان جائر ، فليس أقلّ منه سلطانهنّ علينا بجماهنّ الذي لا يقاوم . وسلطاننا ليس مهيمناً عليهن في كل موطن لكن سلطان جماهنّ عالميّ فمن أين إذن يأتي امتيازنا عليهنّ؟ أيكون ذلك لأننا أقوى منهنّ ؟ هذا في الحقيقة ظلم فنحن نستخدم شتى الوسائل لإضعاف شجاعتهنّ ، وستكون القوى متكافئة إذا تساوت التربية . ولنتخبرهنّ في المواهب التي لم تضعفها التربية قط لنرى هل نحن أقوى منهنّ ؟ ويجب أن نعترف — وإن كان هذا الاعتراف يخدش مقوماتنا — بأن الشعوب التي كانت أرقى خلقاً وتهدياً كان للنساء فيها سلطان على أزواجهنّ ، وهذا السلطان يقدم على القانون عند المصريين بفضل إيزيس وعند البابليين بفضل سميراميس . ويقال : إن الرومان حكموا جميع الشعوب لكنهم خضعوا لنسائهم . ولا أتكلم مطلقاً عن السورمات (Sourmates) الذين كانوا في عبودية هذا الجنس (النساء) ، وقد مثلت بهم لأنهم كانوا همجاً إلى حدّ كبير .

الرسالة التاسعة والثلاثون

من الحاج لمبي إلى اليهودي بن جوزدي
معتنق المهدية في أزمير

يبدو لي يا بن جوزدي أن آيات باهرة تمهد لمولد الرجال الممتازين :
كأنما الطبيعة تعاني نوعاً من الأزمة . وكأن القدرة الإلهية لا تخلق
إلا بجهد !

لم يكن شيء أعجب من مولد محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد قضت العناية
الإلهية منذ بدء الخليقة أن يرسل إلى الناس هذا الرسول العظيم ليقيد
الشيطان . فأنشأ نوراً قبل أن يوجد آدم بألفي سنة ، ومرّ هذا النور من
مختار من ولد آدم إلى مختار ، ومن جد إلى جد من آباء محمد (صلى الله
عليه وسلم) حتى وصل إليه . وهذه شهادة صادقة على أنه من نسل
آباء أطهار .

وقد قضت مشيئة الله بسبب هذا النبي نفسه ، ألا يولد طفلاً إلا إذا
تطهرت المرأة ، وختن الرجل .

ولد النبي مختوناً ، وظهر البشر على محياه منذ ولادته . واهتزت
الأرض ثلاث مرات كأنها هي التي ولدته ، وخرت الأوثان كلها
ساجدة ، ونكست عروش الملوك . وألقى الشيطان في قاع البحر ،
ولم يخرج منه إلا بعد أن سبّح أربعين يوماً ، ثم هرب إلى جبل قابس .
ومنه نادى الملائكة بصوت رهيب . وفي تلك الليلة وضع الله حداً بين

الرجال والنساء ، لا يتعداه أحد منهم ، وبطل سحر السحرة واستدعاء الموتى للإخبار بالغيب ، وُسِّمِعَ من السماء صوت يقول : لقد أرسلت إلى الدنيا حبيبي الأمين^(١) .

وعلى حدِّ قول المؤرخ العربى إسبن آبن Jspen Apen : اجتمعت سلالات الطير ، والسحب والرياح ، وجميع كتائب الملائكة لتربية هذا الطفل ، وتنازعوا هذا الفضل . فقالت الطير مغرّدة : إن الأوفى أن نربيّه لأننا نستطيع بسهولة أن نجتمع له ثماراً شتى من جميع الأنحاء ، فهمممت الرياح قائلة : بل نحن أحق بتربيته لأننا نستطيع أن نحمل إليه من جميع الجهات الروائح العطرة التى يستمتع بها ، وقالت السحب : لا . لا . بل يجب أن يعهد به إلى عنايتنا لأننا سنحمله إليه فى كل لحظة النسيم الندى . وقالت الملائكة غاضبة : وماذا أبقيتُم لنا ؟ ولكن سمع صوت من السماء ، انفض به النزاع . يقول : إنه لن يرفع من أيدي البشر ، فقد قدّرت السعادة لثنتين يرضعانه ، وليدين تعلبانه المشى ، وليبت يؤويه ، وسرير يريحه !

بعد هذه الآيات اليبينات — يا عزيزى جوزدى — لا بد أن يكون القلب حديداً حتى لا يؤمن بقانونه المقدّس . وماذا يمكن أن يفعله الله أكثر من ذلك ليهد لرسائله الإلهية ، إلا أن يخرق قانون الطبيعة ، أو يهلك البشر الذين يريد أن يقنعهم ؟

من باريس فى ٢٠ من رجب سنة ١٧١٣ .

(١) فى هذا الكلام خلط بين الوقائع والأساطير .

رسالة الأربعون من أوزبك إلى لميسين في أزمير

إذا مات عظيم ، اجتمع الناس من أجله في المسجد ، وصلوا عليه ،
ورثوه بخطب عددوا فيها مناقبه .

أريد أن تلغى الاحتفالات الجنائزية : لأنه ينبغي أن تبكى الناس
عند ولادتهم لا عند موتهم ، وإلا فافائدة هذه الاحتفالات أو مظاهر
الجزع التي تبدو عند راحل وهو على شفا الموت ، بل مافائدة دموع
أسرته ، وآلام أصدقائه غير مضاعفة الشعور بفقده ؟

لقد بلغنا من العمى درجة لا ندرى معها متى ينبغي أن نحزن ،
ولا متى ينبغي أن نبتهج . ونكاد لا نشعر إلا بحزن مزيف أو سرور
مزيف .

عندما أرى الزعيم الهندي ، يذهب كل سنة — في حماقة — إلى
الميزان ، ويزن نفسه كالعجل ، وأرى أتباعه يبتهجون بأن هذا الأمير قد
صار أكبر حجما ، وأثقل وزنا ، أى أصبح أعجز عن إدارة شئونهم ،
عندما أرى هذا وذاك — ياليمين — أرثى لهذا العته الإنساني .

من باريس في ٢٩ من رجب سنة ١٧١٣ م

(٦ — رسائل فارسية)

الرسالة الحادية والأربعون من كتب سير الخصيان الأسود إلى أوزيريس

منذ وقت قريب يا سيدى العظيم مات إسماعيل : أحد خصيانك السود ، وإنى لا أستطيع أن أتأخّر عن إحلال خصى مكانه . وإذا كان الخصيان من الندرة بمكان ، فقد فكرت فى أن أستخدم لذلك أحد عبيدك السود بالريف : ولكنى إلى الآن لم أستطع أن أحمله على تحمّل ما يتكبده من يخصص لهذه المهمة . ولما كنت أرى أن نتيجة هذه العملية لمصلحته ؛ فقد ملت بالأمس إلى أن أستخدم معه بعض الغلظة . وباتفاق مع المشرف على حداثك أمرت أن يجعلوه — بالرغم منه — صالحاً لأن يقدم لك أحب الخدمات إلى قلبك ، وليعيش مثلى فى الأماكن المصونة التى لا يجرؤ أحد فيها على شيء حتى على النظرة ، ولكنه أخذ يعوى كأنهم أرادوا أن يسلخواه ، وبجاهد كثيراً حتى تخلص من أيدينا ، وأفلت بذلك من السكين المشبومة . وقد علمت أخيراً أنه كتب إليك يطلب منك العفو مستنداً إلى أن هذه الخطّة لم تخطر ببالى إلا لرغبة جاحدة منى فى الانتقام منه لسخرىات لاذعة سخر بها منى كما يزعم . ولكنى مع ذلك أحلف لك بمئات الآلاف من الأنبياء أننى لا أتصرف إلا للإحسان فى خدمتك التى هى وحدها أحبّ شىء لى ، ولا أرعى شيئاً سواها — وإنى أجنو تحت قدميك .

من سراى فاطمة فى ٧ من المحرم سنة ١٧١٣ .

الرسالة الثانية والأربعون من فالان إلى أوزبك: سيده العظيم

لو كنت هنا — يا سيدي العظيم — لظهرت أمام نظرك بريثا ،
ومع ذلك لا أجد ورقا كافيا لأكتب إليك فيه جميع الإساءات التي
وجهها إليّ — منذ سفرك — كبير خصيانك الأسود أشقى الناس .

وبدعوى أنني سخرت من حاله التعسة ، يصب على رأسي ألوانا من
الانتقام لا تنفد ، ويشير عليّ مشرف حدائقك القاسي ؛ فلا يزال يكلفني
منذ رحيلك — أعمالا فوق الطاقة جعلتني أفكر كثيراً في الخلاص من
الحياة حتى لا أعيش لحظة وأنا غير متحمّس لخدمتك . وكمن مرة
قلت لنفسي : إن سيدي يفيض رقة ، وأنا أشقى عبد على الأرض !

وأصرّح لك يا سيدي العظيم أنني لم أعتقد أنه قدر لي أحط دركات
البؤس ، لكن هذا الحصى الغادر يستخدم معي أقصى ما لديه من مكر
سيء . فبذ بضعة أيام ، أصدر — بماله من سلطة خاصة — أمراً بأن أعدّ
لخدمة السيدات المصونات ، ومعنى هذا أن يفعل بي ما هو أفظع من الموت
ألف مرة .

إن الذين شقوا بأن خصام آباؤهم القساة عند ولادتهم يجدون
عزاهم في أنهم لم يعرفوا عند كبرهم حالة غير الحالة التي رأوا أنفسهم

عليها ، لكن أن تهدر إنسانيتي ، وأحرم استعدادي الجنسيّ فذلك يميّتي
من الألم إن لم أمت من العملية الوحشية التي تراد بي .

ولاني أقبل قدميك — يا سيدي الجليل — بضراعة بالغة أن تفعل
بي ما يجعلني أحس بفضلك السامي ، حتى لا يقال : قد صار رجل
بأمرك ، أتعسّ مخلوق على وجه الأرض .
من حدائق فاطمة في ٧ من المحرم سنة ١٧١٣ .

الرسالة الثالثة والأربعون
من أوزبك إلى فلان بحدائق فطيمة:

ليعمر السرور قلبك ، ولتشكر هذه الرسالة المكتوبة ، ولتدع كبير
الخصيان وقيّم الحدائق إلى تقيلها . وقد حرّمت عليهما أن تمتد يدهما
عليك حتى أعود . مرهما أن يشتريا الخصى المطلوب . أدّ واجبك
كما لو كنت أمام عيني ، واعلم أنه بمقدار إحساني العظيم يكون عقابي
إذا قصّرت في واجبك .

من باريس في ٢٥ من رجب سنة ١٧١٣ .

الرسالة الرابعة والأربعون

من أوزبك إلى رعدى في فينيس

في فرنسا ثلاث طبقات : رجال الكنيسة ، ورجال الجيش ، ورجال القضاء ، وكل واحدة من هذه الطبقات يتسلط عليها ازدراؤها للطبقتين الآخرين . وعلى سبيل المثال ينبغي أن يحتقر الشخص لأنه أحق ، وما حماقته إلا لأنه من رجال القضاء .

ولا يوجد أناس حتى من أخط أصحاب الحرف إلا وهم يجادلون في سمو حرفتهم التي اختاروها . وكل منهم يتعالى على كل ذى حرفة مخالفة لحرفته بنسبة الفكرة التي تكونت عن سمو هذه الحرفة .

والناس جميعاً أشبه في قليل أو كثير بهذه المرأة التي نالت خيراً من أحد ملوكنا ، فدعت الله له كثيراً ، وسألته ملحة أن يجعله حاكماً لمقاطعتها لميريفون .

وقد قرأت في إحدى الرسائل أن سفينة فرنسية لدى رسوها على شاطئ غينيا نزل بحارتها إلى الأرض ليشتروا بعض الخراف ، فأخذوا إلى الملك الذى كان يقضى بين رعيته تحت شجرة . وكان جالساً على العرش : وما هو إلا قطعة من الخشب ، وكان مزهواً به كأنه جالس على عرش المغول العظيم ، وكان يحرسه ثلاثة من الجنود أو أربعة بأيديهم حراب من خشب ، وعليه مظلة تشبه الخيمة ، تقيه وهج الشمس ، وحليته

هو وزوجته الملكة تنكون من جلد أسود وبعض الخواتم . هذا الأمير أتفه من مسكين ، ومع ذلك سأل هؤلاء الأجانب هل يتحدثون عنه كثيراً في فرنسا : وكان يعتقد أن اسمه لا بد أنه ذاع من قطب إلى قطب أكثر من ذبوع اسم ذلك المظفر الذي أسكت الدنيا ، وظن أنه لا بد أن يجعل العالم كله يتحدث عنه .

ولما تغدى خان التتار ، نادى جندي : كل أمراء الأرض يستطيعون أن يتغدوا إذا شاءوا ، وإن هذا الهمجي الذي لا يجد طعاماً إلا اللبن ، وليس له بيت يؤويه ، ولا يعيش إلا على قطع الطريق والتلصص يرى جميع ملوك الدنيا كأنهم عبيده ، ويسبهم باطراد كل يوم مرتين .

من باريس في ٢٨ من رجب سنة ١٧١٣ .

الرسالة الخامسة والأربعون من ريكال إلى أرنوك في

سمعت أمس صباحاً بينما كنت لا أزال في سريري طرقة عنيفاً على بابي، الذي مُفتح فجأة، أو على الأصح قد اقتحمه رجل كنت التقيت به في أحد المجتمعات، وبدأ لي أنه كان خارجاً عن طوره .

وكان زيه أقل جداً من أن يكون متواضعاً، وشعره المستعار لم يكن ممشوطاً، ولم يجد وقتاً ليخيط قبعته السوداء، وقد أهمل في يومه هذا احتياظه الحكيم لستر ما اختلّ من مظهره .

وقال لي : انهض، إني في حاجة إليك طول اليوم، فسأشتري أشياء شتى، وسيريني أن أكون معك، لكن ينبغي أن نذهب أولاً إلى شارع سانت أونوري (Saint - Honoré) لأفاوض مُوثقاً للعقود مكلفاً ببيع أرض تساوي خمسمائة ألف جنيه، وأرجو أن يؤثرني بها . وفي مجيئي إلى هنا وقفت لحظة عند ضاحية سان جرمان (Saint - Germin) حيث أجرت مسكناً بألف قطعة ذهبية، وأرجو أن يتم العقد اليوم .

ولم أكد ألبس حتى أنزلني بسرعة، وقال : لنبدأ بشراء العربّة، ولنجهز مرافقها، وقد كان أن اشترينا - سوى العربّة - سلماً بمائة ألف فرنك في أقل من ساعة، وتم ذلك سريعاً لأن صاحبنا لم يساوم في شيء، ولم يحسب حساباً لشيء ولم يستقر أبداً . وسبغ خيالي فيما أرى،

وكنـت إذا تأملت في حال هذا الرجل التـبس على أمره : أهـو غنى أم فقير ؟ ولم أستطع الجزم برأى عنه .

وأخيرا خرجت من هدوني ، وأخذت الرجل ناحية ، وقلت له : سيدى ، من الذى سيدفع الثمن لكل هذا ؟ فقال : أنا ، تعال إلى حجرتى ، سأريك السكنوز الهائلة ، والثروات التى يطمع فيها أكابر الملوك ، ولكننا لن تكون لك ، وإنما ستشاطرني فيها دائماً ، فوافقته ، وصعدنا إلى الطابق الخامس ، وارتقينا بسلم إلى السادس ، فرأيت فيه كوخاً مفتوحاً للرياح الأربع ليس فيه إلا (دستان) أو ثلاث من أحواض الطين ملأى بسوائل مختلفة . ثم قال لى : لاني استيقظت مبكراً وفعلت أولاً ما درجت على فعله منذ خمس وعشرين سنة ، وهو الذهاب إلى عملى ، ثم رأيت اليوم المشهود قد أقبل ليـجعلنى أغنى رجل على وجه الأرض . أترى هذا السائل القرمزى ؟ إن له الآن جميع الخواص التى يتطلبها الفلاسفة لتحويل المعادن إلى معادن أخرى ، وقد استخلصت منه هذه الحبوب التى تراها ، وهى فى حقيقتها ذهب وإن كانت أقل منه وزناً . هذا هو البسر الذى اهتدى إليه نيسكولاس فلامل ، وظلّ ريموند ليل وملايين غيرهما يبحثون عنه ولا يجدونه ، عرفته أنا ، واليوم أجد تابعا سعيدا لى . وأرجو الله ألا أستخدم هذه السكنوز التى بعثها إلى لى فى مرضاته !

نخرجت ، ونزلت ، أو الأولى أن أقول : أسرعـت إلى هذا السلم ثائر الغضب تاركا هذا الرجل الغنى فى مستشفىـه — وداعاً يا عزيزى أوزبك ، وسأراك غدا ، وإذا شئت فسنعود معاً إلى باريس .

باريس فى آخر رجب سنة ١٧١٣ .

«الرسالة السادسة والأربعون»

من أوزبك إلى رعدى فى فينيس

أرى هنا أنا سائتشافنون بلا نهاية فى أمر الدين ، لكنهم فيما يبدو
يجادلون أيضاً من لا يعرفون الدين .

إنهم ليسوا فقط خير المسيحيين ، بل هم أيضاً من خير المواطنين
وهذا ما يؤثر فى كثير : لأنى أجد فى بعض الأديان الباقية أن رعاية
القوانين ، ومحبة الإنسان للإنسان ، والبر بالوالدين من أولى التعاليم الدينية .
أفلا ينبغي لذلك أن يكون أول هم للرجل المتدين الذى يريد أن
يبلغ رضا خالقه الذى شرع هذا الدين الذى يعتنقه ، وآمن طريق لذلك
هو أن يراعى آداب المجتمع وواجبات الإنسانية .

وإذا فرض دين من الأديان ليكون قاعدة للسلوك ، فلنفهم من
ذلك أن الله يحب الناس ولذلك شرع لهم الدين ليكونوا سعداء .
وإذا كان الله يحب الناس فينبغى أن نطمئن إلى لراضائه (تعالى)
بأن نحبهم كذلك وبأن نقوم نحوهم بما يوجهه الإحسان والإنسانية .
وأن نخالف القوانين التى جعلوها أساساً لحياتهم . وبهذا فقط نكون
أكثر اطمئناناً إلى رضا الله مما لو أقننا نوعاً ما من الشعائر ، لأن الشعائر
فى ذاتها لا تدل على مبلغ الصلاح ، ولا تكون محودة الأثر إلا فى حالات
معينة ، ومع التسليم بأن الله قد أمرنا بها ، فإنها محل بحث كبير قد يضل
فيه الإنسان ، إذ عليه أن يختار لنفسه شعائر دين من أديان شتى .

فالإنسان يناجى ربه كل يوم بهذه الصلاة : « مولاي : إني لا أصغى
أبدأ إلى المشاحنات التي لا تنقطع وتتناول ذاتك ، وأرغب في عبادتك
كما تريد ، ولكنني كلما سألت رجلاً كيف أعبدك أراد أن أكون على
مذهبه . وإذا شرعت أصلي لك لم أدر بأى لغة يجب أن أناجيك ، ولا على
أى وضع ينبغي أن أكون : فأحد الناس يقول لى : يجب أن أصلي لك
قائماً ، وآخر يقول : صل قاعداً ، وثالث يطالبني بأن أجثو على ركبتي .
وليت الأمر يقف عند هذا الحد : فمنهم من يزعم أنه يجب على أن أغتسل
كل صباح بالماء البارد ، وآخرون يؤكدون أنك تنظر إلى في غضب
شديد لأنى لم أكن . ولقد حدث لى يوماً ما أنى أكلت أرنباً فى نزل
للقوافل ، وكان بالقرب منى ثلاثة رجال : أفزعونى بأن أكدوا لى أنى
اعتديت على حدودك اعتداءً بالغاً ؛ ورأى أحدهم أن الحيوان كان دنساً ؛
وقال الثانى : إنه كان مخنوقاً . وقال الثالث إنه لم يكن سمكاً . ومر بنا برهمن
فرجوته أن يقضى بيننا فقال : إنهم مخطئون ؛ لأنه يبدو لى أنك لم تقتل
هذا الحيوان بنفسك . فقلت له : وإذا كنت قد قتلته ؟ فقال بصوت حاد :
آه .. لقد جئت شيئاً إداً لا يغفره الله أبداً ، ومن يدريك لعل روح أهلك
قد حلت فى هذا الحيوان ؟ كل هذه الأشياء يا مولاي أوقعننى فى حيرة
لا أجد منها مخرجاً . ولا أستطيع أن أحرك رأسى إلا وأنا مهدد بمعصيتك
ومع ذلك أبغى رضاك ، وأبذل فى ذلك حياتى التى ظفرت بها منك .
وليت شعرى هل أنا مخدوع ؟ إننى أعتقد أن خير وسيلة أبلغ بها رضاك
أن أكون مواطناً صالحاً فى المجتمع الذى نشأت فيه ، وأباً صالحاً
للأسرة التى وهبتنى إياها .

باريس فى ٨ من شعبان سنة ١٧١٣ .

الرسالة السابعة والأربعون من نأشى إلى أوزبك في باريستن

لدىّ خبر هام أفضى به إليك : هو أنني صالحت زفيس فأصبح
القصر قسمة بيننا ، وصار الوفاق تاماً ، ولا ينقصنا إلا وجودك بيننا
في هذه الأماكن التي يسودها السلام ، فتعال إلينا - يا عزيزى أوزبك -
لينتصر الحب انتصاراً تاماً .

لقد أعددت لزفيس وليمة عظيمة ، دعوت إليها والدتك ونساءك،
والمقرّبات من حظاياك ، وعماتك وكثيرات من بنات عمومك ، وقد جئن
على الخيل يسترهن سحاب كفيف من براقعهن وثيابهن .

وفي اليوم التالى للولية رحلنا إلى الريف ترويحاً عن أنفسنا ، فامتطينا
جمالنا واحتل كل أربعة منا هودجاً .

وإذ كانت رحلتنا مفاجئة فلم يكن هناك وقت لإعلان المنطقة بها
ليخلوا لنا الطريق ، ولكن كبير الحصان الدائب فى خدمتك اتخذ
احتياطاً بالغاً لسترنا ، بأن جعل بيننا وبين الناس ستاراً كفيفاً فلا يرانا
أحد ، ولا نرى أحداً .

ولما وصلنا إلى النهر الذى لا بد لنا أن نعبه ، وضعت كل منا فى
صندوق - كما هو متبع دائماً - وحملت إلى السفينة : لأن النهر كما قيل

لنا كان غاصاً بالناس ، ولكن شخصاً دعتة منيته إلى أن يقترب من مكاننا
المغلق علينا فنلقى ضربة مميتة من الحرس سلبته إلى الأبد بهجة الحياة ،
وشخصاً آخر وجد يستحم عارياً على الشاطئ لقي حتفه كصاحبه . وهكذا
ضحىّ خصيانك المخلصون بهذين الرجلين البائسين صيانة لشرفك وشرفنا .

ثم استمع إلى سائر مغامراتنا : عندما كنا في وسط النهر هبت ريح
شديدة واكفهر الجو إلى درجة مخيفة أياست الملاحين من النجاة وأغمى
علينا جميعاً من الذعر . وأذكر أنني كنت أسمع صوت الخصيان ونزاعهم :
فمنهم من يقول : يجب أن ننذرهن بالخطر ، ونخرجهن من سجنهن ، ومنهم
من لا يرى ذلك ، أما رئيسهم فكان ثابتاً على أن الموت أفضل عنده من
أن يتخذش شرف سيده ، ومستعداً أن يطعن بخنجر صدر من يقدم
اقتراحاً جريئاً كهذا ، وأسرعت إلى إحدى جوارى خالعة ثيابها لتساعدنى
على النجاة ، لكن خصياً أسود جذبها بعنف ، وردها إلى المكان الذى
خرجت منه . وإذ ذاك كنت مغمى علىّ ، ولم أفق إلا بعد زوال الخطر .

ما أتعب الرحلات ! وأشقها على النساء ! إن الرجال لا يتعرضون
إلا للأخطار التى تهدد حياتهم ، لكننا فى كل لحظة نخاف أن نفقد حياتنا
أو شرفنا .

وداعاً يا عزيزى أوزبك وإلى أعبدك دائماً .

سراى فاطمة فى ٢ من رمضان سنة ١٧١٣

الرسالة الثامنة والأربعون

من أوزبك الى رعدى فى فينيس

إن الذين يحبون أن يتعلموا لا يجدون فى أوقاتهم فراغا ، فع أنى
لا أضطلع بعمل هام أرانى مشغولا دائما ، أقضى وقى فى البحث وأدوّن
فى المساء ما لحظته ورأيته وسمعته طول يومى ، وكل شىء يشوقنى ويشير
عجبى ، وأنا فى ذلك كطفل لا تزال أعضاؤه غضة تنفعل انفعالا بالغاً
لأدنى مؤثر .

وقد لا تصدقنى إذا قلت لك ؛ إننا استقبلنا استقبالا حسناً فى جميع
الهيئات والمجتمعات ، والفضل فى ذلك يرجع إلى فطنة ريكا ومرحه
الفطرى ، وأنه يالف ويؤلف .

لم يعد مظهرنا كغرباء يشير أحدا ، وصرنا نتمتع بما نرى من عجب
الفرنسيين إذا رأوا سلوكنا مهذباً ، فهم يتوهمون أن بلادنا لا يمكن أن
تنجب رجالا مهذبين ، ولكنى مع ذلك أعترف أنهم يستحقون أن
يخلصوا من مثل هذه الأوهام .

لقد قضيت بضعة أيام فى منزل رينى قريبا من باريس عند رجل
ذى مكانة ، مولع باجتماع الناس عنده ، وله زوجة محببة جمعت إلى
التواضع العظيم مرحاً ينقص سيداتنا الفارسيات بسبب حياتهن المحافظة .

ولأنى رجل غريب كان أحب الأشياء إلى أن أدرس — كعادتي —
أخلاق هذه الجماعات من الناس الذين كانوا يقدون إلى هذا البيت
بلا انقطاع ، وكان يتكشف لى دائماً جديد من سلوكهم وطباعهم .

وقد جذب انتباهى لأول وهلة رجل منهم أعجبتنى بساطته فألفته
والفنى ، وأصبحنا متلازمين .

وفى يوم من الأيام — ونحن فى جمع حافل — جلسنا جانباً نتحدث ،
وتركنا الأحاديث تسير بنا كما تشاء ، فقلت له فيما قلت : « قد ترون فى »
أن تطلعي إلى المعرفة يربو على أدبى ، ومع ذلك أرجو أن تأذنوا لى بأن
أسأل بعض الأسئلة ، لأنه بما يؤلمنى أن أعاشر قوما لا أحسن عشرتهم ،
أو أخالطهم دون أن أعرف منازلهم .

إنى مشغول منذ يومين بهؤلاء الناس ، وكل منهم شغل فكري طويلاً ،
ولو ظلت أتكهن لأخبارهم ألف سنة ما عرفت ما ، فخالطهم أخفى على من نساء
ملكنا العظيم . فأجابنى : « أعتقد أنك أمين على السرّ جدير بالثقة ، فسلنى
عما تشاء من أخبارهم أجبك من فورى ، » .

فسألته : من هذا الذى يحدثنا كثيراً عن ولائهم التى أقامها لعظماؤكم
وسقطت الكلفة بينه وبين سراتكم ، وتحدث كثيراً عن وزرائكم ،
وقد قيل لى : إنه رجل لا يُرَامُ لأنه من ذوى الأقدار ؟ إن ملاحظه
تدل على الضعة ، ومخايله لا توحى مطلقاً بأنه من السّراة ، هذا إلى أننى
لم أره يتمتع بأى نصيب من الثقافة . إننى غريب لكن يبدو لى أن هناك
مقداراً من آداب السلوك تشترك فيه الأمم بوجه عام ، وهذه الآداب
لا أرى منها شيئاً فى هذا الرجل ، فهل سادتكم أسوأ سلوكاً من سادة
الأمم الأخرى ؟

فأجابني ضاحكاً : إنه فلاح زاد غنى عن الناس ، وقل عنهم نسباً ، إن مائدته أغزر الموائد لو استطاع أن يقرر الأكل في بيته ، إنه سفيه جداً لكنه يتفوق بطباخه ، فعرف له هذا الفضل ولم ينكره ، وقد سمعت ثناءه عليه طول يومنا هذا .

فقلت له : ومن هذا الرجل البدين المتشع بالسواد الذي أجلسه تلك السيدة إلى جانبها ، كيف يلبس الحداد المقبض ، ومظهره يبدو عليه المرح ومحيطاً يفيض بشراً ، لا يكاد أحد يتحدث حتى يتسم ابتسامة رقيقة ، ومع تواضعه البالغ في زينته ، يبدو أكثر تألقاً من نسائككم .

فقال لي : إنه واعظ ، وأسوأ ما في هذا أنه رئيس الوعاظ ، فهو كما ترى يعرف عن الزوجات أكثر مما يعرف أزواجهن ، ويعرف منهن مواضع الضعف كما يعرف مواطن ضعفه . فقلت له : وكيف يكون ذلك ؟ إنه دائم الحديث عن الغفران ؟ فأجابني : ليس هذا شأنه في كل حال ، فهو أحياناً يهمس في أذن حسناء يذكرها بسقطتها ! وأحياناً ينفجر في الجماهير خطيباً وواعظاً ثم يعود في الحياة الخاصة وديعاً كالخل . فقلت له : يبدو لي أن الناس يوقرونه ، وينظرون إليه بعين الاعتبار . فأجاب : وكيف لا ؟ يكرّمونه لأنه رجل لا غنى عنه ، إنه يضفي بهجة على الحياة الخاصة بنصائحه ، وخدماته ، وزياراته المرموقة . ويعرف كيف يذهب ما بالرأس من ألم أكثر من أي رجل خبير بالحياة ، إنه رجل ممتاز .

فقلت له : إذا لم أضجرك بأسئلتى فقل لي : من هذا الرجل الذي أمامنا ، الرث الثياب ، الذي تعبس أساريره أحياناً ويتكلم لغة ليست كلغة سائر الناس ، ويتظرف في حديثه لكنه ليس خفيف الروح ؟ فأجابني : إنه شاعر ، إنه سخرية الجنس البشري كله . إن هؤلاء الناس يزعمون أنهم ولدوا شعراء ، وهذا حق ، وسيظلون كذلك طول حياتهم ، أي أنهم

سيظلون كل عمرهم أضحوكة الناس ، لذلك لا يرفق بهم أحد ؛ ويصب عليهم
الازدراء صبًا . إن الجوع هو الذى دفعه إلى دخول هذا البيت الذى
استقبله صاحبه بطيعة وأدبهما المعهودين . إنه تغنى بزواجهما عندما
تزوجا ، وقال فى ذلك خير ما قال فى حياته ، لأنه تنبأ لهذا الزواج بالسعادة
وقد كان ما تنبأ به . ثم استطرد قائلا : قد لا تصدقنى - لأنك تتشبث
برأيك الذى كونه على ما طبعت عليه كشرقى - إذا قلت لك إن عندنا
أيضا زواجا سعيدا ، ونساء يخضعن لسلطان الفضيلة كنسائكم ، والزوجان
اللذان تتحدث عنهما يستمتعان بهدوء لا يشوبه قلق ، ويظفران بمحبة
الناس وتقديرهم ، ولا عيب فيهما إلا أنهما لسماحتهما الفطرية يستقبلان
فى منزلها أحيانا أخلاطا من الناس مما يجعلهما أحيانا يعاشران أهل السوء ،
وليس معنى هذا أننى لا أستسيغ هذا التصرف ، إذ يجب أن نحيا مع الناس
كما خلقنا ، فمن الناس من يعرفون بطيب العشرة مع أنهم يتصفون برذائل
دقيقة خفية ، ربما كان منها ما هو كالسم أكثره خفاء أشده خطرا .

فقلت له فى صوت خفيض : ومن هذا العجوز الذى يبدو الحزن على
حياته ؟ لقد حسبته لأول وهلة غريبا ! فضلا عن أنه يخالفكم فى الزى
يرقب كل ما يجرى فى فرنسا ، ولا يرضى عن حكومتكم ؛ فأجبنى قائلا :
إنه محارب قديم ، همه أن يذكر مستمعيه بمفاخره العسكرية الذائعة الصيت
ولا يُطيق أن يسمع أن فرنسا كسبت معارك لم يشترك هو فيها ، أو يثنى
أحد على حصار لم يكن له فيه نصيب ، ويرى نفسه جزءا من تاريخنا ،
ويخيل إليه أن فرنسا قد انتهت باتهاء خدمته العسكرية ، ، وينظر بزهو
إلى جروح أصابته قد زالت آثارها كما زالت الملكية . وهو يخالف فى حياته
لرأى الفلاسفة الذين يرون أنه ينبغي أن يحيا المرء فى حاضره ، أما الماضى
فلا وزن له ، ومخالف أيضا لمسلك الأبطال الذين يحبون أن يعيشوا فى
الخلف بذكرى أمجادهم . ذلك لأنه يتشبث بالماضى ولا يعيش إلا فى المعارك

التي صنعها بخياله وتنسم الزمان المغابر ، فقلت له : ولم ترك الخدمة العسكرية؟ قال : ما تركها ، وإنما هي التي تركته ، ثم وضع في وظيفة صغيرة سيقضى فيها سائر حياته متحدثاً عن مغامراته ، ولن يتجاوز ذلك فقد سُد أمامه طريق المجد .

فقلت له : ولماذا ؟ قال : لأن عندنا - في فرنسا - قاعدة مرعية هي ألا ترقى مطلقاً الضباط الذين ضعف جلدتهم في أعمالهم الفرعية ونعتبرهم من الذين ضاقت أفكارهم بعكوفهم على توافه الأمور ، فأصبحوا غير جديرين أن يضطلعوا بما هو أعظم من الأعمال .

ونحن نعتقد أن الرجل الذي لا يتحلى بصفات القائد حتى سن الثلاثين لن يظفر بها أبداً ، وتلك الصفات كأن يلح بنظرة واحدة مسيحية كبيرة من الأرض بأوضاعها المختلفة ، وهذه البديهة الحاضرة تسعف صاحبها في حالة الانتصار ، وتدبر له أمره أحسن تدبير إذا كانت الهزيمة . ولذلك أعدت عندنا مناصب خطيرة لهؤلاء الرجال العظماء الممتازين الذين منحهم الله مع شجاعة القلب عبقرية تنطوى على البطولة ، ووظائف هينة تناسب أهلها من ذوى المواهب المحدودة . ومن هؤلاء المحدودى المواهب جماعة يشيخون في حرب غامضة ، ولا ينجحون إلا في العمل الرتيب الذي ألفوه طول حياتهم ، فلا ينبغي مطلقاً أن نشرع في تحميلهم المسئوليات الجسام عندما يسرى الضعف في قواهم .

وبعد برهة ملكنى الفضول مرة أخرى ، فقلت له : لقد عاهدت نفسى ألا أسألك مرة أخرى إذا تفضلت فأجبتنى عن هذا السؤال الأخير : من هذا الشاب الفارع ، الغزير الشعر ، المتحلى بقليل من الذكاء وكثير من السفاهة ؟ وأنى له أن يعلو صوته على صوت سائر الجمع ويؤمن بأنه أهل لغشيان المجتمعات الراقية ؟ فأجبتنى : إنه من ذوى الثراء الواسع . . .

ولم يتم جوابه حتى دخل أناس وخرج آخرون ، وقام من قام ، وجاء شخص
 شرع يتحدث مع صاحبي ، وبقيت كما كنت لا أعرف شيئاً عما سألت
 عنه . وبعد برهة شاءت المصادفة أن يقترب مني هذا الشاب ، ثم يوجه
 إلى الحديث قائلاً : إن الجو جميل يا سيدي فهلا تفضلت بأن نجول معاً
 جولة في الطابق الأرضي ؟ فاستجبت له في أبلغ أدب ممكن . وخرجنا معاً
 ثم قال لي : جئت إلى الريف لإرضاء السيدة ربة المنزل ، فعلاقى بها
 لا يكدرها شيء . إن من النساء نساء غير معتدلات المزاج ، فإذا نصنع
 لهن ؟ إنني أرى أجمل الباريسيات لكنني لم أحبس نفسي على واحدة منهن ،
 ولكنهن جميعاً يخشينني ، وأسر إليك أنني لست ذا شأن . فقلت له :
 يبدو لي أن مهام عمالك أو وظيفتك هي التي تحول بينك وبين أن تعقد
 صلة بإحداهن ؟ فأجابني : لا يا سيدي ، فليس لي عمل إلا أن أغضب
 زوجاً ، أو أنكب أبا . وأحب أن أزعج المرأة التي تظن أنها تملكني
 وأضعها على قيد أناملتين من الهلاك .

نحن عصابة من الشباب تقاسمنا على هذا النحو باريس كلها التي لم تهتم
 بأدنى تصرف لنا .

فقلت له : أفهم من هذا أنك أحدثت لنفسك ضجة أعظم من تلك
 التي تليق بمحارب كبير الخطر ، واعتباراً أسمى من اعتبار حاكم جليل
 المقدار ، ولو كنت في فارس لما استمتعت بهذه المزايا ، ولصرت معنياً
 بالمحافظة على النساء لا ساعياً في إرضائهن .

ثم غلى الدم في رأسي ، واحمر وجهي ، وأعتقد أنني لو تباديت قليلاً
 في الحديث لما منعتني مانع من العنف معه .

ماذا تقول في بلد يتسامح فيه أهله مع أمثال هؤلاء الناس ؟ وكيف
 يترك حياً رجل هذه حرفته في المجتمع ؟ وكيف تكون الخيانة والغدر

وخطف الناس ، والخداع ، والظلم مؤدية إلى التقدير والاعتبار ؟ وكيف
يقدر مجتمع ما شخصا لأنه اختطف بنتاً من أيها ، أو امرأة من زوجها ،
أو يعسكر المجتمعات الوادعة الطاهرة ؟

ما كان أسعد بني علي كانوا يحمون أسرهم من الفجور والإغراء ! إن
ضوء النهار ليس أسطع من الشعلة التي تتوهج في قلوب نساتنا : إن بناتنا
ليضطربن إذا جال في أذهانهن أنه سيأتي يوم يحرم من فيه الفضيلة التي
ترفعهن إلى صف الملائكة ومنازل الأطهار .

أمسقط رأسي العزيز الذي يتمتع بأولى نظرات الشمس ، إنك لم
تتدنس بهذه الجرائم البشعة التي تضاعف الشمس إلى أن تتوارى منها خجلاً
كما تفعل حينما تطل على الغرب المظلم بأرجاسه .
باريس في ٢٥ من رمضان سنة ١٧١٣ .

الرسالة التاسعة والأربعون ميريكالى أوزبك في

بالأمس — وأنا في حجرتي — رأيت درويشاً يدخل علىّ في زيّ غريب ، وكانت لحيته تتدلى إلى حزامه وهو من جبل ، وكانت قدماه حافيتين . وكانت ثيابه رمادية غليظة مخروقة في بعض أجزائها . وبدأ لي في جملة شديدة الغرابة حتى إن أول فكرة طرأت على ذهني أن أستدعي مصوراً ليتخذ منه طريقة .

لقد قرظني — أول الأمر — تقريراً عظيماً أفهمني في خلاله أنه من أهل الفضل ، وأنه إلى ذلك راهب . ثم قال : بما أنك ياسيدي عائد قريباً إلى البلاط الفارسيّ حيث تحتل هناك رتبة سامية . فقد جئت أسألك رعايتك ، ولأرجوك أن تطلب من الملك مأوى صغيراً بالقرب من كاسبان لرجلين أو ثلاثة من رجال الدين ، فقلت له : إن أبي إذن يريد أن يذهب إلى فارس ؟ فقال لي : أنا ياسيدي ؟ حاشى أن أفعل ذلك . إنني قرويّ ، ولا أبغى بديلاً بحالتي التي أنا عليها ولو جمع لي حظ الرهبان بجميع بلدان العالم . فقلت : يا للشيطان ! ماذا تريد مني إذن ؟ فأجاب : إذا حصلنا على هذا المأوى فإن آباءنا بإيطاليا سيرسلون إليه اثنين أو ثلاثة من رجال الدين . فقلت له : يبدو أنك تعرف هؤلاء

الرجال ؟ فقال : لا ياسيدى ؛ أنا لا أعرفهم . فقلت عجبا ! وماذا يهمك
من أن يذهبوا إلى فارس ؟ فقال : إنه مشروع جميل أن نجعل اثنين
من الرهبان يتنسمان هواء كاسيان ، فهذا مفيد جداً لكل من أوربا
وآسيا ! فقلت له : إنه من الضروري أن يهتم الملوك بداخلية بلادهم !
وهذا الذى تمهد له يسمى المستعمرات اللطيفة ! اذهب عنى ؛ فأنت
وأمثالك لم تخلقوا لتنقلوا من بلد إلى بلد ، وإنما الأولى بكم أن ترحفوا
كالديدان على الأرض التى ولدتم بها .

فى باريس فى ١٥ من رمضان سنة ١٧١٣ .

الرسالة الخمسون

من ريكالى

رأيت أناساً جُبلوا على الفضيلة فلا يكادون يشعرون بها . ويلتزمون بأداء واجبهم دون انحراف ، كأنما يؤدونه بدافع من غريزتهم . وفضلاً عن أنهم لا يتحدثون عن تلك الفضائل النادرة فإنهم يتحلون بها وإن بدا لأول وهلة أنهم عطل منها . هؤلاء هم الناس الذين أحبهم لا هؤلاء الفضلاء المعجبين بفضلتهم الذين ينظرون إلى العمل المجيد كأنه معجزة ينبغي أن يتحدث الناس عنها .

وإذا كان التواضع فضيلة ضرورية للذين منحهم الله مواهب عظيمة ، فإذا يمكن أن يقال عن تلك الحشرات التي تجرؤ على أن تُظهر زهواً يُزرى بأعظم الرجال ؟

إنى أرى فى كل مكان أناساً يتحدثون عن أنفسهم بلا انقطاع ، وأحاديثهم مرآة تبدى دائماً حالتهم المموجة : إنهم يتحدثونك عن أتعف الأشياء التى حدثت لهم ، ويهتمون بأن يعظموها فى عينيك . إنهم — فى زعمهم — قد صنعوا كل شيء ، ورأوا كل شيء ، وقالوا كل ما يقال ، وفكروا فى كل ما يستطيع فكر أن يتناوله : إنهم نماذج عالمية ، وموضوع للوازنة لا ينتهى ، ومنبع لأمثلة لا ينضب . ياله من ثناء عجوج أن يمدح المرء نفسه !

منذ أيام أرهقنا رجل من هذا النوع بالحديث عن نفسه وعن نبوغه ومواهبه ساعتين كاملتين ، فلما وجد من القوم فتورا ، وعدم تأثر لما يقول ، كفّ عن الكلام ، وعاد إلينا الحديثُ فتناولنا أطرافه . وكان هناك رجل بدا الهمُّ عليه فأخذ يشكو الملل الذي شاع في الأحاديث وقال : ما هذا ؟ أنصاب دائماً بالحقى الذين يسرفون في الثناء على أنفسهم ، وينسبون كل شيء إليهم ؟ فأجابه المتحدث الأول من فوره : أصبت كان ينبغي ألا يفعلوا إلا ما أفعل لأننى لا أزكى نفسى أبداً : فأنا ثرى ، ومن أسرة نبيلة ، وواسع النفقة ، ويقول أصدقائى : إننى على حظ من الذكاء ، لكننى لا أتكلم عن شيء من ذلك كله . وإذا كان عندى من الصفات ما أعتدّ به فى جميع الأحوال فهى تواضعى .

عجبت لهذا الأخير ، وبينما كان هو يتكلم بصوت عال ، قلت بصوت خفيض : ما أسعد الإنسان المغرور الذى لا يتحدث عن نفسه ، ويخشى من يسمعه ، ولا يعرض نفسه لاصطدام فضله بغرور غيره !

من باريس فى ٢٠ من رمضان سنة ١٧١٣ .

الرسالة الحادية والخمسون من هاجرم مبعوث الفرس إلى السكوف إلى أوزبك

لقد كتبوا إلىّ من أصفهان أنك غادرت فارس ، وأنت الآن
في باريس . وهل ينبغي أن أعلم أخبارك من سواك لا منك ؟

إن أوامر ملك الملوك أبقتني في هذا البلد منذ خمس سنوات، أتممت
فيها كثيراً من المفاوضات الهامة .

إنك تعلم أن القيصر هو المالك المسيحي الوحيد الذي ترتبط مصالحه
بمصالح الفرس ؛ لأنه عدوّ الترك مثلنا ، وأن ملكته أكبر من مملكتنا ؛
فحدوده تمتدّ إلى ألف فرسخ من موسكو على امتداد ملكه إلى حدود الصين .

إنه السيّد المطلق المالك لحياة رعاياه وأموالهم ، وشعبه كله عبيد له
ما عدا أربع أسر ، ولكن ملك الملوك ، خليفة الأنبياء ، الذي عرشه
فوق السماء لا يفرط في إظهار سلطانه الرهيب .

وفي هذا الجوّ المخيف ببلاد المسكوف لا يعتقد المرء قط أن العقوبة
لأى ذنب ، هي النفي ، ومع ذلك إذا غضب على عظيم من العظماء نفى من
فوره إلى سيبيريا .

وكما أن دين نبيّنا يحرمّ علينا شرب النبيذ ، فإن الأمراء يحرمّونه
في روسيا .

وهم يستقبلون ضيوفهم استقبالا غير استقبالنا : فإذا دخل أجنبيّ
بيتاً قدم له الزوج زوجته فيقبلها الضيف بمجاملة للزوج .

وبالرغم من أن الآباء عند عقد الزواج لبناتهم يشترطون عادة
ألا يضربهن الأزواج بالسوط ، فإنك لا تدري إلى أى مدى تحب
الزوجات المسكوفيات أن يُضربن : إنهن لا يستطعن أن يدركن أنهنّ
ملكن قلوب أزواجهنّ إلا إذا ضربوهن ضرباً مبرّحاً . وغير هذا
السلوك من الأزواج دليل منهم على عدم اكتراثهم الذى لا يغتفر
بزوجاتهم . وهاك رسالة لواحدة من هؤلاء الزوجات كتبها أخيراً
إلى أمها :

« أمى العزيزة :

إننى أتعس زوجة فى العالم ، لأننى لم أدع شيئاً يحببني إلى زوجي
إلا فعلته ، ولكنى لم أنجح فى ذلك مطلقاً . فثلاً كان لدى أمس أعمال
كثيرة بالمنزل ولكنى تركتها وخرجت ، وظللت طول النهار خارج الدار ،
واعتقدت لذلك أن زوجي سيضربني ضرباً مبرّحاً ولكنه لم يفعل ،
بل لم ينبس ببنت شفة . ولكن أختي تجحد من زوجها عكس ما أجد من
زوجي فهو يضربها كل يوم ، وهى لا تستطيع أن تعدّه رجلاً إلا إذا
فاجأها بالضرب المميت ، ولذلك هما متحابان ، وينعمان بوفاق لا ترى
الدنيا مثله . وهذا يجعل أختي نفورة جداً ، أما أنا فلن أدع زوجي طويلاً
أن يزدريني ، وقد قرّرت أن أحمله على حبي مهما كان الثمن ؛ بأن أثير
خفيظته حتى يقدم لى علامة الحب^(١) ، وحتى لا يتسنى له أن يقول :
إننى لن أضربها ، ولن أرضى أن أعيش فى بيته دون أن يفكر فى .
وأقل ضربة منه بسببته سأصرخ لها صراخاً حاداً حتى يظن الناس أن

(١) الضرب .

الأمور تجري عندي كما أحبّ ، وإذا جاء أحد الجيران لإنقاذى خنقته .
 وإنى أضرع إليك — يا أمى — أن تتفضلى علىّ بأن تتفاهى مع
 زوجى هذا الذى يعاملنى هذه المعاملة الشنيعة . وإنى أذكر أن أبى
 — وقد كان رجلاً طيباً — لم يكن سلوكة معك كسلوك زوجى معى ،
 إذ أذكر أننى كنت وأنا صغيرة أرى أبى يبدى لك فى كثير من الأحيان
 دلائل المحبة . وأختم رسالتى بأن أبعث إليك قبلاتى .

والمسكوف لا يستطيعون أن يخرجوا من بلادهم ليسيحوا فى الأرض ،
 فعزلتهم قوانين بلادهم عن سائر شعوب العالم ، ولذلك احتفظوا بعاداتهم
 القديمة ، وحرصوا عليها حرصاً شديداً حتى إنه لا يمكن أن يتصوروا
 أن هناك عادات أخرى غير عاداتهم . ولكن الملك الذى يحكم البلاد الآن
 أراد أن يغير كل شيء . وهناك خلاف كبير بينه وبين رعيته سببته لحيته ،
 وليس رجال الدين — بفضل جهالتهم — أقلّ خلافاً من الشعب معه .
 إنه حريص على أن تزهو الفنون ، ولا يهمل مطلقاً فى أن يحمل إلى أوروبا
 وآسيا أبحار أمته التى ظلت منسية حتى الآن ، ولا يكاد أحد يعرفها
 غير نفسها .

وأخذ الملك يطوف بدولته الشاسعة قلقاً مضطرباً دائماً تاركا فى كل
 مكان يحلّ به آثاراً لقسوته الطبيعية .

إنه تركهم ، وكأنهم لم يستطيعوا أن يشبعوا مطامعه ، فتركهم ليهيئ
 فى أوروبا عن مقاطعات وممالك أخرى يحكمها .

إنى أقبلك — يا عزيزى أوزبك ، وأستحلفك أن توافينى بأنبائك :

من موسكو فى ٢ من شوال سنة ١٧١٣ .

الرسالة الثانية والخمسون من رسالتي إليك

كنت ذات يوم بمجتمع رفعت فيه عن نفسي إلى حد كبير . لقد ضم هذا الجمع سيدات مختلفات الأعمار ، فواحدة في الثمانين من عمرها ، وثانية في الستين ، وثالثة في الأربعين ومعها بنت أخت في العشرين أو الثانية والعشرين .

وبدافع خفيّ اقتربتُ من هذه الشابة ، التي همست في أذني قائلة : « ماذا تقول في خالتي التي تريد في سنّها هذه أن يكون لها عشاق فتتأنق في زينتها ؟ » فقلت لها : إنها مخطئة ، وهذه حال أليق بك . وبعد قليل كنت قريباً من خالتها التي قالت لي : « ما قولك في هذه السيدة التي بلغت على الأقلّ ستين سنة ، وقضت اليوم أكثر من ساعة في زينتها ؟ » فقلت لها : إنه من الوقت الضائع ، وكان ينبغي أن تكون لها جاذبيتك حتى تفعل ذلك .

ثم اتجهت إلى السيدة التي بلغت الستين ورثت لحالها عندما أسرت إلى : « هل رأيت أدعى إلى السخرية من هذه السيدة التي بلغت الثمانين من عمرها وتتجمل بأشرطة نارية اللون ، وتريد أن تجعل نفسها شابة ، وقد نجحت في ذلك لأنها تقترب من الطفولة !

فقلت لنفسي : عجباً ! يا إلهي ! ألا ندرك أبداً إلا حماقات سوانا ؟ !

ثم قلت : قد يكون من السعادة أن نجد عزاء في ضعف الآخرين ومع ذلك فقد شرعت في الترفيه عن نفسي قائلاً : كفى صعوداً فلنربط الآن ، ولنبدأ بالعجوز التي في القمة : سألتها : سيدتي إنك شديدة الشبه بهذه السيدة التي فرغت الآن من حديثي معها ، ويبدو لي أنك أختان وأنكما متقاربتان في السن . فقالت لي : « حقا ياسيدي ، فإنه إذا مات إحدانا وجب أن تفرع الأخرى ، فليس بيننا من العمر أكثر من يومين اثنين » . ولما فرغت من هذه السيدة التي فقدت رونقها اتجهت إلى تلك التي في الستين ، وقلت لها : « يجب أن تفصلي ياسيدي في الرهان الذي عقدته . لقد راهنت على أنك أنت وهذه السيدة في سن واحدة (وأشارت إلى ذات الأربعين) . فقالت : ليس بيني وبينها فيما أعتقد إلا ستة أشهر ، فقلت : هذا حسن . ثم انحدرت إلى التي في الأربعين وقلت لها : تفضلي عليّ بأن تبييني : أهو من قبيل المزاح مناداتك لهذه الأنسة التي على الطرف الآخر لهذه المائدة على أنها ابنة أختك وأنت شابة مثلها ، ويبدو في وجهها من تجاعيد السن ما لا يبدو في وجهك الذي يمتاز بالرونق والبهاء ... فقطاعتي قائلة : مهلا مهلا ! أنا خالتي ، لكن أمها كانت تكبرني على الأقل بخمس وعشرين سنة ، ولم تكن لأمّ واحدة : ولقد سمعتها تقول : إنني وابنتها ولدنا في وقت واحد . فقلت : هذا ما ظننته يا سيدتي تماما ، ولم أكن مخطئا في عجبى ! ..

ياعزيزي إوزبك : إن النساء اللاتي يشعرون بأنهن اتين قبل الأوان لفقد جاهلن يرغبن في العودة إلى الشباب . وكيف لا يخدعن سواهن وهنّ يخدعن أنفسهن بأن يهرين من التفكير في السنّ ، وهو أشدّ الأفكار إبلا ما لهنّ .

في باريس — في ٣ من شوال سنة ١٧١٣ .

الرسالة الرابعة والخمسون من ريك إلى أوزيك في

كنت صباح اليوم في حجرتي وهي كما تعرف لا يفصلها عن سائر الحجرات إلا حاجز خشبي رقيق جداً ، مثقب من مواضع كثيرة منه فلذلك يسمع بأن يسمع الإنسان ما يدور من حديث في الحجرة المجاورة . وكان هناك رجل يغدو ويروح في الغرفة بخطى واسعة يقول لآخر : لا أدري ما هذا ؟ كل شيء يسير على غير ما أرغب فنذ ثلاثة أيام لم أقل قط إلا ما يشرفني وخضت في أحاديث شتى دون أن أثير أى انتباه نحوي ، وإن كان الحديث قد وجه إلى مرتين . وقد كنت أعددت بعض أفكار رائعة يسمو بها حديثي لكنهم لم يتيحوا لها أن تحضرني . وكانت لدى قصة جميلة أقصتها ولكني كلها هممت بسردها وجدت إعراضاً كأنه متعمد . كما هيأت في خاطري كلمات طيبة اختمرت في ذهني أربعة أيام دون أن أجد أى فرصة لاستعمالها ، فإذا استمر الحال على هذا المنوال فسأعتقد في النهاية أنني أحق . إن ظهوري في المجتمع هو حظي الذي أنشده ، ولن أدعه يفلت من يدي . لقد رجوت أمس أن تلعب مواهبى وأنا أتحدث إلى ثلاث عجائز أو أربع ، لم يكرهننى على شيء ، لكن كان لزاماً عليّ أن أتحدث أجمل الأحاديث وجعلت أتصرف في القول ربع ساعة ، دون أن يعرثنى أدنى انتباه ، بل كن يقطعن حديثي كما تقطع الآلهة المشتومة جبال العمر

أتريد أن أقول لك : إن الوصول إلى الشهرة في الظرف يتكلف كثيراً ؟
 إننى لا أدري كيف وصلت أنت إليها . فقال الآخر : تراودنى فكرة هى
 أن تتفق على أن نعمل معاً متعاونين لتحقيق هذه الغاية . وفى كل يوم نعدّ
 ما ينبغى أن يقال ، ثم نشترك فى إلقاءه ، فإذا هم أحد أن يقاطعنا فى أثناء
 سرد أفكارنا اجتهدنا فى جذبه إلى صفنا ، فإذا لم يأت معنا طوعاً عنّفناه .
 وينبغى أن نختار المجتمعات التى تتقبل ما عندنا ، والأشخاص الذين يرجى
 من بعضهم أن يلتزم لما نقول ، ومن بعضهم الآخر أن يضحكوا
 مقهقهين . وسنعطى كل حديث طابعه المناسب ، وسيعجب الناس بحيوية
 تفكيرنا ، وحضور بديهتنا ، وسنحتفى بتبادل إيماءات الرأس . وستلعب
 اليوم ، وغداً ستلحق بى فى الشهرة . سأدخل معك بيتاً . وسأكتب لنفسى
 مظهراً لك ما أكتب . يجب أن أجيبك إجابة فكّمة كالتي أجاب بها آنفاً
 ذلك الرجل الذى لقيناه معاً فى الشارع ، ثم التفت إليك قائلاً : إن
 الرجل لم يكن يتوقع ذلك ، وقد ملكه العجب . ثم سأنشر بعض أشعارى ،
 فتقول أنت : لقد كنت معه وهو يعدّها ، وكان ذلك ونحن نتناول العشاء ،
 ولم تحتج منه إمعاناً فى التفكير . ومع ذلك سيسخر بعضنا من بعض كثيراً ،
 وسيقول الناس . انظروا كيف يهجم كل منهما على الآخر ، وكيف
 يتصارعان ولا يدّخران وسعاً فى النزاع . ثم انظروا . ما أروع تخلصه !
 أى حضور بديهة هذا ! إنها معركة حقيقية ، ولكنهم لن يقولوا : إننا
 كنا بالأمس متناوشين .

وينبغى أن نشترى بعض الكتب المشتعلة على كهبات طيبة مختارة
 أنشئت ليستعملها الذين ليس لهم حظ من الفصاحة ، ويتخذونها نماذج لهم
 يحتذونها ، ومحاكاة النماذج لها أثرها فى كل شيء . وأريد أن نكون
 — قبل مرور ستة أشهر — فى حالة تمكّنا من تناول الحديث ساعة
 كاملة نعرها بروائع الكلم ؛ لكن ينبغى أن ننتبه إلى شيء هام هو أثر

ما نقوله في الناس ؛ إذ ليس كافياً أن نقول الكلام الرائع فحسب ، بل ينبغي أن نحرص على أن نجد له صدى في النفوس وأن ينتشر في كل مكان ، وبدون ذلك سنفقد كثيراً مما نريد تحقيقه ، وأعترف لك أنه ليس شيء أدعى للحزن من أن يقال كلام جميل فيموت في أذن أحق يسمعه ولا يعيه .

وفي الحق إننا نجد في كثير من الأحيان شيئاً من التعويض ، وذلك التعويض هو ما نقصه أحياناً من ترهات تمر دون أن يتنبه أحد إليها .

إنه الشيء الوحيد الذي نتعزى به في هذه الحال . هذا يعزى هو الموقف الذي يجب أن نقفه . افعل ما أقوله لك ، وأنا أعدك أن تصل — قبل ستة أشهر — إلى مكان في الأكاديمية . ومعنى ذلك أنني أقول لك : إن العمل لن يكون طويلاً . وعند وصولك إلى هذه الغاية يمكنك أن تقلع عن فنك ، وستكون رجل يان ولو أنك ذو يان .

ويلاحظ — في فرنسا — أن الرجل لا يكاد يدخل في جماعة حتى يكسب ما يسمى روح الجسم . ستنطبق عليك هذه القاعدة ، ولن أخشى عليك شيئاً إلا أن ترتبك من شدة التصفيق لك .

من باريس في ٦ من ذي القعدة سنة ١٧١٤ .

الرسالة السادسة والخمسون

من أوزبك إلى أمين في أزمير

لعبُ الميسر شائع في أوربا ، وإنها لحرقة أن يكون الإنسان لاعباً ،
ولقب اللاعب يحل محل شرف النسب ، والثراء ، والاستقامة : ويضع
من يحمله في مرتبة أشراف الناس ، دون اختبار ، ومع أن كل إنسان
يعرف أن مثل هذا الحكم قائم غالباً على الضلال ، فإنهم قد اتفقوا على
ألا يسلكوا الطريق السوى .

والنساء خاصة أكثر انكباباً على اللعب . حقاً إنهن لا يسترسلن فيه
أيام شبابهن إلا تيسيراً لشهوة هي أحب إلى نفوسهن ، وكلما تقدمت بهن
السن قويت رغبتهن في اللعب ، ثم تطفئ هذه الرغبة على الرغبات
الأخرى .

إنهن يرون دمار أزواجهن ، وعندهن في جميع مراحل العمر
الوسائل التي توصلهن إلى ذلك ! من الشباب الغض إلى الشيخوخة الفانية :
فيبدأ اضطراب الثروة بالثياب والغرائب والخدم والحشم ، ويضاعفه
مطالب الزينة ، ويجهز على الثروة لعب الميسر .

رأيت أحياناً تسع نساء أو عشرأ : وبعبارة أدق تسعة قرون أو عشرة ،
قد اصططفن حول مائدة ، فرأيتن في أملهن ، وفي خوفهن ، وفي سرورهن ،
وفي حداثتهن بنوع خاص : إذا رأيتن قلت : إنه ليس لديهن وقت لهذا ،

وأن حياتهن ستفارقهن قبل اليأس . وسترى نفسك في شك فيما إذا كان أولئك الذين يدفعون لمن المال دائنين أو واثقين لمن .

ويبدو لي أن نينا الكريم لرغبته الأصلية في أن يحرّم علينا كل ما يحدث اضطراباً لعقولنا حرّم علينا الخمر التي تخمر^(١) عقولنا .
وبنصوص صريحة حرّم علينا لعب الميسر . ولأنه رأى من المستحيل نزع الأسباب التي تستثير الرغبات ، اجتهد في أن يخمدتها ، ويخفف من حدتها .

إن النكاح بالنسبة إلينا لا يشير فينا اضطراباً ولا حقدا : إنه شهوة مضيئة تترك النفس في هدوء : إن جمهرة النساء ينجيننا من سلطانهن ، فيخفض حدة اشتهاؤنا لمن .

من باريس في ١٠ من ذى الحجة ١٧١٤ .

(١) تخمر : تستر .

الرسالة السابعة والخمسون من أوزبك إلى رهيدي في فينيس

الفجار هنا يستحذون على عدد لا حصر له من بنات الهوى ،
والنساء يسيطرون على عدد كبير من الدراويش . وهؤلاء الدراويش
أعطوا عهداً ثلاثة : من طاعة وفقر وعفة . ويقال : إن الأولى روعيت
أكثر من سواها ، وأما الثانية فلم توجد قط ، وأدعك أن تحكم على الثالثة .

ومهما كان ثراء هؤلاء الدراويش فإنهم لا يتخلون أبداً عن صفة
الفقر ، بل قد يتخلى سلطاننا العظيم عن مظاهر أبته ، ورفع ألقابه ،
أما هم فلا يتخلون عن لقب الفقر الذي يقيمهم من أن يصبحوا فقراء .
وهم في ذلك محقون .

والأطباء ، وبعض هؤلاء الدراويش الذين يسمون رجال
الاعتراف^(١) ، هم هنا دائماً إما محل تقدير كريم أو ازدراء مهين ، ومع
ذلك فإنه يقال : إن الورثة يستريحون إلى الأطباء أكثر مما يستريحون
إلى رجال الاعتراف .

كنت يوماً في دير هؤلاء الدراويش ، فاستقبلني منهم شيخ اكتسب
وقاره من شعره الأبيض استقبالا كريماً ، وبعد أن أراني الدير كله ،

(١) الذين يعترف أمامهم (Les confesseurs)

صحبني إلى الحديقة ، حيث أخذنا في الحديث ؛ فقلت له : ما عملك يا أبي
في هذه الجماعة ؟ فأجابني ، وقد بدا على وجهه الرضا بسؤالي : أنا المفتي
فقلت له : المفتي ؟ إنني مذ كنت بفرنسا لم أسمع شيئاً عن هذا العمل ،
فقال : وى ! ألا تدري ما المفتي ؟ لا بأس ، استمع إليّ فسأعطيك عنه
فكرة واضحة ، لا تدع لك رغبة في مزيد ، وأنشأ يقول : هناك نوعان
من الذنوب : كبائر تحرّم الفردوس تحريماً باتاً ، وصغائر تغضب الله
حقاً ، ولكن غضبه لا ينتهي إلى حرماننا من النعم . وعملنا يقوم على التمييز
بين هذين النوعين من الخطايا .

وإننا إذا استثنينا بعض الفجار ، فإن جميع المسيحيين يريدون أن
يظفروا بالفردوس ، وليس منهم قط من لا يحرص على أن يدخلها
بأيسر ثمن ممكن ، فإذا بانّت له الكبائر يانا واضحاً ، فإنه يحاول
ألا يرتكبها . وهنا يبدأ العمل .

ومن الناس من لا ينزعون إلى حظ عظيم من الكمال ، ولا طموح عندهم
مطلقاً ، فلا يهتمون بأن يبلغوا أعلى الدرجات ، وحسبهم أن يدخلوا الجنة ،
فإذا دخلوها فهذا منتهى أملهم ، لا يريدون أقل منه ولا أكثر ، لأنهم أناس
يؤثرون الغضب من السماء بدلاً من أن ينالوا منها ، يقول قائلهم لله
(تعالى) : « مولاي : إني أنجزت بتشدد الشروط التي فرضتها عليّ ،
فلا ينبغي لك إلا أن تنجز وعدك لي . لم أفعل أكثر مما طلبت مني ،
ومع ذلك أرجو أن يكون إحسانك إليّ أكثر مما وعدتني » . ثم قال هذا
الشيخ : إذن فتن يا سيدي قوم لا غنى عنهم . ومع ذلك فليس هذا كل
شأننا ، وسترى لنا شأننا آخر .

الحدّث لا يفعل الجريمة ، وإنما المعرفة هي التي ترتكبها : فمن يفعل
إثماً ، ويمكنه أن يعتقد أنه لم يفعل شراً يكون هادئ الضمير . وبما أن
هناك عدداً لا يحصى من الأفعال المشتبه في حكمها فإن المفتي يستطيع
أن يعطيها درجة من الخيرية لم تكن مستقرة لها ، بأن يصفها كذلك
بشرط أن يثبت أنه لا ضرر منها ، أو يحذفها برمتها .

وهأنذا أقول لك سر المهنة التي شئت فيها وأريك دقائقها . إن لكل
شيء دوراً في الحياة ، حتى الأشياء التي تبدو أنها تافهة الأثر .

فقلت له : يا أباي ، هذا حسن ، ولكن كيف ترضون الله ؟ إذا كان
في بلاط صوفيٍّ عظيم ، رجل مثلك ، يصنع معه ما تصنع أنت ضد إهلك ،
بعد أن يسنّ الفرق بين أوامره ونواهيه ، وعلم أتباعه في أي حالة يجب
أن ينفذوها ، وفي أي حالة أخرى يستطيعون أن يخالفوها ؟ إنه يرفعه
من فوره على (الخازوق) .

وإذ ذاك حييت المفتي ، وتركته دون أن أنتظر جوابه .

من باريس في ٢٣ من المحرم سنة ١٧١٤ .

الرسالة الثامنة والخمسون

من ريكا إلى رعدى فى فينيس

فى باريس — يا عزيزى رعدى — مهن كثيرة ؛ فهناك يأتى إليك
رجل مفضل يعرض عليك السر فى الحصول على الذهب مقابل يسير من
المال تنفحه إياه .

ويأتى آخر يعرض عليك أن تعاشر جنيات الريح بشرط ألا تكون
قد استمتعت قط بالنساء ثلاثين سنة .

وتجد عرافين مهرة إلى درجة أنهم يقصّون عليك تاريخ حياتك لكن
بشرط واحد : هو أن يتحدثوا قبل ذلك مع خدمك ربع ساعة فقط ..

وأخريات يصلحن بفنهن ما أفسد الدهر ، ويعرفن كيف يرددن
الجمال الذاهب إلى الوجوه ، بل يستطعن أن يستدعين امرأة فى قبة
الشيخوخة لتنزل إلى الشباب الغضّ .

هؤلاء الناس جميعاً يعيشون ، أو يبحثون عن عيشهم فى مدينة هى
أم الابتكار .

وإيرادات المواطنين فى هذه المدينة لا تثبت على حال مطلقاً ، ولا تعتمد
إلا على الذكاء والحرفة ، وكل له حرفته التى يعتز بها أيما اعتزاز .

ومن أراد أن يحصى جميع رجال القانون الذين يتبعون إيراد بعض

المعابد ، كان كمن أراد أن يعدّ رمال البحر أو عبيد ملكنا .

وفي باريس عدد لا حصر له من مدرسي اللغات والفنون والعلوم ،
وهم جميعا يعلمون ما يجهلون ، وهذه موهبة جديرة بالتقدير ، لأن التظاهر
بالمعرفة لا يحتاج إلى كثير من الذكاء إنما الذي يحتاج إلى ذكاء لا حد له
هو أن يعلم المرء ما يجهل .

ولا يمكن أن يقع الموت هنا إلا فجأة ، لأنه لا يستطيع أن يمارس
سلطته إلا بهذه الطريقة ، وذلك لأن في كل ركن من أركان المدينة أناساً
لديهم دواء ناجع يشفي جميع الأمراض التي يستطيع الإنسان أن يتخيلها .

وجميع الدكاكين نصبت عليها شباك غير مرئية تصطاد المشتريين ،
وقد يخرجون منها أحياناً وقد اشتروا بأثمان معتدلة . وقد تلاطف بائعة
رجلا ساعة كاملة ليشتري حزمة (خلة) لتسليك الأسنان .

ولا يخرج إنسان من هذه المدينة إلا وقد صار أكثر حذراً واحتياطاً
منه وقت أن دخلها ؛ فإنه لطول ما مارس التعامل المالي مع غيره تعلم
المحافظة على المال ، وهذه هي الفائدة الوحيدة التي يجنيها الأجانب من هذه
المدينة الفاتنة .

من باريس في ١٠ من صفر سنة ١٧١٤ .

الرَّسالة التاسعة والخمسون

من ريكال أدركت في ٠٠٠٠

كنت بالأمس في منزل اجتمع فيه أخلاط من الناس ، واستأثرت بالحديث عجوزان قضتا صباحهما كله في التصابي ، فقالت إحداهما : ينبغي أنى أترف أن رجال اليوم غير رجال الأمس الذين خالطناهم في شبابنا ؛ فقد كانوا مهذبين ظرفاء ملاطفين . أما رجال اليوم فهم في غلظة لا تطاق فقال رجل يبدو أنه مرهق بالنقرس^(١) : إن كل شيء قد تغير ، ولم يعد الزمان كما كان ، فبئذ أربعين سنة كان جميع الناس في صحة جيدة يغدون ويروحون مرحين ضاحكين راقصين ، والآن يعيش الناس جميعاً في هم لا يطاق . وبعد برهة اتجه الحديث نحو السياسة ؛ فقال سيد عجوز : يا إلهي ! إن الدولة لم يعد بها حكم حازم ! أتجدون الآن وزيراً كالسيد كولبير ؟ لقد عرفته جيداً . كان من أصدقائي ، وكان يأمر أن يصرفوا إلى مرتبي قبل أى إنسان كائناً من كان . أى نظام مالى رائع كان يسود في عهده ! كان الناس جميعاً في رخاء ، لكننى الآن قد أفلست . عند ذلك شرع رجل من رجال الدين يقول :

لقد تكلمت عن الزمان الحافل بالمعجزات الخارقة في عهد ملكنا الذى يقهر ، وهل هناك شيء أعظم من الجهود التى بذلها للقضاء على الإلحاد ؟ وقال آخر بنغمة الرضا ، ولم يكن تكلم من قبل : أتستعينون بإلغاء

(١) النقرس : داء الملوك .

المبارزة ؟ فهمس في أذن بعض القوم قائلاً هذه ملحوظة صائبة : إن هذا الرجل مفتون بمرسوم الإلغاء ، ويقدره تقديراً حسناً . حتى إنه منذ ستة أشهر ضُرب مائة عصا حتى لا يتعرد عليه .

يدولى — يا أوزبك — أننا لا نحكم على شيء أبداً إلا إذا طبقناه دون أن نشعر على أنفسنا .

ولا ياخذني العجب إلا من الزوج الذين يرسمون الشيطان أبيض ناصعاً ويرسمون آلهتهم سوداً كاللحم ، وأعجب من بعض الشعوب الذين ينحتون فينيس بشدين تتدليان حتى نخذيها . ومن جميع الوثنيين الذين يصورون آلهتهم بوجوه آدمية ، ثم يشتركون في عبادتها ، وبحق يقال : إن الذين يثلثون الآلهة لو اتخذوا لهم إلهاً واحداً لجعلوه مثلث الجوانب .

ياعزيزى أوزبك . عندما أرى الناس يزحفون فوق الذرة — أعنى الأرض التى ما هى إلا نقطة صغيرة فى الكون — وأراهم يفرضون أنفسهم كنماذج للحكمة الإلهية لا أدري كيف أوفق بين ضآلتهم وإمعانهم فى العتة .

من باريس فى ١٤ من صفر سنة ١٧١٤ .

الربّ الّيسْتون

من أوزبك إلى لبنان في أزمير

تسألني : هل في فرنسا يهود ؟ ألا فاعلم أنه حيث كان المال كان اليهود .
وتسألني : ماذا يعملون فيها ؟ فأقول لك : يعملون هنا تماماً ما يعملون
في فارس ؛ فليس هناك شبه أقوى من تشابه يهودى أسوى ويهودى
أوربي .

لأنهم يبدون مع المسيحيين كما يبدون معنا عناداً دينياً لا يقهر ، يبلغ
درجة الجنون .

إن اليهود لم يجدوا في أوربا هدوءاً كالذى يتمتعون به عندنا . وقد
بدءوا في البيئات المسيحية يهدبون روح التعصب التي تثيرهم ، ولم يرض
عنهم الأسباب فطردوهم ، وأتعبهم — في فرنسا — المسيحيون الذين
يختلفون شيئاً ما في عقيدتهم عن ملكهم . ويلاحظ أن التحمس للنشر
الدين يختلف باختلاف التعلق به ، ووجهه ، وتقديره تقديراً واعياً ، وليس
ضرورياً أن نمقت أو نضطهد من لا يقدر ديننا .

وما تتمناه أن نفكر نحن المسلمين أيضاً بتعقل في هذا الموضوع
كما يفكر المسيحيون الذين استطاعوا أن يكونوا فكرة طيبة عن الوثام
بين على وأبي بكر ، وترك للعناية الإلهية أن تقدر منازل الأنبياء^(١)

(١) قد يؤهم كلامه أن علياً وأبا بكر رضى الله عنهما نبيان . ولكنهما من أصحاب
النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن خلفائه الراشدين . (المراجع)

المقدسین . وأود أن نكرمهم بمظاهر الإجلال والاحترام ، بدلا
من أن نفاضل بينهم بلا جدوى ، ونبحث عما يستحقون بفضلهم
من منازل أعدها الله لهم بين أهل اليمين ، أوفى المقرين تحت درجات
العرش .

من باريس في ١٨ من صفر سنة ١٧١٤ .

الرسالة الحادية والثلاثون

من أوزبك إلى رعدى في فينيس

دخلت يوماً ما كنيسة مشهورة هي كنيسة نوتردام ، وبينما كنت أتأمل بإعجاب هذا المبنى الرائع التقيت برجل من رجال الكنيسة ، دفعه إلى الكنيسة حب الاستطلاع كما دفعنى ، وتناول الحديث ما فى وظيفته من راحة بال . فقال لى : إن أكثر الناس يحسدنا على سعادة حالنا ، وهم على حق وإن كان لحالنا مساوئها ؛ فنحن لم نعرل من الدنيا قط إلا لندعى إليها فى كثير من الأحوال ، ولذلك كان علينا فى الحياة أن نمثل دوراً يصعب جداً أن نهض بأدائه .

إن شأن الناس معنا عجيب ، فهم لا يستطيعون أن يقبلوا منا استحساناً ولا استهجاناً ، فإذا دعوناهم إلى صلاح جعلونا موضع سخريه وإذا أقررناهم على ما هم عليه اعتبرونا أقل من سلوكنا . وليس شئ أدعى إلى الهوان من أن يفكر واحد منا أنه موضع للريية من الناس حتى من الزنادقة أنفسهم ، فنحن إذن مضطرون إلى أن نلتزم سلوكاً غامضاً على الفسقة فلا نسلك معهم سلوكاً محدداً ونضعهم فى شك نحصل به على اعترافهم ، وهذا يستلزم كثيراً من الذكاء ، لأن حالة الحياد هذه شاقة : لأن أصحاب الدنيا يخاطرون فى كل فرصة ، وينطلقون متوثبين ، فيما أن يدفعهم النجاح إلى غايتهم ، ولما أن يتخلى عنهم فهم أكثر منا نجاحاً . وفضلاً عن هذا فإننا لا نظفر فى عالمنا بتلك الحال التى تتحقق فيها

السعادة التامة ، والهدوء المريح المحمودان من الناس فما نكاد نظهر في المجتمع حتى يثار معنا الجدل ، ويتصدى الناس لنا بعنف يسألونا مثلاً عن فائدة الصلاة من رجل لا يؤمن بوجود الله ، وعن ضرورة الصوم من رجل آخر ينفي - طول حياته - خلود الروح ، فعملنا دائب ، ولا ينبغي أن يسخر منا السخرون . هذا ، والرغبة في استمالة غيرنا إلى آرائنا يسبب لنا أذى لا ينقطع ، وذلك مرتبط بمهنتنا ، وهو أمر يدعو إلى السخرية تماماً أن يبيض الأوربيون وجوه الإفريقيين خدمة للنوع الإنساني . إننا نحدث اضطراباً في الدولة ، ونأذى نحن أنفسنا بفرض مبادئ ليس لها أصل في الدين . ونحن في ذلك أشبه بقاتل الصين الذي دفع رعاياه إلى ثورة عامة لأنه ألزمهم بأن يخلقوا شعورهم ، أويقلعوا أظفارهم . وحماستنا نفسها التي تدعونا إلى أداء الواجبات التي حملنا إياها ديننا المقدس هي في غالب الأحيان حماسة خطيرة ، ليست مصحوبة بمقدار كاف من الحكمة . وما يحكى - قريباً من هذا - أن إمبراطوراً يدعى تيودور عرض على حد السيف سكان مدينة من المدن حتى نسائها وأطفالها ثم تهباً للدخول في الكنيسة ، لكن مطراناً يدعى إمبرواز أغلق الأبواب في وجهه لأنه مجرم منتهك للحرمان ، وتلك بطولة منه ، ثم تاب هذا الإمبراطور من جريمته الشنعاء ، ورضيت عنه الكنيسة . ثم ذهب فجلس بين القسيسين ، لكن المطران السالف الذكر أخرجه ، فكان هذا تعصباً منه ، والواجب أن يحذر الإنسان من تحمسه وماذا يهم الدين أو الدولة إذا كان لهذا الملك مكان بين القساوسة أو لم يكن !

من باريس في غرة ربيع الأول سنة ١٧١٤ .

الرسالة الثانية والستون

من زليxis إلى أدريكس في باريس

قد بلغت ابنتك السابعة من عمرها فرأيت أن الوقت قد حان لإدخالها في الأجنحة الداخلية من القصر ، وأنه لا داعي مطلقاً لانتظار بلوغها العاشرة لنعهد بها إلى الخصيان السود . إذ لم يعهد الناس أن يحرموا بنتاً — في سن مبكرة — من حريات الطفولة ، ويمنحوها تربية دينية بين جدران مصونة حيث يكون الطهر والحياء .

ولست أرى رأى هؤلاء الأمهات اللائي لا يحجن بناتهن إلا قليل تزويجن ثم يفرضن عليهن حياة القصور بما فيها من تضيق شديد ، دون أن يهيئن أنفسهن لهذا النوع من الحياة . وهل يجدر بنا أن ننظر دائماً إلى حكم العقل دون أن نحسب حساباً لسلطان العادة ؟

ومن العيب أن يحدثنا الناس عن خضوعنا للشهوات التي أودعتها فينا الطبيعة ، إذ لا يكفي الإحساس بها ، بل يجب أن نعالجها حتى نستطيع احتمالها في فترة المراهقة الدقيقة التي تبدأ فيها العواطف الجنسية تظهر وتشجعنا على الاستقلال .

فلو أنه لا يربطنا بكم — معشر الرجال — إلا الواجب ، فإن من الممكن أن نقس أحياناً هذا الواجب ، وإذا كان الرباط نتيجة لميل فقد يضعفه ميل أشد منه . وعندما يعطينا القانون رجلاً فإنه يحرمنا من سائر الرجال ، ويباعد يدنا وبينهم كما أن بيننا مائة ألف ميل .

إن الطبيعة العاملة لخير الإنسان لا تقتصر على أن تحقق له رغباته ،
ولأنما أرادت لنا أن تكون هذه الرغبات في أنفسنا حتى نكون آلات
حية يستمتعون بها ، فهي تضعنا في نار الشهوات لتجلبها تعيش في هدوء ،
ولو أن الناس فقدوا حساسيتهم ، فقد هياتنا الطبيعة لنردها إليهم ، دون
أن نستطيع تذوق تلك الحالة السعيدة التي منحناها إيها .

ومع ذلك — يا أوزبك — لا تتصور أنك في حال أسعد من حالي ،
فقد ذقت كثيراً من اللذات التي لا تعرفها ، وسبح خيالي دائماً لمعرفة
قيمتها ، لقد عشت أما أنت فلم تجلب لنفسك إلا الضنى . إننى — في السجن
الذى وضعتني فيه — أ أكثر حرية منك ، فأنت تضاعف اهتمامك ببقائى
في السجن ، وأنا أستمتع بقلبك وشكوكك وغيرتك وهمومك ، وكلها
دلائل أكيدة على تعلقك بى .

استمر — يا عزيزى أوزبك — في السهر على ليلا ونهاراً ، ولا تقنع
بالاحتياط المعتاد ، وضاعف هنامق بتحقيق ما تنهأ به ، واعلم أننى
لا أخشى شيئاً إلا عدم أكثرائك بى .

سراى أصفهان فى ٢ من ربيع الأول سنة ١٧١٤ .

الرسالة الثالثة والستون من ريكافاني أوزبك في ١٠٠٠

أعتقد أنك تريد أن تقضى حياتك في الريف ، وما كنت أفقدك في أول الأمر إلا يومين أو ثلاثة ، وها أنت ذا قد حرمتني رؤيتك خمسة عشر يوما . إنك في بيت رائع حقاً ، تجد فيه جماعة توافق هواك ، وتبصرف فيه كما تريد ، ولست في حاجة بعد ذلك إلى مزيد كي تنسى العالم كله :

أما أنا فإني أكاد أحيا الحياة نفسها التي عهدتني أحياها ، أنطلق في الدنيا وأخبر أحوالها ، ونفسي تفقد بشكل غير محسوس كل ما بقي لها من أسويتها ، وتتشرب بلا عناء العادات الأوربية ، فلم أعد أعجب أن أرى خمس نساء أو ستا في منزل مع خمسة وجمال أو ستة ، ولا أرى في ذلك غرابة .

وأستطيع أن أقول : إنني لم أعرف النساء إلا منذ جئت إلى هنا ، وقد تعلمت منهن في شهر ما لم أكن لأتعلمه في القصر في ثلاثين سنة .

فعندنا الأخلاق متشابهة ، لأنها متكلفة ، فلا ترى الناس يظهرن كما هم ولكن كما يضطرهم المجتمع أن يكونوا : وفي هذه العبودية القلبية والفكرية لاتسمع منهم غير الخوف الذي ليست له إلا صورة واحدة من التعبير ، خلافاً للطبيعة التي تعبر عن نفسها بصور شتى .

المواربة ، هذا الفن الشائع عندنا الملازم لنا ، غير معروف هنا فكل شيء يعبر ، وكل شيء يظهر ، وكل شيء يسمع ، والقلب يتكشف كالوجه ، وفي الأخلاق ، وفي الفضائل ، بل في الرذيلة نفسها ، يرى دائماً شيء من الانطلاق مع الفطرة .

وينبغي - لإرضاء النساء - نوع آخر من الاستعداد فوق ما تقر به أعينهن ، قوامه مرح الروح الذي يسليهن ، ويبدو أنهن يتطلبنه في كل لحظة ولا يمكن أن يكتفين منه إلا بأزمة ممتدة لا انفصال بينها .

وهذه الفكاهة بطبيعتها إنما كانت لتجميل الحياة ، ويبدو أنها أصبحت طابعاً عاماً للأمة : فهم يمزحون في مجلس الوزراء ، وفي قيادة الجيش ومع السفير . والمهن لا تكون موضعاً للتهكم والازدراء إلا بمقدار حظها من الجد ، فالطبيب لا يكون موضع دعابة إلا إذا كانت ثيابه أقل إيماء للحزن ، وإلا إذا قتل مرضاه بدعاباته .

في باريس في ١٠ من ربيع الأول سنة ١٧١٤ .

الرَّسَالَةُ الرَّابِعَةُ وَالسِّتُونَ مِنْ رُئُوسِ الْخَصِيَّانِ السُّودِ إِلَى أَدْنِيكَ فِي بَابِيسَ

إِنِّي يَا مَوْلَايَ الْعَظِيمِ فِي ضَيْقٍ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعْبِرَ لَكَ عَنْهُ ؛ فَالْقَصْرُ
فِي فَوْضَى وَارْتِبَاكَ شَنِيعٌ ، وَالْحَرْبُ دَائِرَةُ الرَّحَى بَيْنَ نَسَائِكَ . وَالْإِنْقِسَامُ
يَسُودُ خَصِيَّانَكَ ، وَلَا تَسْمَعُ إِلَّا الشُّكَاوَى وَالْهَمْسَ وَالتَّأْنِيبَ . وَتَنْبِيهَاتِي
لَا يَعْأُ بِهَا ، وَكَأَنَّنَا فِي وَقْتٍ أُبَيِّحُ فِيهِ كُلَّ شَيْءٍ ، وَلَمْ يَبْقَ لِي فِي الْقَصْرِ مِنْ
الرِّيَاسَةِ إِلَّا لَقَبٌ لَا قِيَمَةَ لَهُ .

وَلَيْسَ فِي نَسَائِكَ وَاحِدَةٌ إِلَّا تَرَى نَفْسَهَا أَفْضَلَ مِنْ سَائِرِ أَتْرَابِهَا بِنَسَبِهَا
وَجَاهِهَا وَثَرَاثِهَا وَذِكَاثِهَا وَبِمَحَبَّتِكَ لِيَاهَا . وَلَيْسَ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ تَفْخَرُ بِبَعْضِ
هَذِهِ الصِّفَاتِ الَّتِي تَفُوقُ بِهَا سِوَاهَا . وَأَخَذْتُ أَفْقَدُ صَبْرِي الْجَمِيلَ شَيْئًا
فَشِيئًا ، وَمَعَ هَذَا الصَّبْرِ شَقِيتُ بِأَنْ أَسْخَطْتَنِي جَمِيعًا . وَلَمْ تَنْفَعْ مَعَهُنَّ حِكْمَتِي ،
وَلَا رِعَايَتِي لَهُنَّ ، وَهِيَ مُوَهَّبَةٌ نَادِرَةٌ غَرِيبَةٌ جَسَدًا فِيمَنْ يَشْغُلُ الْمَنْصِبَ
الَّذِي أَسْخَلَهُ .

أَتُرِيدُ — يَا مَوْلَايَ الْعَظِيمِ — أَنْ أَكْشِفَ لَكَ عَنِ السَّرِّ فِي كُلِّ هَذِهِ
الْفَوْضَى ؟ مَا يَكُنُّ قَلْبُكَ لَهُنَّ ، وَحَنَانُكَ عَلَيْهِنَ فَلَوْ تَرَكْتَ طَرِيقَ التَّأْنِيبِ
وَالْتَحَذِيرِ ، وَأَطْلَقْتَ يَدِي فِي تَأْدِيبِهِنَّ . وَلَمْ تَلْنِ لَشُكُوَاهُنَّ ، وَلَمْ تَتَأَثَّرْ
لِدُمُوعِهِنَّ وَأَحْلَطْتَنِي عَلَى بَاكِياتٍ ، وَأَنَا الَّذِي لَا يَرِقُّ أَبَدًا ، فَإِنِّي أَضَعُهُنَّ
مِنْ فُورَى تَحْتَ النَّيْرِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَرْزَحْنَ تَحْتَهُ ، وَأَطَا مِنْ مَزَاجِهِنَّ
الْمُتَعَجَّرِ الْمَتَحَرَّرِ .

خطفت في الخامسة عشرة من عمري من موطني بقلب إفريقية ،
وباعوني أول الأمر إلى سيد كان في حوزته أكثر من عشرين امرأة
أو حظية . وقد أدرك من مظهرى الصارم ، ومن صمتى ، أننى أصلح لخدمة
القصر ، فأمر بأن أعد لذلك ، فأجريت لى عملية كانت قاسية في أول
الأمر ، لكنها جعلتنى فيما بعد سعيدا لأنها قربتنى من آذان سادتى ،
وجعلتنى موضع ثقتهم . ودخلت هذا القصر الذى كان بالنسبة إلى عالمنا
جديدا . وكان كبير الخصيان به أقسى رجل رأيته في حياتى ، ويحكم فيه
بسلطان مطلق ، فلم يكن يسمع به كلام ، ولا انقسام ولا شخاء ، بل سيكون
عميق يسود جميع الأرجاء . وكانت جميع نسائه يأوين إلى فراشهن في وقت
واحد على مدار السنة ، ويستيقظن في وقت واحد ، ويدخلن الحمام
متعاقبات في نظام ، ويخرجن منه لأدنى إشارة تصدر من إلهن ، وفي
سائر أوقاتهم كن محجوبات دائما في حجراتهن ، وكانت هناك قاعدة
تحملهن على الاستقامة التامة في سلوكهن ، وتراعى باهتمام بالغ
لا يوصف . هذه القاعدة هى : إن أقل خروج على الطاعة لا بد من
العقاب عليه دون عفو . وقد قال لى مرة : إبنى عبد ، لكنى عبد لرجل
هو سيدى وسيدك ، وإبنى أستخدم ما خولنى من سلطان عليك .
فاذا عاقبتك فإنما هو الذى عاقبك ، لأنه هو الذى أعارنى اليد التى
عاقبتك بها .

إن هؤلاء النساء لا يدخلن حجرة سيدى قط إلا إذا استدعين إليها
ويتقبلن هذا الفضل بحبور وقد يرين أنفسهن محرومات فلا يشكون .
وأخيرا أتول : لقد كنت أقل العبيد السود في هذا القصر الهادى ،
لكننى كنت فيه أكثر احتراماً منى في قصر ك هذا ، وأنا القيم على جميع
من فيه وما فيه .

ومنذ عرف كبير الخصيان عبقرتى وجه نظره إلى ، وكلم عنى سيدى

أتى الرجل الكفاء بأن يعمل وفق هواه ، الجدير بأن يخلفه في مكانه الذى يشغله ، ولم تكن حادثة سنى ماثراً لعجبه ، وأعتقد أن يقضى تحلّ محلّ التجربة الطويلة . ماذا أقول لك ؟ لقد نجحت كل النجاح في نيل ثقته حتى لم تعد هناك عقبة دون أن يضع في يدي مفاتيح الأمان المصونة التي يحرسها من أمد بعيد ، وتحت سلطان هذا الرئيس الكبير تعلمت فنّ القيادة الصعب ، وتخرّجت في الأصول التي لاتلين في الحكم ؛ ودرست تحت قيادته قلوب النساء ، وعلمني أن أستغل ضعفهنّ ؛ وألأدهش من سموهنّ . وكثيراً ما كان يحلو له أن يريني كيف يستدرجنهن إلى الخروج على الطاعة ، ثم يردهنّ إليها سريعاً دون أن يشعرن ، ويريد بذلك أن أبدو أنا نفسى منقاداً له في بعض الأوقات . وينبغي أن نراه في هذه الأوقات التي يمد النساء فيها على وشك اليأس ؛ وهن في حال بين الرغبة في رجائه أو تأنيبه ، ويقابل دموعهن دون أن يرقّ لهنّ ثم يستشعر الرضا بهذا النوع من الانتصار . وقد قال مرة والرضا باد عليه : هكذا ينبغي أن تقاد النساء . إن عددن لا يربكني لأنى أسوس نساء مولانا العظيم بطريقة واحدة . وكيف يتسنى لرجل أن يأمل في إخضاع قلوب نسائه ، إذا لم يُخضع خصيائنه المخلصون أرواحهم له ؟

ولم يكن من صفات هذا الرجل الصرامة فحسب : بل كان يجمع إلى الصرامة نفاذ البصيرة : فقد كان يقرأ أفكار النساء ، ويعرف مكرهنّ ، وحركاتهن المتكلفة ، ووجوههن المرائية ، ولا يخفى عليه شيء من أمورهن وكان يعرف من أمورهن مايبالغن في إخفائه ، ومن أقوالهن ما يحرصن على ستره ، وكان يعرف أسرار بعضهن من بعض ، وكان يروق له أن يكافئ من تنقل إليه أدنى سرّ من الأسرار .

وبما أنهم لا يقتربن من زوجهن إلا حينما يؤذن لهن ، فإنه كان يدعو منهن من يشاء ويوجه أنظار سيده إليها . وكان يمنح هذه المزية لمن شاء منهن كمكافأة لها على سرّ كشفته له .

وكان يقنع سيده بأن من حسن النظام أن يدع له هذا الاختيار لينال بذلك سلطة أقوى .

هكذا كانت تساس الأمور — يا مولاي العظيم — في هذا القصر الذي كان فيما أعتقد أحسن تنظيما من قصور فارس .

أطلق يدى يا مولاي ، وأتخلى أن أطاع ، فأحل لك النظام محلّ الفوضى في ثمانية أيام ، وهذا ما يليق بمقامك ، ويتطلبه أمنك . من قصره بأصفهان في ٩ من ربيع الأول سنة ١٧١٤ .

الرسالة الخامسة والستون من أوزبك إلى نسائه بقصص أصفهان

لقد علمت أن القصر في فوضى ؛ وأنه مملوء بالمشاجرات والانقسام .
ألم أنصحكن عند رحيلي بالوئام ، وحسن التفاهم ؟ ألم تعدنني بمراعاة
ذلك ؟ أم كان وعدكن خدعة لي ؟ لو اتبعت نصيحة كبير الحصيان ، أو
لوشئت أن أستخدم سلطانى عليكم لأحييتكن الحياة التى تفرضا
توجيهاتى ، ولكنكن المخدوعات .

ولست أرى أن أستخدم هذه الوسائل العنيفة إلا بعد أن أجرب
الوسائل الأخرى ، فلتنظرن إلى ما أغفلتن رعايته بعين الاعتبار من
أمر كانت محل اهتمامى .

إن كبير الحصيان محق في شكواه ، ويقول إنكن لا تنظرن إليه
بعين التقدير ، فكيف توأمن بين سلوككن هذا وضالة شأنكن ؟ ألم
أعهد إليه في غيابى بأن يصونكن ، وهو الأمين على فضيلتكن ؟ إنه
وحده ، المأمون على هذا الكنز المقدس .

إن الاحتقار الذى تبدينه نحوه يبين أن الذين يكفون بحملكن على
الحياة في ظلال الشرف تتخذنه لكنّ عدوآ مبيهاً .

فأرجوكن إذن أن تغيرن من سلوككن حتى أستطيع فيما بعد أن
أرفض جميع المقترحات التى ترمى إلى الحد من حريتكن وراحتكن ،
لأنى أحب أن تذكرننى دائماً على أننى زوج لاسيد .

من باريس فى ٥ من شعبان سنة ١٧١٤ م .

الرسالة السادسة والستون من ريك إلى

يهتم الناس هنا كثيراً بالعلوم ولكن لا أدري هل يمكن أن يصبح الإنسان من فحول العلماء؟ وذلك الذي يشك في كل شيء كفيلسوف لا لايجرؤ أن ينفي شيئاً كعالم لاهوتي، فهذا الإنسان المتناقض راض عن نفسه دائماً إذا أقر الناس بمواهبه .

إن الرغبة الجامحة لدى أكثر الفرنسيين هي أن يكون لديهم حظ من الذكاء، ورغبتهم الجامحة في الذكاء، لأنهم يريدون أن يؤلفوا كتباً .

ومع ذلك لا يمكن تخيل شيء أسوأ من ذلك لأن الطبيعة بدت بحكمتها حريصة على أن تمر حماقات الناس عابرة، ولكن الكتب تأتي لها أن تموت، ويترتب على ذلك أن يرضى الآحق بأن يضايق بحماقاته من يعاصره، ثم يؤذى بها الأجيال المقبلة . ويجب لها أن تنتصر على النسيان الذي كان يستطيع أن يظفر بها كالقبر . كما يريد من الخلف أن يعلموا أنه عاش، وأن يعرفوا دائماً أنه كان أحق .

ليس في المؤلفين قط أولى بازدرائي من الجامعين الذين يأخذون من هنا ومن هناك أجزاء من كتب غيرهم، ويضمنونها كتبهم، كقطع من العشب في روضة، وليسوا في عملهم هذا خيراً من عمال المطبعة الذين يرتبون الحروف ويصفونها، ثم يطبعون كتاباً لم يبذلوا فيه إلا عملاً

يدوياً . ولهذا أريد ألا يحترم الناس إلا الكتب الأصلية المبكرة .

وأراه ضرباً من المهانة أن تؤخذ الأجزاء التي تؤلف من أماكنها
السكرية لتعرض لازدراء لا ينبغي لها مطلقاً .

ألا يسكت الإنسان إذا لم يجد جديداً يقوله ؟ وما الداعي إلى مضاعفة
الجهد بالتكرار ، لكنني أريد أن أصدر أمراً جديداً ؛ أنت رجل ماهر ،
أعني أنك تجيء إلى مكتبي ، فضع في أسفلها الكتب التي كانت في أعلاها ،
وضع في أعلاها الكتب التي كانت في أسفلها : فتكون بذلك قد أنشأت
أثراراً ثمناً .

إني أكتب لك في هذا الموضوع . يا لأنني مغيظ من كتاب
فرغت لساعتي من قراءته ، وقد بلغ من الضخامة درجة يخيل للبرء معها
أنه قد حوى علم الدنيا ؛ لكنه كسر رأسي دون أن أتعلم منه شيئاً .

وداعاً . . .

في باريس في ٨ من شعبان سنة ١٧١٤ .

الرسالة السابعة والستون من إبيسن إلى أوزبك في باريس

لقد وصلت إلى هنا ثلاث سفن دون أن تحمل إلى أى خبر من أخبارك فهل أنت مريض ؟ أو أنه يسرك أن تقلقنى ؟

وإذا كنت لا تحببى وأنت فى بلد لا يشغلك فيه شيء ، فكيف تكون الحال إذا كنت فى قلب فارس ، وفى أحضان أسرتك ؟ ولكن لعلنى مخدوع : فأنت محبوب إلى درجة أنك تجد فى كل مكان أحبابا . ولك قلب يستوطن جميع البلاد : وكيف تمتنع روح مهذبة من تكوين علاقات مع الناس ؟ وإنى أعترف لك بأننى أحترم المودات القديمة ، لكنه لا يسعدنى تكوين مودات جديدة فى كل مكان .

وفى بعض البلاد التى وجدت بها ، عشت كما لو كنت أقضى فيها حياتى . وكان عندى نفس الاهتمام بأفاضل الناس ، والمجاملة أو بالحرى الحنان على البائسين ، وعين التقدير للذين لم يبطرهم الرخاء . هذا سلوكى يا أوزبك ، أينما وجدت الرجال ، سأصطفى لى منهم أصدقاء .

معى هنا زرادشتى أعتقد أنه يحل بعدك بالمكان الأول من قلبى . إن نفسه هى الوفاء بعينه . وقد اضطر لأسباب خاصة إلى الزواج إلى هذه المدينة حيث يعيش هادئا مما تغله تجارة شريفة مع امرأة يحبها . وتتميز حياته بآثر كريمة . وبالرغم من أنه يريد أن يعيش مخمورا فإن فى قلبه من البطولة ما لا تجده عند أعظم الملوك . لقد حدثته كثيرا

عنك ، وأريته جميع رسائلك ، ولحظت أن ذلك سره ، وبذلك رأيت
الك صديقا لا تعرفه .

وستجد في هذه الرسالة أهم مغامراته^(١) ، وقد كان يحس نفورا من
كتابتها ، لكن لصداقتي لم يرفض أن يكتبها ، وإني أعهد بها إليك .
في أزوير في ٢٧ من جمادى الآخرة ١٧١٤ م .

(١) هذه المغامرات • Histoire D'Aphéridon et D'Astarté •
تركزت لمسائها بالدين) .

البرخ أنسيريون وداستريه

لقد ولدت بين المجوس ، الذين قد تعد ديانتهم أقدم ديانة وجدت في العالم ، وكنت بائساً لأنني عرفت الحب قبل أن أعرف العقل . إذ لم أكد أبلغ السادسة من عمري حتى شعرت أنني لا أستطيع أن أعيش إلا مع أختي : وكانت عيناى متعلقتين بها لا تقعان على سواها ، وحينما كانت تتركني لحظة وتعود إلى تجدهما غارقتين في الدمع ، وكل يوم يمر بي لا يزيد في سنى بمقدار ما يزيد في حبي . واستولى العجب على أبي لشدة تعلقي بها ، وكمنى لو تزوجنا وفقاً للتقليد المجوسى الذى أدخله قميز .

لكن خوفاً من المسلمين الذين نعش تحت نيرهم ، منع أمنا من التفكير في مثل هذه الروابط المقدسة التى لا يسمح بها ديننا فحسب ، بل يأمرنا بها ، وهى تلك الصور الصادقة لذلك الرباط الذى أوجدته الطبيعة بيننا .

ولما رأى أبى أن من الخطر أن ينقاد لهواى وهواها قرر أن يطبق لهباً أعتقد أنه كان لا يزال ناشئاً ، مع أنه قد بلغ أقصى مداه : فنعلى برحلة ، واصطحبني معه ، تاركاً أختي بين يدي إحدى قريباتها ، لأن أمى كانت قد ماتت منذ عامين . ولن أستطيع أن أصف لك مطلقاً مبلغ الجزع من هذا انفراق : لقد عاقت أختي وهى غارقة في الدمع ؛ ولكننى لم أندف دمعة واحدة ، كأن الألم قد أفقدنى حساسيتي .

وصلنا إلى تفليس ، وعهد أبى بتريتي إلى أحد أقاربنا ، وتركني بها وعاد إلى موطنه .

وبعد حين علمت أن أبي قد أدخل أختي قصر الملك بنفوذ أحد أصدقائه حيث أصبحت في خدمة إحدى السلطانات . ولو بلغني خبر وفاتها لما شق على كما شق على نأ دخولها هذا المكان : لأنه فضلاً عن أنني لن أراها أبداً ، فإن دخولها القصر جعلها مسلمة ، ولن تستطيع بعد ذلك أن تنظر إلى دون كراهية ، لتأثرها بمعتقدات هذا الدين^(١) .

ومع ذلك ، لم أعد أستطيع العيش في تفليس ، وضقت ذرعاً بنفسى وبالحياة ، فعدت إلى أصفهان . وكان أول حديث لى مع أبي عنيفاً ، لقد أنبته تأنيباً شديداً لأنه وضع ابنته في مكان لا يمكن أن يدخله إنسان إلا إذا ارتد عن دينه . وقلت له : « لقد جلبت على أسرتك غضب الله وغضب الشمس التي تنير طريق الحياة . لقد أتيت أمراً أداً فدنست نعم الله ؛ لأنك دنست روح ابنتك التي ليست أقل طهراً من تلك النعم : سأموت لذلك ألماً ووجداً . ولعل موتى يكون العقاب الوحيد الذي سينزله الله بك » .

قلت ذلك وخرجت لأقضى عامين أطوف حول أسوار القصر أتفقد المكان الذي يمكن أن توجد به أختى ، معرضاً نفسى كل يوم ألف مرة لأن أذبح بيد الخصيان الذين يحيطون بهذا المكان الرهيب .

ثم مات أبى ، ورأت السلطانة التي تخدمها أختى أن جمال شقيقتى يزداد روعة يوماً فيوماً ، فاستبدت بها الغيرة وزوجتها من عبد كان يتمناها ، ويولع بها . وبهذه الوسيلة ، خرجت أختى من القصر واتخذت مع العبد منزلاً في أصفهان .

(١) يبيع دين المجوس زواج الأقارب الأديني .

ومضى على ثلاثة شهور دون أن أستطيع التحدث إليها ، لأن الخصى ، وهو أشد الناس غيرة ، كان يصدني عن لقاءها بتعللات مختلفة . وأخيراً دخلت بيته وتركني أحدثها من وراء نافذة : مع أن عيني الفهد لا تستطيع أن تبين منها شيئاً لما ارتدته من ثياب ووضع فوقها من خر ، فلم أعرفها إلا بجرس صوتها . وكم أثار شجني أنني شديد القرب منها ، شديد البعد عنها ! وضبطت نفسي تماماً لأنني كنت مراقباً . أما هي فقد بدا لي أنها كانت تذرف قطرات من الدمع . وقد أراد زوجها أن يقدم لي أعذاراً كانت سخيفة ، فعاملته كأحط العبيد شأناً . وقد أدهشه أنه رآني أتكلم مع أختي بلغة لا يعرفها : إنها الفارسية القديمة . . . لغتنا المقدسة . لقد قلت لها : « ماذا دهك يا أختي . أحقاً إنك تركت دين آبائك ؟ إنني أعرف أنه بدخولك القصر يجب ان تعتنق الدين الإسلامي : ولكن خبريني هل استطاع قلبك أن يرضى بما يقوله لسانك من أنك تركت ديناً يحل لي أن أحبك ؟ ولاجل من تركت هذا الدين العزيز علينا ، الأثير عندنا ؟ أمن أجل هذا البائس الذي لا تزال آثار القيد الحديدي الذي قيد به بأدية عليه ، والذي لو عد في الرجال لكان أدناهم شأناً ؟ » - فقالت : « يا أختي إن هذا الرجل الذي تتحدث عنه زوجي يجب أن أكرمه وإن بدا لك أنه غير جدير بالتكريم فساكون أنا أيضاً أحط النساء إذا . . . » - فقلت : « آه ! يا أختي إنك مجوسية وليس هذا الرجل زوجاً لك ولا يستطيع أن يكونه ، وإذا كنت مخلصه لدينك كآبائك فلا ينبغي أن تنظري إليه إلا كما تنظرين إلى شيطان رجيم .

فقالت : واأسفاه : أي ديانة تلك التي تترامى لي من بعيد . . . إنني لا أكاد أعرف على مبادئها حتى أرى لزماً علي أن أنساها . وأنت ترى أن هذه اللغة التي تحدثني بها لم تعد مألوفاً لي ، وأنني أجد مشقة كبيرة

في أن أعبر بها عن نفسي ، ولكن ينبغي لك أن تؤمن بأن ذكريات طفولتنا لا تزال عندي أعذب الأشياء ، وأنتى منذ ذلك الوقت لم أذق إلا متعاً كاذبة ، وأنه لم يمر بي يوم دون أن أفكر فيك ، وأنتك كنت من أكبر الأسباب ، دون أن تشعر ، في زواجى هذا .

ولم يكن يدور بخلدى إلا أمل واحد هو أن ألقاك ثانية . ولكن كم كلفنى هذا اليوم وكى سيكلفنى ، إننى أراك خارجاً عن طورك وأرى زوجى ينتفض غيظاً وغيرة : لن أراك بعد ، إنى أحدثك بلا شك لآخر مرة فى حياتى التى إن ظلمت على تلك الوتيرة يا أخى ، فلن تكون طويلة ، .. وتأثرت من هذا الكلام ورأت نفسها عاجزة عن الاتزان فى الحديث فتركتنى أشد الناس أسى وألماً .

وبعد ثلاثة أيام أو أربعة طلبت لقاء أختى ، لكن هذا الخصى المتوحش أصرّ إصراراً شديداً على أن يحول بينى وبينها . ولكن فضلاً عن أنه من هؤلاء الأزواج الذين ليس لهم على نساءهم ذلك السلطان الذى لغيرهم من الرجال ، فإنه كان شغوفاً بأختى ، مولهاً بحبها ، فلا يستطيع أن يرد لها طلباً . ولذلك رأيتها فى المكان نفسه ، تخفيها عن ناظرى الثياب والخزالتى رأيتها عليها من قبل ؛ ومعها عبدان ، فرأيت أن أتحدث إليها بلغتنا الخاصة . فقلت لها : يا أختى ! أنى لى أن أراك دون أن أكون فى مثل هذا الموقف الشائن ؟ إن الأسوار التى تسجنك وهذه القضبان والمزاليج التى تحبسك ، وهؤلاء الحراس البائسين الذين يرقبونك ، كل هذا يثير حفيظتى وسخطى . كيف فقدت حريتك المحبوبة التى تمتع بها أسلافك ؟ إن أمك التى كانت مثلاً للطهارة لم تعط زوجها ضماناً لفنائها سوى الفضيلة نفسها : لقد عاشا سعيدين فى ثقة متبادلة ، وكانت بساطة سلوكهما ثروة أعظم قيمة من الأبهة الكاذبة التى تتخيلن

أنسكن متمتعاً ، يا في هذا القصر الفاخر . وبفقدك دينك فقدت حريتك وسعادتك وتلك المساواة الغالية التي تشرف جنسك .

وأسوأ من ذلك كله ، أنك لست الزوجة ولا يمكن أن تكونيها لأنك جارية لعبد لفظته البشرية .

فقلت : « أواه يا أخى . احترم زوجى واحترم الدين الذى اعتنقته ، لأنه يوجب على ألا أسمع بالاستماع إليك . ولا بالتحدث معك ، وإن فعلت كنت آثمة » . فقلت لها وقد ملكنى الغضب : ما ذاك يا أختاه ؟ كأنك تعتقدين أن هذا الدين حق ؟ فأجابتنى : « كم كان خيراً ألا يكون حقاً ! لقد ضحيت تضحية كبرى بسببه : فلا أستطيع إلا اعتناقه . وإذا كانت شكوكى ... » ، وسكتت عند ذلك ، فقلت لها : « نعم يا أختاه إن شكوكك مهما كانت ، تقوم على أساس مكين . وماذا تنتظرين من دين يجعلك شقية فى هذه الحياة الدنيا ، ولا يدع لك إطلاقاً أملاً فى الحياة الأخرى ؟ فكرى فى أن ديننا أقدم دين عرفته الدنيا . وظل على مر الأيام يزدهر فى فارس وليس له أصل إلا فى هذه الامبراطورية التى لا يعرف مطلقاً متى كانت نشأتها ، والتى دخلها الإسلام مصادقة ، وهو دين لم يقم أبداً على أساس من الإقناع ، ولكنه انتشر بالغزو^(١) . ولولم يكن ملوكنا الشرعيون ضعافاً لرأيت العبادة السائدة عندنا هى عبادة الأقدمين من المجوس . وارجعى بذاكرك إلى القرون الغابرة فستجدين جميع الناس يحدثنك عن المجوسية لا عن الإسلام الذى كان بعدها بآلاف السنين لا يزال فى مرحلة الطفولة . فقلت : « إذا كانت

(١) هذه نزعة بعض المستشرقين المتعصبين حين وصفوا الإسلام بأنه دين قام فى انتشاره على حد السيف ، وهو زعم باطل لأن الله تعالى يقول : « لا إكراه فى الدين » وقد قامت الحروب لتدفع العدوان أو لتزيل الحواجز التى أقامها الكفر والشرك فى وجه الدعوة الإسلامية .

ديانتى أحدث من ديانتم فهي على الأقل أكثر صفاء، لأنها تقوم على عبادة إله واحد، وأنتم لا تزالون تعبدون الشمس والكواكب والنار وسائر العناصر الكونية. ، فقلت لها : « إنك قد تعلمت يا أختاه ، وأنت تعيشين مع المسلمين ، كيف تسكرهين ديننا المقدس . إننا لا نعبد الكواكب ولا العناصر كما لم يعبدها آباؤنا مطلقاً ، لم يقيموا لها المعابد ، ولم يقدموا لها القرابين ، وإنما نخصها باليسير من التقديس الديني باعتبار أنها مخلوقات تشهد بالعظمة الإلهية ، وأستحلفك يا أختي بالله الذى يهدينا أن تأخذى هذا الكتاب المقدس الذى أحمله إليك ، وهو كتاب مشرعتنا (زرادشت) ، اقريه غير متأثرة برأى ، وليتقبل قلبك أشعته التى تهديك وأنت تقرئينه ، وتذكرى آباءك الذين ظلوا يمجدون الشمس زمنا طويلا فى (بلخ) تلك المدينة المقدسة ، ثم اذكرينى أخيرا ، واعلمى ألا أمل فى راحة ، ولا فى سعادة ، ولا فى حياة ، إلا إذا رجعت عما أنت عليه من اعتقاد ، وتركتها مغضبا ، وتركت لها وحدها أن تتخذ قرارا فى أهم شأن يعرض لى فى حياتى .

ثم عدت بعد يومين ، ولم أكلها قط ، واستمعت قرار حياتى أومئأتى فى سكون : فقالت لى : « أنت يا أختى محبوب . ومحبوب من مجوسية ، لقد قاومت طويلا ، ولكن يا إلهى كم يقيم الحب من عقبات ! ولكن ما أعظم عزائى ! لم أعد أخشى أن يزداد حبى لك قوة ، ولا أستطيع مطلقاً أن أضع حدا لحبى ، بل إن الإفراط فيه مشروع . أواه ما أليق هذا بقلبي ! لكن متى تستطيع أن تفك أغلال يدي بعد أن استطعت أن تحطم الأغلال التى قيدتني بها روحى ؟ إنى مستسلمة لك منذ الآن فأرى السرعة التى تتقبلنى بها . وكيف تعزى بهذه الهدية التى تقدم لك . أختى . إنى أعتقد أنى سأموت بين ذراعيك فى أول فرصة أستطيع فيها

أن أعانقك . . فقلت لها : « إننى لا أستطيع أن أحسن التعبير مطلقاً عن السرور الذى أشعر به وأنا أصغى إلى هذه الكلمات الحلوة . حقاً ، إننى أرى نفسى قد صرت فى لحظة واحدة أسعد الناس جميعاً . وأكاد أرى جميع رغباتى التى سعت لها جاهداً خمساً وعشرين سنة قد تحققت ، كما تلاشت جميع الهموم التى توالى علىّ دائبة . ولكن عندما ألفت هذه الأفكار الجميلة بعض الألفة ، رأيت أننى لم أكن قريباً جداً من سعادتى ، وأننى تخيلت فجأة أننى تغلبت على أعظم الصعاب التى تعترضنى . يجب أن تأخذ حراسها على غرة . ولم أجروء على الإفشاء بسر حياتى إلى أحد . ووجب علينا أن نتجز كل شئ : أنا وهى ، لأنه إذا أخفقت محاولتى كنت معرضاً لوضعى على الخازوق ، على أننى أرى أن أشد عقاب ينزل بى هو إخفاق هذه المحاولة . وقد اتفقنا على أن ترسل إلى فى طلب ساعة جدار خلفها أبونا ، ووضعت مبرداً يفلّ به حديد النافذة التى تطل على الشارع ، وجبلاً ذا عقد لنزل عليه ، على ألا أراها منذ الآن . بل أذهب كل ليلة تحت نافذتها إلى أن يحين الوقت الذى تتمكن فيه من تنفيذ خطتها ومضت بى خمس عشرة ليلة كاملة دون أن أرى إنساناً ، لأنها لم تجد الفرصة المواتية . وفى الليلة السادسة عشرة سمعت المنشار يعمل فى الحديد ولكن العمل ينقطع من آن لآخر ؛ وفى فترة السكون كان يتمسكنى خوف شديد . وأخيراً وبعد ساعة من العمل ، رأيتها مربوطة بالحبل تاركة نفسها تهوى إلى أن صارت بين ذراعى . ولم أعد أعرف الخطر ، وبقيت مكانى مدة لا أتحرك ؛ ثم أخذتها خارج المدينة . حيث أعددت هناك حصاناً وأردفتها خلفى وانطلقت بها فى سرعة لا يدركها الخيال من هذا المكان الذى لا أجد مكاناً أشأم منه . فوصلنا فى السحر إلى مجوسىّ يحيا فى مكان قفر حياة تقشف من عمل يديه . ولم نجد من الملائم أن نقيم عنده

ودخلنا وفقاً لنصحه ، غابة كثيفة لنقيم في جوف شجرة قديمة من البلوط إلى أن تهدأ الأحاديث التي أثارها فرارنا . وعشنا في هذا المأوى المنعزل دون رقيب . تقناجى دائماً بأحاديث الغرام ، منتظرين أن توافى الفرصة فتبهرج لنا موبداً مجوسياً يعقد زواجنا طبقاً لما نص عليه كتابنا المقدس . وقلت لها : « ما أظهر هذا الرباط الذي يجمعنا يا أختاه ! إن الطبيعة جمعت بيننا وشريعتنا ستوثق هذا الرباط . » وأخيراً جاء الموبد الذي ردّ إلينا لهفة الحب . وأدى مراسيم الزواج في بيت فلاح ، وباركنا وتمنى لنا كثيراً أن تكون لنا عزيمة (كشتاسب) .

وبعد قليل ، غادرنا فارس ، حيث كنا غير آمنين ، ولجأنا إلى جورجيا ؛ فعشنا فيها سنة كان كل يوم فيها أسعد من سابقه ؛ ولكنني عندما وجدت المال ينفد شيئاً فشيئاً خشيت الفقر على أختي لأعلى نفسي فتركتهما لأطلب العون من أقاربي . ولم يكن هناك وداع أروع من وداعنا . خير أن رحلتى لم تكن عديمة الجدوى فحسب ، بل كانت مشثومة لأننى وجدت جميع أموالنا قد صودرت ، كما وجدت أهلى عاجزين عن أن يمدوا لى يد العون ، فلم أحمل من المال إلا ما استطعت به العودة . ولكن أى يأس أصابنى ! لم أجد أختى : ذلك أن جماعة من التتار قد غزوا المدينة قبل عودتى بأيام . فلما وجدوا أختى جميلة أخذوها وباعوها لليهود الذاهبين إلى تركيا . ولم يتركوا إلا طفلة كانت قد ولدتها منذ بضعة شهور . اقتفيت أثر هؤلاء اليهود فلحققت بهم على بعد ثلاثة فراسخ من المدينة . لم يرقوا الدموعى ولا لرجائى وطلبوا منى ثلاثين جنيهأ فارسياً ولم يتنازلوا عن جنيه واحد . وبعد أن سألت جميع الناس العون واستغثت بتمساوسة أتراك ومسيحيين ؛ تقدمت إلى تاجر أرمنى وبعته ابنتى كما بعته نفسى بخمسة وثلاثين جنيهأ فارسياً . وعندئذ ذهبت إلى اليهود ونقدتهم ثلاثين

جنياً وحملت الخمسة الباقية لأختي التي لم أكن رأيتها بعد . ولما لقيتها قلت لها : « أنت حرة يا أختي وأستطيع أن أعانقك ! وهاك خمسة جنينيات أحملها إليك ، ويجب عليّ أن آسف لأنهم لم يشتروني بأكثر مما اشتروني به . » فتالت : « ماذا ؟ أبعث نفسك ؟ » فأجبتها : « نعم » ، فتهدت وقالت : « مسكين ! ماذا صنعت بنفسك ؟ ألم يكف ما كنت فيه من شقاء حتى تضيف إليه مزيداً من النعاسة ؟ ! كانت حريتك عزائي ولكن عبوديتك الآن ستسلبني إلى القبر . آه يا أختي ما أقسى حبك ! وابنتي ؟ إنني لا أراها . فقلت لها : لقد بعثها أيضاً .. وغلبنا البكاء ولم نستطع أن نقول شيئاً . »

وأخيراً ذهبت لمقابلة سيدي ووصلت أختي إليه في الوقت نفسه وجئت تحت قدميه وقالت له : « إني أطلب منك العبودية كما يطلب غيري الحرية . خذني فستبني بطن من أغلى من ثمن زوجي »

وكان أن حدث صراع انتزع الدموع من عيني سيدي . ثم قالت لي : « أيها التعس أظننت أني أقبل حريتي إذا كان ثمنها حريتك ؟ مولاي إنك ترى اثنين شقيين سيموتان إن أنت فرقت بينهما ، إنني أهب نفسي لك . أنقذني اثنان فربما استطعت بهذا المال وبخدماتي أن أنال منك يوماً ما ، مالا أجروا الآن على طلبه ، إن مصلحتك تقتضيك ألا تفرق بيننا أبداً ، وليكن في تقديرك أنني المسيطرة على حياته . »

وكان الأرمني رجلاً رقيقاً فتأثر لشقاؤنا وقال : « اخذماني سوياً بإخلاص وغيره وأعدكما بأن أمنحكما الحرية بعد سنة واحدة . وأرى أن كليكما غير جدير بالشقاء الذي تسكبدانه . وإذا أصبحتما حريين صرتما سعيدين لأنكما جديران بذلك . وإذا ابتسم لكما الحظ ، فإني واثق من أنكما

سردان لى الخسارة التى تكبدتها ، . فقبلنا ركبتيه وتبعناه فى رحلته .
واستراح كل منا لى أعمال العبودية . وكم كنت سعيداً حينما أستطيع أن
أقوم بالعمل الذى يكون من نصيب أختى .

وحلّ آخر العام ؛ وأوفى مولانا بعهده فأعتقنا . وعدنا إلى تفليس
وهناك وجدت صديقاً قديماً لأبى كان يمارس الطب فى تلك المدينة ،
فأقرضنى مالا تاجرت به واستدعتنى بمضى الأعمال إلى أن أقصد أزمير
حيث أقمت بها وعشت ست سنوات تمتعت فيها بأحب مجتمع وأرقه
فى الدنيا . وساد الوئام أسرتى ولا أرضى أن أبادل بحالى كل ملوك
الأرض . لقد كنت سعيداً حينما التقيت بالتاجر الأرمنى الذى أنا مدين
له بكل شيء ، وقدمت إليه خدمات جليلة .

من أزمير فى ٢٧ من جمادى الآخرة سنة ١٧١٤ .

الرسالة الثامنة والستون

من رسيكا الى أوزبك في

بالأمس ذهبت لأتحدث عند رجل من رجال القضاء بعد أن رجاني في ذلك كثيراً . وبعد أن تناولنا صنوفا شتى من الحديث ، قلت له : يبدو لي — يا سيدى — أن مهنتكم شاقة جداً ، فقال : ليست كما تتخيل ، وهى بالحال التى نمارسها به ليست إلا نوعاً من التسلية ، فأجبت : وكيف يكون ذلك ؟ أليست رهوسكم مشحونة دائماً بمضايبا الناس ؟ أليست مهنتين دائماً بأشياء ليس فيها أى تسلية ؟ فقال : أنت على صواب ، فهذه الأشياء لا تستهويننا مطلقاً ، لذلك كان اهتمامنا بها يشبه العدم ، ومن هنا لم تكن المهنة شاقة كما تظن . ولما رأيته يتناول الأمر بلا اكتراث استرسلت في الحديث قائلاً : إنى لم أرق قط مكتبك يا سيدى ! فقال أعتقد ذلك ، لأنه ليس لى مكتب ، إذ أننى احتجت إلى المال لشراء منصبى هذا فبعت مكتبى المحتوية على عدد عظيم من المجلدات الضخمة ، ولم يترك لى الكتيب إلا كتاب عقلى . ولا آسف عليها لأننا — معشر القضاة — لا نحب أن نستكثر من العلوم التى لا طائل تحتها . وماذا نبغى من هذه المجلدات القانونية ؟ إن الحالات التى تعرض لنا تكاد كلها تكون فرضية ، خارجة من النظام العام . فقلت : لعل ذلك يا سيدى لأنكم أتمم الذين تخرجونها منه ؟ وإلا فلماذا نجد فى شعوب الدنيا كلها قوانين إذا لم تطبق ؟ وكيف يمكن تطبيقها من غير معرفة بها ؟ فأجاب قائلاً : لو كنت تعرف دار القضاء لما تكلمت هكذا . إن عندنا كتباً حية هى الحمامون ، إنهم يعملون

من أجلنا ، وقد تسكفوا بأن ينيروا لنا السبيل ، فقلت : ألا يتكفلون
أحيانا بأن يخدعوكم ؟ وماذا يضركم إذا اعتصمت من أحاييلهم ، لأنهم
مسلحون بأسلحة يغيرون بها على عدالتكم ، ومن الخير لكم أن تتسلحوا
بمثلها لتدافعوا بها عن أنفسكم ؟ ولا ينبغي أن تخوضوا المعركة بثياب السلم
مع قوم قد لبسوا الدروع السابغات .

في باريس في ١٣ من شعبان سنة ١٧١٤ .

الرسالة التاسعة والستون

من أوزبك إلى رعدى فى فينيس

ما كنت تستطيع أن تتصور أننى قد أصبحت فيلسوفاً أبحث فيما وراء الطبيعة كما لم أكن من قبل ، ومع ذلك ستقنع باستفاضة فلسفتى إذا نظرت فيها نظر الفاحص .

إن أعقل الفلاسفة الذين فكروا فى ذات الله قالوا : إنه كائن علا بكل كمال ، لكنهم أفرطوا فى هذا التفسير : إذ عددوا جميع الكمالات المختلفة التى يمكن أن يتحلى بها الإنسان أو يتخيّلها ، ووصفوا بها الله ، دون تفكير فى أن الغالب أن هذه الصفات متعارضة ، وأنه لا يمكن أن تجتمع لكائن دون أن تقضى عليه .

وقد قال شعراء الغرب : إن المصور وهو يريد أن يرسم صورة لآلهة الجمال ، يجمع أجمل اليونانيات . يأخذ من كل واحدة أروع ما فيها ليكوّن من جميع ما يأخذ صورة تشبه أجمل الآلهة . فإذا انتهى إنسان إلى أن يتصور أن هذا الإلهة شقراء وسمراء ، وأن لها عينين سوداوين وزرقاوين ، وأنها رقيقة ومتكبرة فإنه يبلغ من السماجة مبلغاً عظيماً .

كثيراً ما يعوز الإله كمال يجعله متصفاً بنقص كبير ولكن الله وحده هو الذى يحدد ذلك بنفسه ، وهو لازم الوجود . لهذا مهما كان الإله قديراً فإنه لا يمكن أن يخلف وعده ، أو يخدع بالناس . وليس الإله عاجزاً فى ذاته وإنما هو بنسبة الأشياء . وهذا هو السبب فى أنه لا يمكن أن يغير جود الأشياء . ولهذا لم يكن هناك شئ قط يشير

العجب كالذى ذهب إليه بعض علمائنا الذين اجترءوا على نفي علم الله بالغيب نفيًا باتًا . وعلى أساس أن علم الله بالغيب لا يتفق وعدله .

ومهما تكن هذه الفكرة جريئة فإن المبتاين بقا تنبأها بشكل عجيب ، وبحسب قواعدها يكون من المستحيل على الله أن يتنبأ بالأشياء المتوقعة على تحديد أسباب مطلقة ، لأن ما لم يحدث لم يوجد قط ، وعلى ذلك لا يمكن أن يعرف . لأن العدم الذى لا وجود له لا يمكن أن يلاحظ . ولا يمكن أن — يتنبأ الله بإرادة لا وجود لها ، أو يرى فى نفس شيئا لا وجود له فيها مطلقاً ، لأنه إلى أن تتحدد ، فإن الفعل الذى يحدد عزمها ليس موجوداً فيها .

إن الروح هى المنفذة لعزمها ، لكنها فى بعض الحالات تكون غير مستقرة على عزم بل لا تدرى من أى جهة تعزم . بل إنها كثيراً ما تصرف لا لشيء إلا لتستغل حريتها بحيث لا يمكن أن يرى الله هذا العزم مقدماً ، لا فى عمل الروح ، ولا فى الحدث الذى تؤثر به الأشياء عليها .

وإذا فكيف يعلم الله الأشياء التى تتوقف على تحديد الأسباب المطلقة ؟ إنه لا يمكن أن يراها إلا بطريقتين : إما بالحدس ، وهذا يناقض علم الغيب اللانهاى ، وإما لأنها كنتائج ضرورية تنشأ بلا تخالف عن سبب يحدثها تلقائياً ، وفى هذه الحال تناقض أكثر : لأن الروح ستكون حرة فرضاً ، ولكنها فى الواقع لن تكون إلا كسكرة (البليارد) . ليست حرة فى حركتها حينما تكون مدفوعة بكرة أخرى .

لا تظن — مع ذلك — أنتى أريد أن أحدّ من علم الله ، فكما أنه يتصرف فى الخلق كما يشاء ، فإنه يعلم ما يريد أن يعلمه . لكنه بالرغم من أنه يستطيع أن يرى كل شيء ، فإنه لا يستخدم دائماً هذه القدرة ،

وترك - عادة - للمخلوق القدرة على أن يتصرف أو لا يتصرف ،
ليدع له الأهلية أو عدم الأهلية : وعلى ذلك تنازل لعبده عن حق هو له
في أن يتصرف فيه أو أن يحدده كما يشاء ، ولكن حينما يريد أن يعلم
شيئاً ما ، فإنه يعرفه دائماً ، فـ هو إلا أن يريد شيئاً فيكون كما رآه ، ويحمل
المخلوقات على ما يوافق إرادته . وهكذا يختار ما ينبغي أن يحدث من
الأشياء الممكنة بدقة ، وذلك بأن يحدد بأوامره ما تقرره الأرواح
في المستقبل ، وبأن يحرمها القدرة التي كان قد منحها إياها لفعل
أو لا تفعل .

وإذا أردنا الموازنة ، في أمر هو أسمى من الموازنة قلنا : إنه لو جهل
ملك ما سيفعله سفيره في أمر هام ، وأراد أن يعرف ، فما هو إلا أن
يأمره بأن يتصرف تصرفاً معيناً ، ويمكنه أن يتأكد من أن هذا الأمر
سيحدث كما رسم .

يا عزيزي رعدى ، لماذا كل هذا التفلسف ؟ إن الله تعالى من السموات
بحيث لا نرى السحب التي بيننا وبينه . ولا نعرف عنه شيئاً معرفة حقة
إلا في تعاليمه . إنه واسع العلم لطيف خبير ، لا يحده زمان ولا مكان .
إن جلاله يشعرونا بضعفنا . له نخشع دائماً ، وإياه نعبد أبداً .

من باريس في آخر شعبان سنة ١٧١٤ .

الرسالة الحادية والسبعون من أدرك إلى رليين

إنتى أرثى لسليمان بمقدار ما أصابه من أذى لا خلاص له منه . وإن زوج ابنته لم يتجاوز الحرية التى كفلها القانون . وإنى أرى هذا القانون جائراً لأنه يعرض شرف الأسر هكذا لنزوات المجانين . ومن اللغو أن يقال : إن هناك أمارات أكيدة توصل إلى معرفة الحقيقة ، فهذا وهم قديم انحدر إلينا ليعيش بيننا . وإن أطباءنا قدموا أسباباً لا يمكن دحضها لبيان أن هذه الأمارات غير أكيدة . وليس من أحد إلا يراها أوهاماً حتى المسيحيين . ولو كان من الواضح أنها تعتمد على كتبهم المقدسة ، وأن قدامى مشرعهم ربطوا بينها وبين براءة الفتيات وإداتهن .

إنى أعلمُ مشروراً ما تبذلين من عناية فى تربية ابنتك . وأرجو الله أن يجدها زوجة جميلة طاهرة كفاطمة ، وأن يعد لها عشرة من الحصيان لحراستها ، وأن يجعلها شرفاً وريثة للقصر الذى أعد لها ، وألا يملو رأسها إلا السقف الموشاة بالذهب ، وألا تسير إلا على البسط الفاخرة ! وأكبر ما أتمناه أن تراها عيني فى حالة من الفخر .

من باريس فى ٥ من شوال سنة ١٧١٤ .

الرَّسَالَةُ الثَّانِيَّةُ وَالسَّبْعُونَ من ريك إلى أوزبك في

في يوم من الأيام ضمني جمع كان به رجل معجب بنفسه أشد الإعجاب ،
قطع - في ريع ساعة - برأى في ثلاث قضايا من قضايا الأخلاق ،
وفي أربع مشكلات تاريخية ، وفي خمس مسائل من علم الطبيعة ، ولم
أر في حياتي مقررأ عالمياً مثله ، فعقله لا يقف أمام أى شك .

ولما ترك الناس مسائل العلوم ، وخاضوا في الحوادث الجارية قطع
برأى فيها ، فأردت أن أظفر به ، فقلت في نفسي : يجب أن أكون معه
في أمان ، وخير سبيل لي أن أنحدث عن وطني ، فحدثته عن فارس ،
فلم أكد أنطق بأربع كلمات حتى دمغني بتخطئين معتمدتين على رحلتي
الرحالين تافرنيه (Tavernier) وشاردان (Chardin) فقلت في نفسي :
أواه . . رحماك ياربى أى رجل هذا ؟ إنه سيعرف من فوره شوارع
إصفهان أكثر من معرفتي بها وخسرت حيلتي التي احتلتها ، فسكت
وتركته يعود سيرته الأولى يحدث ويقرر .

في باريس من ٨ ذى القعدة سنة ١٧١٥ .

الرَّسَالَةُ الثَّالِثَةُ وَالسَّبْعُونَ من رينكا إلى

سمعت القوم يتحدثون عن محكمة من نوع خاص يطلقون عليها اسم «المجمع الفرنسي» ، ولم أجد هيئة أقل اعتباراً منها ، فلا تكاد تبرم أمراً حتى يسرع الشعب إلى نقضه بل يفرض عليها قوانين ويحملها على طاعتها حملاً .

وليثبت المجمع سلطانه ، أصدر مجموعة من القرارات منذ حين ، كانت أشبه بطفل له آباء عديدون ، ولد شيخاً ، ولو أنه ابن شرعيّ ، وكان قد سبقه إلى الوجود لقيط كاد يخنقه ساعة ولادته .

والذين يتكون منهم المجمع ليس لهم عمل إلا الهذيان المستمر .
والثناء يعدّ لهم كأنه من عند أنفسهم على ثرتهم الدائمة .

فإذا أمعنوا في أعمالهم الغامضة ، استأثرت بهم حمى الشاء فلا تدعهم أبداً .

وجملة أعضائه أربعون رأساً ممثلة بالاستعارات والمجازات والمقابلات ، وكثير من الأفواه لا تكاد تنطق إلا بعبارات العجب وآذانهم تريد دائماً أن تستمع إلى الإيقاع اللفظي والجرس الموسيقي المتناسب ، أما عيونهم فلا جدال في أنها — فيما يبدو — لم تخلق لتنظر بل خلقت لتسكّن . إن هذا المجمع لا يثبت على حال ، وآفته الزمان الذي يزلزله

من لحظة إلى أخرى ، ويدمر له كل ما يعمل . وقد قيل آنفاً إن أيدي
رجاله كانت جشعة ، ولا أقول في هذا الشأن أكثر من ذلك ، وأدع
للذين يعرفونهم أكثر مني أن يقرروا ما يقررون .

تلك أشياء غريبة — يا ... — لا نراها في مملكتنا فارس ، إذ لا تتجه
عقولنا إلى مؤسسات كهذه عجيبة غريبة ، ولا نسير أبداً إلا وفق عاداتنا
الساذجة ، وأساليبنا الفطرية .

باريس في ٢٧ من ذي الحجة سنة ١٧١٥ .

الرسالة الرابعة والسبعون

من ريكا إلى أوزبك

منذ بضعة أيام قال لي أحد معارفي : « لقد وعدتك أن أصحبك إلى بيوت الطبقة الراقية في باريس ، وسأصحبك الآن إلى بيت سيد عظيم يعدّ من أوجه رجال الدولة » . فقلت له : ما تقصد ياسيدي ؟ أهو أكثرهم أدباً وحلماً ؟ قال : لا . فقلت : آه قد فهمت . هو يحس كل لحظة بسموّه على كل من يقترب منه ، ومادام الأمر كذلك فلا مناص من الذهاب إليه ، ولأرضين رغبته ولأشعرنه بضآلتي باللسبة إليه ، فلنرحل .

وصلنا إليه فوجدت رجلاً ضئيل الجسم ، عظيم الزهو ، يتناول قليلاً من الدخان في كبرياء ، ويستنشق السعوط في صوت حادٍ مثير ، ثم يتمنخط في ضجيج ، ويبصق البلغم ثم يدال كلابه بطريقة مزرية بالرجال ، تجعلني لا أستطيع أن أحترمه ، فقلت في نفسي : يا إلهي لو أني حينما كنت في بلاط فارس ، ظهرت بهذا المظهر لكنت من أكثر الناس حمقاً .

ينبغي ياريكا أن تكون لنا فطرة سيئة حتى نأقن أفعالنا مزرية تسيء إلى هؤلاء الذين يأتون إلينا كل يوم ليظهروا عنايتهم بنا ، فهم يعرفون تماماً أننا نعلوهم ، وإذا جهلوا ذلك علوه كل يوم من أفعالنا الطيبة .

ليس لدينا ما نحملهم به على احترامنا ، لذلك نعمل كل ما نستطيع ليجبونا ،
فنحن نتصل بأصغر الناس شأناً . ومع أن علو المسكاة تصحبه قسوة ،
فإنهم يحدوننا دائماً ذوى حساسية ، وهم يرون مشاعرنا فوق مستواهم ،
لكننا نهبط إلى مستوى حاجاتهم . أما إذا دعت الحال إلى تفخيم عظمة
الملك في الحفلات العامة ، أو إذا دعت الحال إلى تمجيد أمتنا أمام الأجانب ،
وفي الأحوال الخطيرة ، وجب أن نثير الحمية في جنودنا فنسمو درجات
أكثر مما هبطنا من قبل دركات ، ويظهر الفخر في وجوهنا ، وقد يرى
الرائى في مثل هذه الأحوال أننا قد ظهرنا بالمظهر اللائق بنا .

باريس في ١٠ من صفر سنة ١٧١٥ .

الرسالة الخامسة والسبعون

من أوزبك إلى رعدى فى فينيس

يجب أن أعترف لك أنى لم أر عند المسيحيين اليقين الدينى الحى الذى تراه عند المسلمين . فثستان عندهم بين اعتناق الدين والإيمان به ، وبين الإيمان به ، والاطمئنان إليه ، وبين الاطمئنان إليه والعمل به ، فهو عند المسيحيين موضوع للجدل يخوض فيه الناس جميعاً أكثر من أن يكون شيئاً مقدساً ، فرجال البلاط ، ورجال الحرب والنساء أيضاً يعارضون رجال الكنيسة ، ويسألونهم البرهنة على ما صمموا ألا يعتقدوه . وليس شكهم قائماً على تفكير ، فلم يعنوا أنفسهم بالبحث فيما إذا كان الدين الذى يرفضونه حقاً أو باطلاً ، إنهم متمردون أرادوا أن يتخلصوا من النير قبل أن يعرفوه ، وهم مع ذلك غير ثابتين ، لا فى شكهم ولا فى إيمانهم ، وهم يعيشون بين مد وجزر حائرين . لقد قال لى أحدهم ذات يوم : « إنى لا أعتقد فى خلود الروح إلا فى فترات : فأرائى تتأثر تأثراً تاماً بحال جسمى ، وطاقتى العضوية وسهولة هضمى أو عسره ، ورقة الهواء الذى أتنشقه وغلظه ، وخفة اللحوم التى أتناولها وثقلها . فأنا على مذهب سينوزا مرة وعلى مذهب سوسين مرة أخرى . وكاثوليكى مرة ثالثة ، وكافر آنأ وعابد آنأ آخر . فإذا كان الطبيب إلى جنب سريرى وجد منى قس الاعتراف ما يريد من استجابة . وإذا عادت إلى صحتى عرفت كيف أحول بين الدين

وبين أن يضايقني ، فإذا مرضت مرة أخرى وجدت في الدين عزائي ،
لأنني عندما أفقد الأمل في شيء يبدو لي الدين ويجذبني بوعوده فأستسلم
إليه ، لأموت في جانب الرخاء .

منذ أمد طويل أعتق الأمراء المسيحيون العبيد في إماراتهم قائلين :
إن المسيحية تجعل الناس سواسية . وهذا التصرف الديني كان بالغ النفع
إذ خفض من شأن الإشراف بأن سلبوا سلطانهم على الدهماء . فاضطر
هؤلاء الأشراف إلى أن يفتحوا فتوحاً في بلاد يرونها خيراً لهم ، إذ يملكون
فيها عبيداً ، ويسمحون بشراتهم ويبيعهم متناسين ذلك المبدأ الديني الذي
نال من سلطانهم كثيراً . ماذا تريد أن أقول لك في ذلك ؟ الحق في آن
باطل في آن آخر . أفلا نفعل ما يفعله هؤلاء المسيحيون ؟

إننا قوم سذج إذ نرفض المستعمرات والفتوح الهينة في بلاد ذات
جو ملائم مقبلين بأن ماءها ليس على درجة من النقاء والطهر يمكننا من
الاغتسال على مبادئ القرآن الكريم .

باريس في ١٢ من صفر سنة ١٧١٣ .

الرسالة السادسة والسبعون

من أوزبك إلى صديقه إيبين في أزمير

إن القوانين صارمة في أوروبا ضد الذين ينتحرون . والناس — إن صح هذا التعبير — يقتلونهم مرة أخرى بعد موتهم ، إذ يجرونهم بازدراء في الشوارع ، ويسجّل عليهم العار ، وتستصفي أموالهم .

ويبدولي — يا إيبين — أن هذه القوانين ظالمة جداً ، لأنني إذا كنت مرهقاً بالآلم والبؤس والازدراء ، فلماذا يريدون أن يمنعوني من وضع نهاية لآلامي ؟ ولماذا يحرموني بقسوة من دواء هو بين يدي ؟

ولماذا يراد مني أن أعمل للمجتمع رضىيت بأن أتخلص منه . ولماذا ألزم مرغماً بعقد لم أكن طرفاً فيه ؟ إن المجتمع قام على تبادل المنفعة ؛ فإذا أصبح المجتمع مرهقاً لي فمن يحول بيني وبين التخلص منه ؛ إن الحياة منحت لي كنعمة ، فمن حقّي إذن أن أردّها عندما أشعر أنها لم تصبح نعمة ؛ لقد زال السبب فيجب إذن أن تزول النتيجة .

أريد الملك أن أكون من رعيته إذا كنت لا أستفيد خيراً من رعويتي له ؟

وهل يحق لمواطني أن يسوموني هذه القسمة الجائرة : فيكون لهم النفع ، ولي الخيبة والحرمان ؟

أيرضى الله (تعالى) وهو منزّه عن أن يكون له شبيهه في المحسنين —
أن يحكم علىّ بقبول نعم أراها مرهقة لى ؟

أنا ملزم باتباع القوانين خاضع لسلطانها ما دمت حياً ، لكن إذا
انتهت حياتى أفمن الممكن أن تظلّ مقيدة لى ؟

ولكن قد يقال : إنك تخل بالنظام الإلهى ، فالله تعالى جمع بين
روحك وجسمك وأنت تفرقهما ، فأنت إذن تعارض تدبير الله
وتقاومه .

ما معنى هذا ؟ أأكون قد غيرت نظام الله إذا أنا غيرت تكيف
المادة ، وإذا أنا جعلت الكرة مربعة ، والقوانين الأولى للحركة : أعنى
قوانين الخلق ، وقوانين البقاء قد جعلتها مستديرة ؟ لا . بلا شك ! إننى
لم أفعل سوى أن انتفعت بالحق الذى منح لى ، وعلى ذلك أستطيع أن
أحدث اضطراباً كما أهوى فى الطبيعة كلها دون أن يجترى أحد أن يقول
إننى معارض للحكمة الإلهية .

أنذا أصبحت روحى منفصلة عن جسمى يحدث خلل فى نظام الكون
وترتيبه ؟ أعتقد أن هذا النسق الجديد سيكون أقل كمالاً ، وأقل
انقياداً للقوانين العامة ، أو أن الدنيا فقدت شيئاً ، أو أن مخلوقات الله
صارت أقل عظمة ، أو بالحرى أقل نخامة ؟

أعتقد أن جسمى إذا صار سنبله قمح ، أو دودة ، أو عشباً ؛
فهل يتحوّل إلى أثر للطبيعة أقل مما ينبغى لها من آثار ؟ وأن
روحى لتخلصها من كل ما هو أرضى صارت أقل سموّاً ؟

إن جميع هذه الأفكار - يا عزيزي إين - ليس لها منبع
إلا غرورنا : نحن لا نستشعر مطلقاً ضآلتنا ، وبالرغم من ذلك نريد
أن يحسب لنا حساب في العالم ، وأن نبرز فيه ، وأن نكون شيئاً
ذا خطر .

نحن نتخيل أن انعدام كائن على حظ من الكمال مثلنا يفسد الطبيعة
كلها ، ونحن لا نشعر برجل أن رجلاً يزيد من الدنيا أو ينقص ، ماذا
أقول ؟ إن الناس جميعاً ، ومائة مليون رأس من أمثالنا ليسوا إلا ذرة
ضئيلة هي من الدقة بحيث لا يدركها الله (تعالى) إلا بسعة علمه .

من باريس في ١٥ من صفر سنة ١٧١٥ .

الرسالة السابعة والستون من إبيّن إلى أوزبك في باريس

يا عزيزي أوزبك : يبدو لي أن الشدائد التي تصيب المسلم الحق هي إلى الإنذار أقرب منها إلى العقاب . وإنها لأيام كريمة علينا تلك التي نكفر فيها عن سيئاتنا ؛ لذلك كان الأولى أن نختصر أيام الرخاء من حياتنا .

وما جدوى الجزع من الشدائد إلا أن نظهر أننا نريد الخيرات مستقلة عمن يمنحها مع أنه هو الخير نفسه ؟

ولو أن كائنا مكونا من كائنين ، وكانت ضرورة الاحتفاظ بالوحدة أدلّ على الخضوع لأوامر الخالق لأمكن وضع قانون شرعي لذلك ؛ ولو كانت ضرورة الاحتفاظ بالوحدة هذه خير ضمان لأفعال البشر لأمكن . أن يوضع قانون مدني لها .

من أزمير في آخر صفر سنة ١٧١٥ .

الرسالة الثامنة والسبعون من ريكا إلى أوزبك في ١٠٠٠

أرسل إليك صورة رسالة كتبها هنا فرنسي كان في أسبانيا ؛ وأعتقد أنك ستسّرّ باطلاعك عليها .

منذ ستة أشهر وأنا أجوب أسبانيا والبرتغال ، وأعيش بين قوم يكرمون الفرنسيين وحدهم ، بأن يبغضوهم بينما يحتقرون سائر الناس . إن الرزانة هي السّمة الواضحة في سلوك هذين الشعبين ، وتتجلى هذه الرزانة أساساً في مظهرين : في النظارات ، وفي الشارب .

فالنظارات ترى بشكل واضح أن الذي يحملها منهمك في العلوم ، غارق في قراءات عميقة إلى درجة أن بصره قد ضعف منها ، وكل أنف مزدان بها ، أو يحملها يمكن أن يقال عنه بلا نزاع : أنه أنف عالم .

أما الشارب فإنه محترم لذاته ، بغض النظر عن نتائجه ، ولو أنه مع ذلك لا يترك استغلاله في كثير من الأحيان في فوائده عظيمة لخدمة الملك ، أو لشرف الأمة ، كما رأينا من قائد برتغالي مشهور كان في بلاد الهند : وجد نفسه في حاجة إلى مال ، فقص جانباً من شاربه ، وأرسل إلى سكان مدينة جُوا يطلب منهم عشرين ألفاً من الجنيهات ، وجعل شاربه رهناً للقرض ، فسرعان ما أقرض المبلغ . واسترد شاربه مكرّماً .

ويلاحظ في يسر أن الشعوب الرزينة الباردة ، كهذين الشعبين لديهما حظ من الغرور . وعند هذين الشعبين حظ منه . وقد أقاما غرورهما

— عادة — على أمرين لهما اعتبار كبير . فالذين يعيشون في الأرض الأسبانية والبرتغالية يحسون أن عاطفتهم سامية إلى أبعد حد من السمو ، إذ كانوا يدعون من المنسحقين القدماء : بمعنى أنهم ليسوا في أصلهم من أغرتهم محاكم التفتيش في هذه القرون الأخيرة باعتناق الديانة المسيحية . وهؤلاء الذين يعيشون في بلاد الهند ليسوا أقل منهم غروراً ، إذ يعتبرون أنفسهم أن لهم أسمى فضل — كما يزعمون — بأنهم ذوو بشرة بيضاء . إنه لم يكن قط في قصر أى سيد عظيم سلطنة مزهوة جداً بجملها كرجل طاعن في السن ، مفرط في الدمامة ، بشرته في بياض الزيتون ، يجلس على بابيه ، معقود الذراعين حينما كان في مدينة من مدن المكسيك . إن رجلاً هذه حاله ، ومخلوقاً بلغ هذا الحظ من الكمال ، لن يعمل ولو أعطى كنوز الدنيا كلها ، ولن يرضى مطلقاً أن يغير شرف جلده ويغض من فضله بالعمل في صناعة حقيرة ميكانيكية .

والنه ينبغي أن يكون معلوماً أنه إذا كان رجل يتمتع بمزية ما في أسبانيا كأن يضيف مثلاً إلى الصفات التي تحدثنا عنها آنفاً أن يكون صاحب سيف كبير ، أو أن يكون قد تعلم من أبيه ضبط القيثارة ، وتنسيق أنغامها — إذا كان كذلك فإنه لا يعمل قط ؛ وشرفه هو الاهتمام براحة أعضائه . ومن يظل جالساً عشر ساعات في اليوم ينال بالتجديد ضعف التقدير الذي يناله رجل آخر لم يجلس إلا خمساً ، ذلك لأنه على الكراسي تكسب النبالة .

ومع أن هؤلاء أعداء ثابتون على عداوتهم للعمل ويتظاهرون بطمأنينة فلسفية ، فإن قلوبهم غير عامرة بهذه الطمأنينة ، لأنهم دائماً عشاق . فهم أكثر رجال الدنيا رغبة في أن يموتوا ضئلياً تحت نوافذ عشيقاتهم ، والإسباني الحق إذا لم يزكم في الغرام لا يعدّ من الغزليين .

هم في أول الأمر يخلصون ، ثم يصيرون غيورين . يحرصون كثيراً على ألا يعرضوا نساءهم لخدمة جندي ممزق الجلد من الضرب ، أو حاكم هرم ، لكنهم يجلسونهم مع حديث عهد بالرهينة متحمسين في العبادة يفضّل بصره عنهم ، أو فرنسيسكانيّ قوى يثني عليهم .

إنهم يعرفون أكثر من غيرهم ضعف النساء ، فلا يودّون أن يرى أحد كعب المرأة ، أو يختلس نظرة إلى أطراف أقدامها : إنهم يعرفون أن الخيال يسترسل دائماً ، ولا شيء في طريقه يلهمه عن الاسترسال ، ثم يصل ، ومن هنا يكون الإنذار في بعض الأحيان مقدماً .

يقال في كل مكان إن آلام الحب قاسية ، وهي أقسى بالنسبة للإسبانيين : فالنساء يشفيهن من آلامهم ، لكنهن لم يفعلن إلا تغيير آلام بآلام ، ويبقى لهم دائماً ذكريات طويلة المدى مؤلمة لهُوى قد خبت ناره .

إن لهم مجاملات يسيرة تبدو في فرنسا ممجوجة : فمثلاً ، لا يضرب قائد جنديهِ أبداً دون أن يطلب منه أن يسمح له بذلك ، ومحكمة التفتيش لا تحرق كافراً أبداً دون أن تقدّم إليها اعتذارها .

والإسبانيون الذين لا يُحرقون يظهر تعلقهم بمحكمة التفتيش لدرجة أنهم يسخطون إذا حرّموا منها : ولأن أودّ لو أن محكمة أخرى أنشئت لا لتكون حرباً على المارقين ، بل لتحارب المبتدعين الذين يعطون بعض أعمال الرهينة الهيئته قوّة كقوّة الأسرار السبعة ، والذين يعبدون كل ما يمجّدون ، والذين بلغوا في النسك درجة جعلتهم مسيحيين ولم تدخل المسيحية قلوبهم .

يمكنك أن تجد الذكاء والتعقل عند الأسبان ، ولكن لا تبحث .
 عنهما مطلقاً في كتبهم . انظر في مكتبة من مكتباتهم تجد الروايات
 في ناحية ، والكتب المدرسية في الناحية الأخرى : وستحكم بأن أقسامها
 كوت ، وأن عدواً خفياً للعقل الإنساني قد جمع أجزاءها .

والكتاب الوحيد الجيد من كتبهم هو الذي يعرض مهازل غيرهم
 من الناس .

لقد كشفوا كشافاً هائلاً في الدنيا الجديدة ، ولكنهم لم يعرفوا إلى
 الآن قارتهم نفسها . إن على ضفاف أنهارهم جسراً لمنا يكشفوه ، وفي
 جبالهم أقوام لا يزالون يجهلونهم .

إنهم يظنون أن الشمس تشرق وتغرب في بلادهم ، ولكن ينبغي أن
 يقال أيضاً إنها في سيرها لا تمر إلا على حقول خربة ، وأقطار خاوية .

لن يسوءنى — يا أوزبك — أن أرى رسالة كتبها في مدريد إسباني
 رحل إلى فرنسا ، لأنى أعتقد أنه سينتقم تماماً لأمته . أى ميدان واسع
 لرجل بارد مفكر ! إنى أتخيل أنه سيدأ هكذا وصف باريس :

« هنا منزل يوضع فيه المجانين : يظن أولاً أنه أكبر منزل في المدينة ،
 لا : إن الدواء قليل جداً بالنسبة للألم ، ولا شك في أن الفرنسيين
 المفضوحين إلى أقصى حد لدى جيرانهم حبسوا بعض المجانين في منزل
 ليقنعوا الناس بأن الذين في خارجه ليسوا مجانين . »

والى هنا أدع الأسباني . وداعاً يا عزيزى أوزبك .

من باريس فى ١٧ من صفر سنة ١٧١٥

الرسالة التاسعة والسبعون

من كبير النحويين الأسود إلى أوزبك في باريس

لقد جلب الأرمن إلى القصر أمس جارية جركسية ، ورغبوا في بيعها ، فأدخلتها في المقاصير المستورة ، وفحصتها بالعين الناقدة ، فبدت مفاتيها كلها أمعنت في فحصها . وكأن — حياءها العذري — أراد أن يخفي مفاتيها عن ناظري ا ورأيت ما تكابده لطاعتي ، إنها تحمر خجلا حين فحصي لها . وخادمك المحتشم في تصرفاته المطلقة ، لا ينظر إلا نظرات عفيفة طاهرة ، ولا يستشعر إلا البراءة .

وما فرغت من فحصها حتى رأيتها جديرة بك ، فغضضت طرفي عنها ، وألقيت عليها معطفاً قرمزيّاً ، ووضعت في إصبعها خاتماً ذهبياً ، وجثوت تحت قدميها كأنها ملسكت فؤادك ، ونقدت الأرمن ثمنها ، ثم أخفيها عن كل العيون . ما أسعدك يا أوزبك ! إنك تملك من الجمال ما لا تحويه جميع القصور ببلاد المشرق . أيّ مسرة تحدها عند عودتك إذا رأيت لديك ما يفتن فارس كلها ! وأن تجد المفاتيح تتجدد في قصرك كلها حاول الزمان والملكية أن يقضيا عليها .

من قصر فاطمة في غرة ربيع الأول سنة ١٧١٥ .

الرسالة الثامنة

من أوزبك إلى رعدى فى فيليس

رأيت منذ وجدت فى أوربا — يا عزيزى رعدى — حكومات شتى
ولست الحال فيها كما هى فى آسيا حيث يسود فى جميع أرجائها أصول
واحدة للسياسة .

وكثيراً ما فكرت فى نفسى لاهتدى إلى معرفة أى الحكومات أحكم
وقد بدالى أن أكملها هى التى تحقق أهدافها بأقل التكاليف ، بأن تسوس
الناس سياسة توافق ميولهم وأهواءهم .

وإذا خضع الشعب لحكومة رفيقة ، كما يخضع لحكومة قاسية ،
فإن الحكومة الأولى أفضل ، لأن سلوكها أرشد ، ولأن القسوة وسيلة
لا تلائم الحكم .

وليكن فى تقديرى — يا عزيزى رعدى — أن تفاوت العقوبات فى
قسوتها لا أثر له فى طاعة القوانين فى دولة من الدول ؛ ففي البلاد ذات
العقوبات المعتدلة يخشى الناس القوانين كما يخشونها فى البلاد ذات العقوبات
الجاررة الرهيبة .

وسواء أكانت الحكومة رفيقة أم قاسية ، فإن العقوبات دائماً على
درجات ؛ فالعقوبة الشديدة للجريمة الكبيرة ، والعقوبة الهينة للذنب

الصغير . وتقدير العقوبة عند الناس يخضع لعادات البلاد التي يعيشون فيها : فالحكم بالحبس ثمانية أيام ، أو بغرامة يسيرة تزعج نفس أوربيّ عاش في بلاد ذات حكم رفيق كما يزعج آسيويّ لقطع ذراعه . وترتبط درجة الخوف بنسبة العقوبة ، وكل جنس يتلقى العقوبة نفسها بطريقته : فالعقوبة التي تحدث الجزع من الخزي عند فرنسيّ ، لا تؤرّق تركيّاً ربع ساعة .

ومع ذلك لا أرى النظام والعدالة والإنصاف ترعى في تركيا وفارس وبلاد المغول أكثر مما ترعى في الجمهورية الهولندية وفينيس وإنجلترا نفسها، ولا أرى ارتكاب الجرائم فيها أقل ، ولا أرى الناس وهم 'مفزعون' فيها بالعقوبات الشديدة أكثر احتراماً للقوانين .

وعلى عكس ذلك ألحظ في هذه الدول نفسها ، مصدراً للظلم والتمرد . وأجد الملك نفسه ، وهو مصدر القانون ، أقل سيادة منه في البلاد الأخرى .

وفي الأوقات العصيبة ، تبدر حركات فوضوية لا يتزعمها أحد ، وإذا حدث أن اجتريّ على السلطة العاتية ، فلن يستطيع أحد أن يستعيد سلطانها .

إن إهمال القصاص يلائم الفوضى ، ويزيدها . وما أتعس آثاره !

وفي هذه الدول لا تنشأ ثورات صغيرة ، وليس بين الهمس والشغب زمن ما .

وليس من الضروري أبداً أن تكون الحوادث الجسام فيها نتيجة لأسباب كبيرة ، بل على العكس من ذلك ، قد تحدث ثورة كبيرة من حادث

همين ، وتكون — في أغلب الأحوال — غير متوقعة لا من يشيرونها ،
ولا من يقاسون آثارها .

قد خلع عثمان^(١) امبراطور تركيا ، ولم يكن أحد من سبب هذا الخلع
يفكر في أن يجنى عليه هذه الجناية ، وإنما طلب الناس العدل في حادث
خطير ، فارتفع من بين الجمع — بلا قصد — صوت لم يكن معروفاً قط ،
ونطق باسم مصطفى ، فصار مصطفى على الفور سلطاناً .

من باريس في ٢ من ربيع الأول سنة ١٧١٥ الميلادية .

(١) عثمان خان الثالث الذي خلفه مصطفى خان الثالث سنة ١١٧٩ - ٧٠٧ م

الرسالة الحمادية والثمانون من نعيم سفير فارس في بلاد المسكون إلى أوزبك في باريس

ليس بين الشعوب — يا عزيزي أوزبك — من يفوق شعب التتار في مجده أو في عظم فتوحاته . هذا الشعب بحق هو سيد العالم ، وكأن سائر الشعوب خلقت لخدمته .

وهو إلى ذلك مؤسس الإمبراطوريات وهادماها ، وفي كل زمان أظهر دلائل سلطانه على الأرض ، وفي كل عصر كان هو وباء الشعوب . وقد انتصر التتار على الصين مرتين ، ولا تزال خاضعة لسلطانهم . وهم يسيطرون نفوذهم على البلاد المتزامية الأطراف التي تكون الإمبراطورية المغولية .

وقد حكموا الفرس فتربعوا على عرش قورش وكشتاسب وقهروا المسكون . وفتحوا — تحت اسم الأتراك — فتوحات عظيمة في أوروبا وآسيا وإفريقية وسيطروا على هذه الأجزاء الثلاثة من العالم .

ولإذا عدنا إلى الماضي البعيد وجدنا بعض الشعوب التي أسقطت الإمبراطورية الرومانية قد انحدرت من شعب التتار .

وأي فتوحات الإسكندر من فتوحات جنكيزخان ؛ إن هذا الشعب

المظفر لا ينقصه إلا المؤرخون الذين ينوّهون بما أتى من عجائب .
كم لهم من أعمال خالدة ضاعت في طيّ النسيان ! وكم من ممالك أقاموها
لا ندري الآن أصلها ! هذا الشعب الغازي ، الفخور بحاضره فقط ، الواصل
بالنصر في كل زمان كان لا يفكر مطلقا في أن يفخر في مستقبله بذكريات
نصره في غابر أيامه .

من موسكو في ٤ من ربيع الأول سنة ١٧١٥ .

الرسالة الثانية والثمانون

من ربكا إلى إلمين في أزمير

بالرغم من أن الفرنسيين يتسكلمون كثيراً فإن من بينهم نوعاً صامتاً من الرهبان من أتباع ماربرونو . ويقال إنهم يقطعون ألسنتهم لدى دخولهم الدير . وكم يتمنى الناس أن يطرح سائر الرهبان بدورهم كل ما لا فائدة فيه لمهنتهم .

وفيما يتعلق بهؤلاء الرهبان الصامتين ، نجد قوماً أعجب منهم بكثير ولهم موهبة تفوق المؤلف بكثير : أولئك هم الذين يحسنون الكلام دون أن يقولوا شيئاً والذين يتفكّهون بالحديث طيلة ساعتين ، دون أن يتمكن إنسان من أن يعرف مغزى حديثهم أو ينقل بعض كلامهم أو يحفظ كلمة مما قالوا .

هذا النوع من الناس معبود النساء ، لكنهم مع ذلك لا يبلغون درجة أولئك الذين منحتهم الطبيعة موهبة محبوبة هي الانسجام في كل مناسبة ، أعني في كل لحظة .

كما يتصفون بمزية أخرى . هي أن يبدووا في سرور الموافقة على كل ما يقوله النساء .

ولكنهم يصلون إلى قمة الذكاء حين يكيفون كل شيء في لباقة ويستنبطون من الأشياء المألوفة ألواناً كثيرة تنصف بالبراعة الشديدة .

وأعرف من الناس قوما آخرين يدخلون في أحاديثهم أشياء لا حياة فيها: حين يتحدثون عن ثيابهم الموشاة أو شعورهم المستعارة الشقراء أو عن علبة السعوط أو عن العصا أو عن قفازاتهم ، ويفضل أحدهم أن يبدأ حديثه عن الشارع وجلبة العربات أو المطارق التي تدق بشدة على الباب ليصغى الناس إليه . وهذه هي مقدمة تدلنا على سائر الحديث . وحينما تكون المقدمة جميلة فإنها تجعل جميع الحماقات التي تسرد بعد ذلك محتملة ومن حسن الحظ أن تأتي هذه الحماقات متأخرة كثيراً .

وإني أؤكد لك أن هذه المواهب الضئيلة التي ليس لها شأن عندنا تؤدي لأولئك الذين يتحلون بها أجل الخدمات ، حتى إن الرجل الرشيد لا يتألق مطلقاً أمام تلك الأنواع من الناس .

من باريس في ٦ من ربيع الآخر سنة ١٧١٥ .

الرسالة الثالثة والثمانون

من أوزبك الى رعدى فى فينيس

عزيزى رعدى: إذا كان هناك إله ، تحتم أن يكون عادلا .

والعدالة صلة توافقي يرتبط بها فى الواقع شيان . وهذه الصلة ثابتة دائما عند كل كائن يقدرها ، سواء أكان إلها ، أم ملكا ، أم إنسانا .

وفى الحق إن الناس لا يراعون دائما تلك الصلات وكثيرا ما ينصرفون عنها إذا فطنوا إليها ، لأنهم يؤثرون دائما مصلحتهم الذاتية والعدالة ترفع صوتها ، لكنهم لا يكادون يسمعون صوتها وهم فى غمار شهواتهم . والناس لا يرون بأسا فى ارتكاب المظالم إذا هى حققت منافعهم ، لأنهم يؤثرون لإرضاء نفوسهم على رضا سواهم . ولا يكون أحد شريرا بلا مقابل وهم لا يسعون إلا إلى منفعتهم الذاتية . بل لابد من سبب يحدد سلوكه ، وهذا السبب دائما هو المنفعة الذاتية .

وهذا يارعدى ما جعلنى أفكر فى أن العدالة أزلية ، ولا تتعلق مطلقاً بما تواضع عليه الناس ، لأنها لو اتبعت أهواءهم لكانت حقيقة مرة ينبغى لها أن تختفى من تلقاء نفسها .

إنه يحيط بنا أناس أقوى منا ، يستطيعون أن يسيثوا إلينا بشتى الصور ، وفى أغلب الأحيان لا يقعون تحت طائلة العقاب . وأى راحة لنا فى أن نعرف أن فى قلوب هؤلاء الناس عاملا داخليا يكافح من

أجلنا ويحمينا مما يدبرون لنا من أفعال ! وبدون ذلك يكون لزاماً أن
نظل في خوف دائم ، ونمر أمام الناس كما نمر أمام السباع . ولا نطمئن
لحظة على حالنا وسعادتنا وحياتنا .

أى رضا يحسه الإنسان إذا اختبر نفسه فوجد له قلباً عادلاً ! وهذا
السرور وإن تطلب منه مشقة فإنه يسعده ، لأنه يسمو بالمرء عن منازل
هؤلاء الذين تجردوا منه ويُنزّله عن أن ينحط إلى درك الوحش من
نمور وديبة . نعم يارعدى لو أئى على ثقة بأن أرفعى الإنصاف دائماً —
وهو نصب عيني — لكنت خير الناس جميعاً .

باريس في غرة جمادى الأولى سنة ١٧١٥ الميلادية .

الرسالة الرابعة والثمانون من ريكالي

كنت أمس في الانفاليد ، ولو كنت ملكا لكان أحب إليّ أن أكون
مؤسس هذا البناء من أن أربح ثلاث معارك . إن المرء يجد في كل جانب
من جوانبه يداً لملك عظيم . إنني أعتقد أنه أولى مكان بالإجلال على
ظهر الأرض .

يا لها من روعة أن ترى في مكان واحد نجماً لكل ضحايا الوطن
الذين لم يعيشوا إلا للدفاع عنه ، والذين كانوا يشعرون شعوراً واحداً
بجبه وإن اختلفوا في القوة ، ولا يشكون شيئاً إلا ما هم فيه من عجز عن
بذل مزيد من التضحية من أجل الوطن !

وأى شيء أدعى إلى الإعجاب من رؤية هؤلاء المحاربين الضعاف في
هذا المأوى يرعون نظاماً ما في دقة النظام الذي كانوا يلتزمونه وهم يواجهون
عدواً ، ويلتمسون بتمية الرضا النفسى من هذه الصورة الحربية ، ويوزعون
قلوبهم وأرواحهم بين الواجبات الدينية وواجبات الفن الحربى !

وددت لو سجلت أسماء الذين يموتون في سبيل الوطن في سجلات
تحفظ في المعابد لتكون منابع للفخر والشرف .

في باريس في ١٥ من شهر جمادى الأولى سنة ١٧١٥ .

الرسالة الخامسة والثمانون من أوزبك إلى ميرزا في أصفهان

أنت تعرف يا ميرزا أن بعض وزراء الشاه سليمان قد دبروا أمراً هو أن يكرهوا الأرمن الفارسيين على مغادرة المملكة إلا أن يُسلّموا معتقدين أن دولتنا ستظل نجسة ما بقي في أحضانها هؤلاء الكافرون .
وما يؤثر في عظمة فارس ، أن يصنى إلى التدبّر الأعمى في هذا الشأن .

ولم يدر أحد عيب هذا الاقتراح ، ولا سوء نتائجه ، لا الذين اقترحوه ولا الذين عارضوه ، ولكن المصادقة هي التي قادت إلى التعقل وحسن السياسة ونجحت الإمبراطورية من خطر هائل كان جديراً أن يقودها إلى خسارة تعدل الهزيمة في معركة ، أو احتلال مدينتين من البلاد .

اعتقد الناس أنه بالتعسف مع الأرمن والامر بطردهم بلا جريرة سيقضى على التجار وعلى معظم المهرة من صناع الدولة . وأنا على يقين من أن الشاه عباس العظيم يؤثر أن تقطع يده على أن يوقع أمراً كهذا ؛ فيقدم للبغول أو لملوك الهند أفضل الصناع من رعيته ويعتقد أنه بذلك ينزل عن نصف إماراته .

إن مسلمينا المتحمسين ، اضطهدوا المجوس ، فاضطروهم إلى أن ينزحوا أفواجا إلى الهند ، غرمت بذلك بلاد الفرس من هذه الطائفة الكادحة

العامة ، التي يرجع إليها الفضل في التغلب على جذب أراضيها .
ولم يبق للدين وأهله إلا عملية واحدة : هي القضاء على الصناعة وبذلك
تنهار الدولة من تلقاء نفسها ، ويتبع انهيارها كنتيجة محتومة انهيار هذا
الدين نفسه من حيث أريد له الازدهار العظيم .

إذا لزمنا التفكير من غير تسلط فكرة سابقة علينا فليت شعري
أيسكون من الخير — يا مرزا — تعدد الأديان في دولة واحدة ؟

ومما يشاهد أن الذين يعيشون في ظلال أديان متسامحة يكونون
— عادة — أكثر نفعاً لوطنهم من الذين يعيشون في ظل دين واحد
متسلط على ما سواه ، لأن الناس إذا لم تميزهم ألقاب الشرف ، لم يستطيعوا
أن يمتازوا إلا برفاهيتهم و ثرائهم الذي يقبلون على جمعه بعملهم ،
وباضطلاعهم بالأعباء الجسام في المجتمع .

ولأن الأديان كلها تحتوى على مبادئ نافعة للمجتمع ، فمن الخير أن
نرعاها متحمسين لها ، وأى شيء يزيد في التحقق لها مثل كثرتها ؟

إن المتنافسين لا يتسامحون ، وتسرى الغيرة إلى أفرادهم ، وكل
يتعصب لمذهبه ، ويخشى أن يفعل من الأشياء ما يחדش شرف حزبه ،
أو يعرضه لاحتقار الحزب المنافس له ، ولنقده الذي لا يعرف الغفران .

كما يشاهد أنه إذا طرأ مذهب جديد على بلد من البلاد فإن ذلك يكون
الوسيلة الفعالة لإصلاح ما فسد من المذهب القديم .

ومهما قيل من أنه ليس من مصلحة الملك أن يقبل تعدد الأديان
في دولته ؛ فإنه حينما تأتى جميع مذاهب الدنيا ، تلتئم فيها ، ولن يصيبه من

ذلك أى أذى ، لأنه ليس من المذاهب إلا ما يوصى بالطاعة ، ويحض على الإذعان .

إنى أعتزف بأن التاريخ مملوء بالحروب الدينية ، لكن ينبغى ألا يغيب عنك أن تعدد الأديان لم يكن سبباً لها ، لكنها روح التعصب التى تهيج نفوس الذين يؤمنون بسمو دينهم على سائر الأديان .

بهذه الروح تسلط اليهود على غيرهم ، ومنهم انتقلت العدوى كوابل شامل إلى المسيحيين والمسلمين^(١) . هذه الروح المريضة لا يمكن أن يعتبر نجاحها إلا أفولاً كاملاً للعقل الإنسانى .

وبما أن التسلط على ضمائر الناس لا يخالف الإنسانية إذا لم ينشأ عنه آثار سيئة ، يترتب عليها شرٌ مستطير ، لذلك يحق للبر أن يتهوس فى بيان رأيه . وإن الذى يريد منى أن أغير دينى لا يفعل ذلك بلا شك - إلا لأنه لا يغير دينه إذا حمل على ذلك : ويجد غريباً ألا أفعل شيئاً لا يفعله هو ولو أعطى ملك الدنيا .

باريس فى ٢٦ من جمادى الأولى سنة ١٧١٥ .

(١) الاسلام يأبى التعصب للدين والإكراه فيه بنص القرآن الكريم : « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغي . » ويحض على الرفق فى الدعوة إليه ، بقول الله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن . »
المراجع

المرثاة السادسة والثمانون

من ريكا إلى

يبدو أن الأسر هنا تحكم نفسها بنفسها ، فليس للزوج إلا ظل من السلطان على زوجته ، وكذلك للأب على أبنائه ، والسيد على عبيده . وتضطرب العدالة في جميع منازعاتهم ، ولتأكد من أنها دائماً ضد الزوج الغيور ، والأب الحزين ، والسيد الذي لا يجد الراحة .

وقد ذهبت أمس إلى المكان الذي يتولى القضاء ، وقبل الوصول إليه ينبغي أن يمر المرء مسلحاً بعدد لا نهاية له من تاجرات العرض الصغيرات اللاتي يدعونك بصوت مختل : هذا منظر ضاحك في أول الأمر ، لكنه يصير محزوناً عندما يدخل المرء الردهة الكبرى حيث لا يرى إلا أناساً ثيابهم أكثر وقاراً من وجوههم . وأخيراً يدخل الإنسان في المكان المقدس الذي تكشف فيه جميع أسرار الأسر ، أو الذي يصبح فيه أخفى التصرفات مكشوفة في وضع النهار .

فهناك فتاة حية تعترف بما عانت من صراع نفسي . ويتضائل نغرها لأنها مهددة دائماً بهزيمة قريبة . ولتلا يجهل أبوها حاجاتها تعرضها أمام الناس جميعاً .

وثمة امرأة وقحة تعرض السباب الوقح الذي وجهته إلى زوجها كبرر لفراقها .

وهناك أيضاً عدد لا حصر له من الفتيات اللاتي سقطن أو غررن
جعلن الرجال أسوأ كثيراً مما هم عليه . والعلاقة الجنسية تدوى في
هذه المحكمة ، إذ لا يسمع فيها إلا آباء أزيجهم الغضب ، أو فتيات مخدوعات ،
أو عشاق خائنون ، أو أزواج محزونون .

ويعتضى القانون المرعى فيها ينسب كل طفل يولد في أثناء الزواج
إلى الزوج ؛ ومهما أقيمت الأدلة الراجعة على ألا يعتقد ذلك ، فإن القانون
يعتقده ، ويريح الزوج من الاختبار والشكوك .

وفي هذه المحكمة تؤخذ أغلبية الأصوات ، ولكن المعروف بالتجربة
أن الأولى أن يعول على الأقلية . وهذا قد يكون طبعياً : لأن النفوس
المنصفة قليلة جداً . وجميع الناس متفقون على أن للمحكمة عيوباً
لا حصر لها .

من باريس في غرة جمادى الآخرة سنة ١٧١٥ .

الرسالة السابعة والثمانون

من ريكا إلى

يُقال : إن الإنسان مدنيّ بالطبع ، وعلى هذا الأساس يدّوى أن الفرنسيّ أمعن الناس في إنسانيته ، لأنه بتفوقه كأنه لم يخلق إلا للجمع . غير أني لحظت من بينهم أناسا ليسوا اجتماعيين فحسب ، بل عالميين ، فهم يكثرون في جميع الأرجاء ، ويعمرون أحياء المدينة الأربعة في لحظة واحدة ، إن مائة رجل من هذا النوع يعمرون الأرض أكثر من ألف . إنهم يستطيعون أن يستروا عن أعين الأجانب ما أهلكه الوباء أو المجاعة من بني وطنهم . إنهم دليل يثبت القضية التي وضعتها الفلاسفة وصارت موضع جدل في المدارس وهي : هل من الممكن أن يكون جسم ما في لحظة بعينها في عدة أماكن ؟ إنهم في حركة دائبة ، لأنهم مهتمون وما اهتمامهم إلا أن يسألوا كل من يرونه : إلى أين ؟ ومن أين ؟

ولا يمكن أن ينزع من رؤوسهم أنه من المستحسن أن يزوروا الناس كل يوم بالتجزئة من غير حساب للزيارات التي يزورونها لهم بالجملة في أماكن اجتماعهم وهم لا يحسبونها لأن طريقهم إليها ميسر ، وبذلك تقضى مراسيمهم التي يرفعونها . إنهم أكثر طرقا للأبواب من الرياح والأعاصير . ولو فحصت القوائم التي لدى البوابين لوجدتها كل يوم عامرة بأسمائهم التي كتبت بأشكال شتى وحروف سويسرية .

إنهم يقضون حياتهم في السير وراء جنازة ، أو في مجاملات التعزية ،

أو في التهانى بالزواج ، ولم يمنح الملك أحدا من رعاياه منحة وإن كانت
عربة يذهب بها إليه معبرا عن سروره . وعلى الجلة فهم يعودون إلى
منازلهم مكشوفين ، فيستريحون ليستأنفوا في غدهم أعمالهم المرهقة .

وفي يوم ما مات أحدهم من الإعياء فوضعت على قبره هذه المراثية :
« هنا استراح من لم يسترح أبدا . لقد سار خلف ثلاثين وخمسمائة
جنازة ، وبشّر بمولد ثمانين وستمئة ألفين من الأطفال . وبلغ ما أنفقه
في تهنئة أصدقائه بعبارات مختلفة مليونين وستمئة ألف جنيه ، وبلغ
ما قطعه من الطرق العامة ستمئة وتسعة آلاف ستاد ، وقطع في الريف
ستة وثلاثين ألف ستاد^(١) .

« كان حديثه مسليا ، إذ كانت ذخيرته ٣٦٥ قصة ، ويعى من صغره
١١٨ كلمة مأثورة أخذها عن القدماء ليستغلها في مناسباتها ، وأخيرا مات
في الستين من عمره . وهنا أمسك عن القول وإلا فكيف أستطيع أن
أخبرك أيها المارّ بكل ما فعل ، وبكل ما رأى ؟ »

في باريس — في ٣ من جمادى الآخرة سنة ١٧١٥ .

(١) ستاد = ٦٠٠ قدم

الرَّسَالَةُ الثَّامِنَةُ وَالْثَمَانُونَ

من أوزبك إلى رعدى فى فينيس

تسود باريس الحرية والمساواة ، لذلك ليس للنسب ولا للفضيلة ولا للمكانة الحربية ، ولا للشهرة أيًّا كان سببها ، أن تحمى فردا من أن يذوب فى غُمار الناس . والحسد الناشئ عن تفاوت الطبقات غير معروف فى هذه المدينة ، وأوجه الرجال فى باريس مثلا من يجرّ عربته خير الجياد .

والعظيم فيها من يحظى بلقاء الملك ويتحدث إلى الوزراء ، أو ينحدر من نسب عريق ، أو بمقدار ديونه ونفقاته . وأسعد هؤلاء جميعا من يستطيع أن يخفى فراغه بما يبيديه من تعجّل ، أو الذى ينجح فى التظاهر بأنه من أصحاب اللذات والمتع . أما فى فارس فليس عظيما فيها إلا من استحق أن يكل الملك إليه منصبا خطيرا فى الحكومة .

وفى فرنسا عظماء ببيوتهم وإن كانوا لا يملكون مالا ، والملوك كالصناع المهرة يستغلون أيسر الآلات لإنجاز أعمالهم .

والحظوة لدى الملك هى المعبود الأعظم عند الفرنسيين والوزير كاهنها الأعظم الذى يقدم كثيرا من الضحايا ، وأعوانه — الذين يحيطون به ولا يلبسون البياض — يقدمون أحيانا الضحايا من غيرهم ، وأحيانا أخرى يضخّون بأنفسهم ، ويستسلون مع سائر الشعب لصنمهم المعبود .
فى باريس فى ٩ من جمادى الآخرة سنة ١٧١٥ .

الرسالة التاسعة والثمانون

من أوزبك إلى ابن في أزمير

الطموح إلى المجد لا يختلف مطلقاً عن غريزة حب البقاء عند جميع
المخلوقات . ويبدو أننا نزيد في كياننا إذا نحن استطعنا أن نؤثر به في
ذاكرة سوانا :

إنها حياة جديدة نحصل عليها ، وتكون عندنا غالية كالحياة التي
وهبنا الله إياها .

ولأن الناس ليسوا سواء في تعلقهم بالحياة ، فهم كذلك لا يستوون
في شعورهم بالمجد . وهذا الشعور النبيل يكون دائماً عميق الأثر في القلوب
لكن الخيال والتربية يكتيفانه بصور شتى .

وهذا الخلاف كما يكون بين رجل ورجل ، يكون قائماً بشكل أوضح
بين شعب وشعب .

ويمكن وضع مبدأ ثابت : هو أن الرغبة في المجد في كل دولة تزداد
مع حرية الرعية . وتنقص بنقصها . والمجد لا يصاحب العبودية أبداً .

وقد حدثني رجل رشيد فقال : إن الإنسان في فرنسا أكثر حرية منه
في فارس لاعتبارات شتى ، لذلك كان أكثر حباً للمجد . وهذا الخاطر
السعيد يدفع الفرنسي إلى أن يعمل في سرور واستساغة ، وهذا لا يناله

سلطانك من رعيته إلا إذا وضع دائماً نصب أعينهم أقصى العقوبات
بجنب المكافآت .

وعتدنا كذلك يحسد الملك أقل رجل من عامة رعيته على ما يناله
من شرف . والذي يحافظ على هذا الشرف محاكم مبدلة ، هي كنز الأمة
المصون ، لأنها الشيء الوحيد الذي ليس للملك سلطان عليه ، ولا يهين
عليها إلا إذا أضر بمصالحه . وهكذا إذا أحسن أحد أفراد الشعب أن
الملك خدش شرفه سواء كان ذلك بمحاباة أحد دونه ، أو بأقل أمانة تدل
على الازدراء فإنه يغادر بلاطه من فوره ، ويترك وظيفته ، وخدمته ،
ويلزم بيته .

والفرق بين جند الفرنسيين وجندكم ، أن جندكم من عبيد جناء
بطبيعته الحال فلا يتغلبون على الخوف من الموت إلا باللقاب ، وهذا
يحدث في نفوسهم نوعاً جديداً من الفرع يجعلهم كالشدودين ، على حين
أن الجنود الفرنسيين يقبلون على المعارك بلذة ، ويسمو رضاهم على
الخوف فيقضى عليه .

ويبدو أن محراب الشرف ، والشهرة ، والفضيلة لا يقوم إلا في
الجمهوريات وفي البلاد التي يستطيع الإنسان فيها أن ينطق بكلمة الوطن :
ففي روما وأثينا وأسبرطة لا ينال الشرف إلا بالخدمات الجديرة بالتنويه .
وتاج من أنصان البلوط أو الغار ، أو تمثال أو ثناء ، يعتبر مكافأة عظيمة
لحسب معركة حربية ، أو للاستيلاء على مدينة .

وهناك إذا عمل الرجل عملاً جميلاً وجد مكافأته المرضية أنه عمل
هذا العمل . لأنه لا يرى أحداً من مواطنيه إلا وهو يحس أنه أحسن إليه
فكان كل خدمة من خدماته تتعدد بتعدد مواطنيه .

كل شخص أهل لأن يفعل خيراً بإنسان آخر ، لكنّ أشبه الناس
بالآلهة أولئك الذين يُشيعون السعادة في مجتمع بأسره .

أليس لزاماً أن تنطفئ انطفاء تاماً هذه المنافسة الشريفة في فعل الخير
في قلوب رجالكم الفارسيين ؟ أى في البلد الذى لا تمنح فيه المناصب
والرتب إلا ضريبة هوى الملوك ؟ حيث الصيت والفضيلة تعتبر أشياء
وهمية إذا لم تكن مصحوبة بالخطوة لدى الملك فتوجد بوجودها ، وتموت
بموتها ؛ فالرجل الذى ينال التقدير العام اليوم ، لا يأمن أن يُخدش شرفه
غداً : فهو اليوم قائم للجيش ، وغداً قد يجعله الملك طباخاً له ، ثم لا يبقى
له أمل في الشئ إلا إذا صنع له طعاماً لذيذاً طهاه بالتوابل .

من باريس في ١٥ من جمادى الآخرة سنة ١٧١٥ .

الرسالة التسعون

من أوزبك إلى الشخص نفسه في أزمير

بهذا الشغف العام بالمجد لدى الشعب الفرنسي تكون في روح أفراده شيء ما لا أدريه : يسمى مبدأ الشرف ، وهو الطبيعة الملازمة لكل ذى مهنة ، ولكنه يتميز بوضوح عند رجال الحرب ، فيصبح في القمة .

وإنه ليصعب علىّ جداً أن أشعرك بمداه ، لأنه ليست عندما قط فكرة محددة عنه .

وقديماً كان الفرنسيون وبخاصة النبلاء لا يتبعون أبداً سوى القوانين الخاصة بمبدأ الشرف : فهو الذى ينظم سلوكهم في الحياة ، وهو مبدأ صارم حتى إن أحدهم لا يستطيع أن يستخف به دون أن يجد لذلك المأ أقسى من الموت ، بل إنى أقول : لا يستطيع أحدهم أن يحتال ليفر من أقل شيء يفرضه .

أما ما يختص بنقض المنازعات فإنها لا تتطلب مطلقاً إلا نوعاً من قرار : هو المبارزة التى تقضى على كل خلاف ، إلا أن عيب هذا القرار أن الحكم فيه يشول غالباً إلى أشخاص ليسوا طرفاً في الخصومة .

وقد يحدث أن شخصاً يعرف آخر معرفة يسيرة . يلتزم بالدخول في نزاع بينه وبين سواه ، ويقحم نفسه في الموضوع كأنه هو الذى استغضب . ويشعر دائماً بأن اختباراً كهذا يشرفه ، وأن إثارة مثل

هذا الإيثار يملؤه سروراً . رجل كهذا لا يسمح بأن يدفع قليلاً من المال لينجى رجلاً وأسرتَه من جبل المشنقة ، ولكنه يخاطر ألف مرّة ، دون اكتراث بحياته من أجل هذا الشخص إرضاءً لقانون الشرف .

وهذه الحالة المقررة أسىء تصورها ، لأنه قد يكون شخص أمهر في الرماية ، أو أشد قوة من خصمه ، لكن ذلك لا يستلزم أن يكون أولى منه بالحق ، لأسباب أرجح . لهذا حرم الملوك المبارزة ، وفرضوا لها عقوبات صارمة — دون جدوى — لأن الشرف الذى يسود دائماً يتمرد ولا يعترف قط بالقوانين .

وهكذا نجد الفرنسيين فى حال مضطربة أشد اضطراب ؛ لأن قوانين الشرف نفسها تضطر الرجل الشريف أن ينتقم لنفسه إذا أهين ، ومن ناحية أخرى تعاقبه العدالة عقاباً قاسياً إذا هو انتقم لنفسه ؛ فإذا اتبع قوانين الشرف هلك على المقصلة ، وإذا طبّق قوانين العدالة نُفى إلى الأبد من مجتمع الرجال فلا مفر إذن للبرء من إحدى حالين كلتاها مرة : فإما أن يموت ، وإما أن يكون غير جدير بالحياة الكريمة .

باريس فى ١٨ من جمادى الآخرة سنة ١٧١٥ .

الرسالة الحمادية والتسعون

من أوزبك إلى روستان في أصفهان.

تظهر هنا شخصية متنكرة في زي سفير لفارس . هذا السفير يعيث في وقاحة بملكين عظيمين من ملوك الدنيا . إنه يحمل إلى ملك الفرنسيين هدايا من ملكنا لا ينبغي أن تقدم لأمير إيريميت أو جورجيا . وبشعته الذي يغض من جلال ملكين عظيمين .

وقد صار محلا للسخرية في عين شعب يرى نفسه أرقى شعوب أور. مدينة . وجعل الغرب يقول : إن ملك الملوك^(١) لا يحكم إلا الهمج .

وقد لقي تسكريماً كأنه يأباه لنفسه ، وكان البلاط الفرنسي يستشعر عظمة الفرس أكثر مما يستشعره هو ، إذ جعله يظهر مهيباً أمام شعب يزدربه .

لا تقل هذا في أصفهان ، واستبق بذلك رأس شقي لا أريد أن يعاقبه وزراؤنا من أجل حماقتهم هم ، إذ أساءوا الاختيار فجعلوه سفيراً .

باريس في نهاية جمادى الآخرة سنة ١٧١٥ .

(١) يريد بذلك ملك فارس . للترجم

الرسالة الثانية والتسعون من أوزبك إلى هيدى ز. ثينيس

إن الملك^(١) الذى حكم عهداً طويلاً جداً لم يعد له وجود . لقد جعل الناس يتحدثون عنه فى حياته ، وهام أولاء جميعاً قد صمتوا عند موته . لقد كان حازماً شجاعاً فى لحظته الأخيرة ، فلم يندُ مستسلماً إلا للقدَر . وهكذا مات الشاه عباس العظيم بعد أن ملأ الدنيا باسمه .

ولا تظن أن هذا الحدث الجليل لم يُحدث إلا عبرة خلقية ، إذ أن كل شخص فكر فى أعماله ، وفيما يستفيد من هذا التغير ، فالملك ابن حفيد الملك الراحل لم يتجاوز الخامسة من عمره ، وكان مقرراً أن يكون خاله الأمير وصياً على العرش .

وقد أعد الملك الراحل وصية تحدّد سلطة الوصى ، ولكن هذا الأمير اللبق عرض على البرلمان حقوقه التى يرثها عن نسبه الملكى ، فهدم ما أعدّه الملك الذى أراد أن يعيش بعد وفاته ، وحاول أن يظلّ حاكماً بعد موته .

إن المجالس النيابية أشبه بالخرائب التى يطؤها الناس بأقدامهم ، لكنها تذكر دائماً بالفكرة القائمة عن بعض المعابد المشهورة للديانة

(١) يقصد الملك لويس الرابع عشر الذى توفى فى أول سبتمبر سنة ١٧١٥ .
المراجع

القديمة للشعوب . إنها لا تهتم قط بأن تحقق العدالة . وسلطتها دائماً مضمحلة إلا إذا حدثت أمور ليست في الحسبان تمنحها القوة والحياة .

هذه الهيئات الكبيرة تبعت مقادير الأمور الإنسانية : إنها استسلمت للزمن الذي يدمر كل شيء ، وللفساد الخلقى الذى يضعف كل شيء ، وللسلطة العليا التى تقهر كل شيء . لكن الوصى على العرش الذى أراد أن يكون مقبولا لدى الشعب — أظهر فى أول الأمر احتراماً لهذه الصورة من الحرية العامة .

وبما أنه فكّر فى أن يزيل المعبد والصنم من الأرض ، فقد رغب فى أن ينظر الناس إلى البرلمان كعهد للملكية ، وكأساس لجميع السلطات الشرعية .

باريس فى ٤ من رجب سنة ١٧١٥ .

الرسالة الثالثة والتسعون

من أوزبك إلى أخيه ساتون في خلوة قزوين

إني أخشع أمامك - أيها الولي القدّيس - وأركع لك ، وأعتبر أثر قدميك كيإنسان عيني . إن طهرتك بلغ من النقاء حدّاً يجعلني أتخيل أن لك قلب نبينا الطاهر . وإن الله تعالى نفسه يعجب من زهدك وتقشفك ، والملائكة تنظر إليك من علياء مجدها ، وتقول : « كيف يظل هذا على الأرض مع أن روحه معنا تحلّق حول العرش القائم فوق السحب ؟ » .

وكيف لا أجدك ، وقد تعلّمت من شيوخنا أن الأولياء جميعاً حتى غير المخلصين منهم لهم دائماً سلوك طاهر يجعلهم مبجلين عند مخلصي المؤمنين ؟ وقد اصطنع الله من جميع أنحاء الأرض أرواحاً أصني من سواها ، وخلصها من العالم الدنس ، حتى يكون تقشفهم ، وعزوفهم عن الشهوات ، ودعواتهم الحاضرة مانعة من نزول غضب الله الذي يوشك أن ينزل على كثير من الشعوب العاصية .

إن المسيحيين يقصّون أعاجيب عن أوليائهم الأولين الذين لجئوا وهم ألوف إلى الصحارى الموحشة في جنوبي مصر ، وعلى رأسهم بولس وأنطون وپاكوم . وإذا كان ما يقولون حقاً فإن حياتهم تكون ملأى بالمعجزات كحياة أقدس أئمتنا . إنهم قضوا أحيانا عشر سنوات كاملة دون أن يروا أحداً ، لكنهم سكنوا ليلاً ونهاراً مع الشياطين وظلوا في عذاب دائم من الأرواح الخبيثة ، يحدونها في السرير ، ويحدونها على المائدة

ولا ملجأ منها . فإذا كان ذلك حقاً — أيها الوليّ المجلّـل — فينبغي أن أعترف بأنه لم يعيش أى شخص فى صحبة أسوأ من هذه الصحبة .

والمسيحيون العقلاء يرون كل هذه القصص أساطير رمزية طبيعية جداً يمكن أن نستغلها فى إدراك شقاء النوع الإنسانى .

وعبثاً نبحت فى الصحراء عن حالة من الاطمئنان : فالأهواء تتبعنا دائماً ، وشهواتنا التى توسوس بها الشياطين لاتفارقنا أبداً . وهذا المسخ للقلوب ، وهذه الأوهام التى تنسلط على النفس ، وأشباح الفرع والأكاذيب الباطلة تترامى لنا دائماً لتفتننا ، وتهاجمنا فى صيامنا ومسوحنا: أى تهجم علينا دائماً حتى فى نواحي قوّتنا .

أما أنا — أيها الوليّ المجلّـل — فأعلم أن رسول الله قيّد الشيطان بالسلاسل ، وألقى به فى الهاوية ، وطهّر الأرض التى كان يبسط عليها سلطانه ، وجعلها جديرة بأن تقيم فيها الملائكة والنبىون .

من باريس فى ٩ من شعبان سنة ١٧١٥ .

الرَّسَالَةُ الرَّابِعَةُ وَالتَّسْعُونَ

من أوزبك إلى رعدى فى فيديس

لم أسمع مطلقاً أى كلام عن القانون العام دون أن يُبدأ فيه بالبحث
بعناية عن منشأ المجتمعات : وذلك يثير السخرية فيما يبدو لى . ولو كان
الناس لا يكوّنون المجتمعات مطلقاً ، أو يهجر بعضهم بعضاً ، ويفرّ
بعضهم من بعض لوجب أن نسأل عن السبب ؛ لنعرف لماذا يظلون
متفرقين ، اكنهم ينشئون العلاقات فيما بينهم ، فالولد يولد لدى أبيه
ويظل هناك : هذا هو المجتمع ، وهذا سبب وجوده .

القانون العام معروف فى أوروبا أكثر مما هو معروف فى آسيا ،
ومع ذلك يمكن أن يقال : إن أهواء الملوك ، وصبر الشعوب ، وخلق
الكتاب يُفسدون هناك كل الأسس .

هذا القانون — كما هو الآن — علم يعلم الأمراء إلى أى حد
يستطيعون أن يطغوا على العدالة ، دون أن يسيثوا إلى مصالحهم .
أى خطة للإرادة — يارعدى — تقوى بها ضمائرهم ، ونضع للعدالة
نظاماً ، ونرسي لها قواعد . ونكوّن لها أسساً ، ونستخلص
منها نتائج ؟

إن الحكم المطلق لسلطينا العظماء ، الذى لا يقوم على قاعدة ،

لا ينتج أبداً إلا شناعات من هذا التصرف المزدول الذى يريد أن يكسر العدالة مع صلابتها الشديدة .

يقال — يارعدى — إن هناك نوعين من العدالة مختلفين أشد اختلاف : أحدهما هو الذى ينظم شئون الأفراد ، وهو الذى يقضى فيه القانون المدنى ، والآخر هو الذى يقضى فى الخلافات التى تنشأ بين شعب وشعب ، وهى التى يقضى فيها القانون العام : كأن القانون العام لم يكن هو نفسه قانوناً مدنياً . وفى الحق ليس ذلك لبلد خاص ، لكنه للدنيا كلها .

وفوق ذلك سأشرح لك أفكارى عن هذا الموضوع فى رسالة أخرى .

من باريس فى غرة ذى القعدة سنة ١٧١٦ .

الرسالة الخامسة والتسعون من أدركك إلى شخص نفسه

على القضاة أن يحققوا العدل بين المواطنين ، وعلى كل شعب أن ينصف غيره من الشعوب من نفسه ، وفي هذا النوع الثاني من العدالة لا يمكن اتباع قاعدة أخرى غير التي تتبع في الحالة الأولى .

وندر في الخلاف بين شعب وشعب أن يحتاج إلى شعب ثالث ليقضي بينهما ، لأن موضوعات النزاع في أكثر الأحوال تكون دائماً واضحة ، ومن السهل أن يفصل فيها ، لأن مصالح شعب تتميز عن مصالح شعب آخر ، ولا يحتاج من يفصل فيها إلا أن يحب العدالة فيجدها . ولا يمكن قط أن يتوقع الإنسان ما يحدث في حالته الخاصة به .

وليس الحال كذلك في الخلاف الذي ينشأ بين الأفراد ، فهم إذ يعيشون في مجتمع ، فإن مصالحهم متزجة ، ومتشابكة أشد اشتباك ، وينشأ لذلك أنواع كثيرة من الخلاف تحتاج إلى طرف ثالث يكشف الحق الذي يحاول طمع طرفي الخصومة أن يطمسه .

ليس بين الحروب ما هو حق إلا حربان : أولاهما تلك التي تكون لصدّ عدوٍّ مغير ، وأخرهما تلك التي تكون لمساعدة حليف مهاجم .

وليس من العدالة في شيء أن تقوم حرب من أجل خصومات خاصة بالملك ما لم يكن قد ارتكب هو أو الشعب ما يستحق من أجله

الموت : مثلاً لا ينبغي أن يسن الملك الحرب لأنه لم يكرم التكريم الواجب له ، أو لأن تصرفات غير مقبولة حدثت لسفرائه ، أو أي شيء يشبه ذلك . ولا ينبغي لشخص أن يقتل من يرفض صدارته في مجلس ، أو أن يتقدم في محفل ، والعقل يوجب أن يكون إعلان الحرب عملاً مشروعاً . ولتكون العقوبة على قدر الخطأ ينبغي أن نرى : هل من نعلن عليه الحرب يستحق الموت ؛ لأن إعلان الحرب ضد شخص ما معناه أننا نريد أن نعاقبه بالموت .

في القانون العام نجد أقصى تصرف للعدالة هو تقرير الحرب مادامت غايتها دمار المجتمع .

إن الثارات في المرتبة الثانية : إن لها قانوناً لا تستطيع المحاكم أن تمتنع عن مراعاته ؛ لتقيس العقوبة على قدر الجريمة .

ونوع ثالث من العدالة هو حرمان ملك من المزايا التي ينالها منا . والعقوبة فيها دائماً مناسبة للعدوان الذي ارتكب .

ورابع حالات العدالة — وهي التي يجب أن تكون أكثر شيوعاً . هي رفض التحالف مع شعب يُشكى منه . وهذه عقوبة تتجاوب مع النفي الذي تقررته المحاكم ، والذي يقضى بإبعاد المذنبين عن المجتمع ، وعلى ذلك فالأمير الذي يوقع معاهدة لا نرضيها نبعده من مجتمعنا ولا يصبح عضواً فيه .

إنه لا يمكن أن يهان أمير إهانة أكبر من أن يُرفض التحالف معه ، ولا يشرفه شيء أعظم من عقد هذا التحالف . ولا شيء مطلقاً يشعر الناس بأنهم أجد وأعظم وأنفع إلا أن يروا غيرهم يصغون دائماً بانتباه إلى أحاديثهم .

ولتربط بيننا المعاهدة يجب أن تكون عادلة : ولذلك إذا تعاقد شعبان
للعدوان على شعب ثالث فالمعاهدة غير شرعية ، ونقضها لا يعد جرماً .

وليس من الشرف أيضاً ولا من المروءة أن يتحالف ملك مع طاغية
فإنه يحكى أن أحد ملوك مصر أنذر حليفه ملك ساموس أن يترك قسوته
وبغيه وطالبه بأن يصلح سلوكه ، فلما لم يفعل ، أرسل إليه أنه ينقض
ما بينهما من مودة وتحالف .

الفتح لا يعطى بنفسه حقاً . فإذا بقي الشعب المفتوحة بلاده يعيش
كما هو . فهذا دليل على أن الفاتحين يريدون السلام ، وكأنهم بذلك
يصلحون من خطيئهم ، وإذا أهلك الشعب ، أو شئت فإن هذا دليل البغي .

إن معاهدات السلام تبلغ من القداسة مبلغاً عظيماً عند الناس كأنها
صوت الطبيعة تطالب بحقوقها . وتكون المعاهدات بأسرها شرعية ،
إذا وضعت شروطها جديرة بأن يراها الطرفان المتعاقدان . وبدون ذلك
فإن من كان من الشعبين يرى ضياعه فيها ، ومنع الدفاع الطبيعي في حال
السلام ، فإنه يدافع عن حقه بالحرب .

إن الطبيعة التي أوجدت الدرجات المختلفة من القوة والضعف بين
الناس ، سوت في أكثر الأحيان بين الضعف والقوة عند اليأس .

في باريس في ٤ من ذى القعدة سنة ١٧١٦ م

الرسالة السادسة والتسعون من كبير اخصيان إلى أوزبك في باريس

لقد أتى إلينا كثير من نساء الجنس الأصفر من مملكة فيساپور :
واشترت منهن واحدة لأخيك حاكم مازاندران الذي أرسل إلى منذ
شهر طلبه السامى ومائة جنيه عثمانى .

لقد عرفت النساء إلى درجة أنهن لا يستطعن خداعى ، ولا تؤثر فى
قلبي نظراتهن ولا تربكنى .

ولم أر جمالا بلغ من التنسيق والكمال ما بلغه جمالها ؛ إن بريق عينيها
يشيع الحياة فى وجهها . وترسل لونا من الضياء تتضاءل أمامه كل فتنة
للجراكسة .

لقد ساومنى فيها كبير خصيان تاجر إصفهانى ، لكنها كانت تتحامى
نظراته فى ازدراء شديد ، وكأنها تبحث عن نظراتى لتقول لى : إن تاجرا
خسيساً مثله غير جدير بأن يحوزها ، وأنها أعدت لزوج عظيم .

وأعترف لك أننى أحس فى قرارة نفسى سرورا خفياً حينما أفكر
فى مفاتن هذه السيدة الجميلة ، وأتمثلها داخلية قصر أخيك ، ويسرنى أن
أتكهن بدهشة نسائه جميعا : وبالألم الذى يستحوذ على بعضهن ، والجزع
الصامت — وهو أشد إيلا ما — عند الآخريات . والسلوى الخبيثة عند
من لم يعد لهن أمل فى شيء ما ، والطمع المثار عند اللاتى لا يزلن يؤملن .

سأجوب أقطار ، لمكتنا لأغير بجرأة كل شيء في القصر . أى شهوات سأثير ! وأى مخاوف وآلام سأشيع !

وبالرغم من الاضطراب في الباطن ، فلن يكون الظاهر أهذا حالا وستكون الثورات الكبرى دفينه في القلوب ، وستنتهي الأحزان . وتستمر المسرات ، ولن تكون الطاعة أقل إحكاماً ، ولا القوانين أقل صرامة ، وستظهر الدمائم اضطراباً ، بل سيبدد من خلال البأس . ونلاحظ أنه كلما زاد عدد النساء تحت أعيننا قل ما يحدثه لنا من ارتباك . وشدة احتياجهن إلى أن يكن معجبات يصعب اتحادهن ، وكلما كثرت نماذج الخضوع كان ذلك كله قيوداً لهن .

إن بعضهن يراقبن دائماً بانتباه شديد تصرفات بعض : فكأنهن على وفاق معنا ، إذ يعملن على أن يكن أكثر خضوعاً ، ويقمن بما يقرب من نصف عملنا ، ويفتحن أعيننا حينما نغمضها ماذا أقول ؟ إنهن يرن دائماً السيد ضد منافساتهن . ولا يرين كم يكن قريبات من أولئك اللاتي يعاقبن .

لكن كل هذا — يا مولاي العظيم — ليس شيئاً في غيبة السيد . فإذا يمكن أن نصنع بهذا الشيخ من السلطة التي لا تمارس أبداً ممارسة كاملة ؟ إننا لا نكاد نمثل نصف سلطتك ، إننا لانستطيع أن نظهر إلا قسوة كريهة . أما أنت فإنك تلطف الخوف بالرجاء ، وتكون أكثر خوفاً وأنت تلاطف منك حينما تهدد .

عد إذن أيها المولي العظيم : عد إلى هذه الأماكن لتنشر فيها آيات سلطتك . تعال فامنع تعللات الزلل ، تعال سكّن الحب الذي يتدمر ، واجعل الواجب نفسه محبوباً ، وأخيراً تعال لتخفف عن خصيانك المخلصين حملاً ينوون به ما مرت الأيام .

من قصر أصفهان في ٨ من ذي الحجة سنة ١٧١٦ .

الرسالة السابعة والتسعون من أوزبك إلى حسن درويش بجبل جاوران

أيها الدرويش الحكيم ذو العقل المتأمل ، المتنىء بالمعارف الكثيرة :
استمع لما أقصه عليك : هنا فلاسفة لا يصلون — في الواقع — إلى
ذروة التفكير الشرقيّ ، ولا ينجذبون إلى العرش المنير ليستمعوا إلى
تسبيح الملائكة الذي يرنّ في الملاء الأعلى ، ولا يدركون غضب الجبار ،
وهم موكولون إلى أنفسهم ، محرومون من الألفاظ الإلهية ، ويتعمون في
صمت نتائج التفكير الإنساني .

وإنك لا تصوّر إلى أيّ مدى يقودهم هذا القائد ^(١) . إنهم كشفوا
الفضاء ، وشرحوا بالميكانيكا البسيطة نظام الهندسة الإلهية . وإن خالق
الكون أعطى المادة حركتها ، فلم تعد ضرورة إلى شيء أكثر من هذا
لينشأ هذا التنوع العجيب للآثار التي نراها في العالم .

إن المشترعين العاديين يقدمون لنا قوانين لنظيم المجتمع الإنساني :
قوانين تتعرض للتغيير كتغير العقول التي تترجحها ، والشعوب التي
تتبعها . وهؤلاء الشرقيون لا يحدّثوننا إلا عن القوانين العامة الثابتة
الدائمة التي ترعى دون أي استثناء ، وتمضي في نظام وثبات وسرعة
لا حدّ لها في هذه الأكوان العظيمة الفسيحة .

(١) يريد العقل البشري .

وما تظن أن تكون هذه القوانين يا وليّ الله ؟ ستخيّل أنك داخل
في الملاء الأعلى ، وسيملكك العجب من لطف التدبير وسموّه . وستأني
— قبل كل شيء — أن تفهم ، ولن يكون منك إلا الإعجاب .

ولكنك من فورك ستغير رأيك : فكل ما ترى من الأشياء لا يبهرك
مطلقاً بجلال زائف . بل إن البساطة جعلتها غير معروفة أمدأ طويلاً ،
ولم يُعرف مدى سعتها وخصبها إلا بعد تفكير عميق : فأول حقيقة هي
أن كل جسم يأخذ في رسم خط مستقيم ما لم يقابل عقبة تعترضه فتزده .
والثانية ، وما هي إلا متممة للأولى ، هي أن كل جسم يدور حول
مركز يأخذ في البعد عنه ، لأنه كلما ابتعد الخط المرسوم عن المركز كان
أقرب إلى الخط المستقيم .

هاك — أيها الدرويش السامي — مفتاح الطبيعة ، وهاك الأسس
الخصبة التي تستنبط منها نتائج بعيدة المدى ، كما سأريك في رسالة خاصة .
إن معرفة خمس حقائق أو ستّ جعلت فلسفتهم ملأى بالمعجزات ،
وجعلتهم يأتون بالعجائب والغرائب كالتي نزوها عن أنبيائنا
عليهم السلام .

ولأنني أخيراً متأكد من أنه لا يوجد بين علمائنا من لا يرتبك
إذا طُوب بأن يزن في ميزان كل الهواء الذي يحيط بالأرض ، وبقيس
جميع المياه التي تسقط كل سنة على سطحها . كما لا يوجد من بينهم من
لا يفكر أكثر من أربع مرات قبل أن يقول : كم فرسخاً يقطعها الصوت
في الساعة ، وكم من الزمن يحتاج إليه شعاع الشمس ليصل إلينا ، وكم

طول المسافة بيننا وبين زُحل ، وأى انحناء يكون به مركب شراعى
أفضل ما يكون ؟ .

ولعل بعض الأتقياء إذا جَمَّلَ كتب هؤلاء الفلاسفة بكلمات سامية
رفيعة ومرجوها بمجازات جريئة ، وكنائيات لطيفة ، فإنه بذلك يعدّ .
كتاباً جميلاً لا يعترف بالتفوق عليه إلا للكتاب المقدس .

من باريس فى ١٥ شعبان ١٧١٦ .

الرسالة الثامنة والتسعون

من أوزبك إلى أمين في أزمير

ليس في العالم بلد يتقلب فيه أثراء كما يتقلب في هذا البلد ، ففي كل عشر سنوات تحدث ثورة تُسرع بالفتى إلى الفاقة ، وتطير بالفقير إلى أوج الفتى . فيعجب هذا لما آل إليه من الفقر ويسخط على القضاء ، ويعجب ذلك لما نال من غنى ويحمد حكمة القدر .

أن جباة الضرائب يسبحون في الأموال ، ومن بينهم قلة لا تشبع أبداً . يبدون مهنتهم وهم في أشد حالات الفاقة ، يزدريهم الناس وهم فقراء كما يزدرون الوحل ، فإذا أصبحوا أغنياء نالوا من الناس حظاً من التقدير ، ثم لا يقصرون في أى شىء ينالون به نصيباً من الاحترام .

وهم الآن من أجل ذلك في أخرج المواقف فقد أنشئت حديثاً غرفة المحاسبة المسماة (دار العدالة) وتوشك أن تسلبهم أموالهم . وهم لا يستطيعون أن يراوغوا أو يخفوا قيمة ثروتهم ، لأنهم مضطرون إلى أن يعلنوا الحقيقة أمام العدالة خوفاً على حياتهم . وبذلك صاروا في مأزق حرج ، فلما أن يختاروا المال ، وإما أن يوثروا الحياة .

ولتمّ مأساتهم أتبع لهم وزير^(١) عرف بخفة روحه شرفهم بمداعباته ،

(١) هو : آدرين موريس ، كونت دابين ، ودوق نواى ، مارشال فرنسا كان رئيساً للمجلس المالى من ١٥ سبتمبر سنة ١٧١٥ إلى يناير سنة ١٧١٨ . المراجع

وتهمكم بكل ما يدور في قاعة المحاكمة من مداولات ، ولكننا لا نجد دائماً مثل هذا الوزير الذى يعرف كيف يضحك الشعب ، وينبغى أن نغتنب بما قام به .

وطبقة الوصفاء لها اعتبار في فرنسا أكثر مما نجد لها في أى بلد آخر إنها مدرسة لكبار السادة ، إنها تملأ فراغ الطبقات الأخرى وأفرادها حلوا محل أولئك الكبار التعسفين من حكام أفلسوا ، أو سادة ماتوا في سعار الحرب ، وإذا عجزوا عن سد الفراغ بأنفسهم أنعشوا البيوت العظيمة بأن يزوجوا بناتهم فيها ، فيسكن بها أشبه بنوع من السماد الذى يخصب الأرض الجبلية القاحلة .

يا إلهين ! إنى أرى الحكمة الإلهية تحير الأبواب بطريقتها في توزيع الثروات ، فلو أنها لم تمنحها إلا للخيرين ، لما ميز الناس بينها وبين الفضيلة ، ولم يشعروا بالهوان عند الفقر . ولكن عندما يتأمل المتأمل أى الناس انهالت عليهم الثروات فإنهم لطول ازدرائهم للأثرياء سينتهى بهم الأمر إلى احتقار الثروات .

في باريس في ٢٦ من شهر المحرم سنة ١٧١٧ .

الرسالة التاسعة والتسعون

من ريكا إلى رعدى فى فينيس

أرى نزوات التجديد عند الفرنسيين تثير العجب ، لقد نسوا كيف كان زئبهم فى هذا الصيف ، ويجهلون ما عساه يكون فى الشتاء . ولا يستطيع أحد أن يتصور كم يتكلف تغيير الزى زوجا يحرص على أن تكون زوجته مسيرة لذوق العصر ، ماذا يعينى على أن أصف لك بدقة زئبهم وزيتهم فإن زياً جديداً يظهر يهدم كل ما أبنى . وقبل أن تصل إليك رسالتى قد يتغير الزى كما يتغير الحال .

إن امرأة غادرت باريس لتقيم ستة أشهر فى الريف ثم عادت فى زياها العتيق كأنها قضت هناك ثلاثين عاماً . فلم يتبين ابنها ملامحها لأن زياها بدا له غريباً . فظنها إحدى الأمريكيات . أو أنها صورة عبر بها رسام كما يشاء عن خيال من أخيلته .

أما تصفيف الشعر فأحياناً يصف إلى تلو هائل ، ثم تدعو ثورة التجديد فجأة إلى أن يصف نازلاً ، وفى الحالة الأولى يكون وجه المرأة مكان وسطها ، وفى الحالة الثانية تحتل القدمان هذا المكان ، والكعبان يرتفعان حتى يجعل المرأة كالمعلقة فى الهواء .

ومن يستطيع أن يصدق أن المهندسين المعماريين اضطروا فى كثير من الأحيان إلى أن يرفعوا الأبواب أو يخفضوها أو يوسعوها تبعاً لحلية

النساء التي تتطلب منهم دائماً التغيير ، وإخضاع قواعدهم لهذه النزوات؟

ويرى المرء أحياناً وجهاً مزيناً بعدد من النقاط الملونة ثم لا يراها في اليوم التالي . لقد كان حسن المرأة قديماً بجهاً قدها ، وشفاء أسنانها ، أما الآن فلا اعتبار لذلك . ومهما وجه إلى هذا الشعب المتقلب الأحوال من تهكم لاذع . فإن الفتيات الآن يتزوجن على طريقة تخالف الطريقة التي تزوج عليها أمهاتهن .

إن من أنماط الحياة وأسلوبها ما يشبه تغير الأزياء تماماً . فالفرنسيون يغيرون أخلاقهم تبعاً لعمود ملوكهم . والمملك نفسه يستطيع أن يجعل الشعب جاداً إذا أراد له ذلك بأن يؤثر بسلوكه في حاشيته وهذه تؤثر في مدينته ، ومن المدينة ينتقل الأثر إلى المقاطعات ، فنفس الملك قالب تشكل به أنفس الرعية .

في باريس في ٨ من صفر سنة ١٧١٧ .

الرسالة المائة من رسالة الشيخ نعيم

لقد حدثتك بالأمس عن قلب الفرنسيين العجيب في أزيائهم^(١) ،
ومع ذلك فإن تعصبهم لأزيائهم غير معقول : إنه القاعدة التي يحكمون بها
على كل ما يجرى عند غيرهم من الأمم ، وكل ما يخطر ببالهم هو أن كل
ما هو غريب عنهم مثير للسخرية ، وأعترف لك أنني لا أدري مطلقاً
كيف أوفق بين ولعهم الجنوني بأزيائهم ، وبين قلبهم الذي يدعوهم إلى
تغييرها كل يوم .

وحين أقول لك : إنهم يحقرون كل ما هو أجنبي ، فإنني لا أكلمك
إلا عن التوافق : لأنهم في الأمور الهامة يبدون غير واثقين بأنفسهم
لدرجة مرذولة . ويعترفون لك عن طيب خاطر أن الشعوب الأخرى
أعقل منهم ، بشرط أن يسلم لهم بأنهم آتق في ملابسهم . إنهم يودون أن
يخضعوا طواعية لقوانين شعب منافس ، إذا أتيح لصانعي الشعور
المستعارة من الفرنسيين أن يقرروا كمشتريين شكل الشعور التي تغطي
الرءوس في الأمم الأجنبية . ولا شيء يبدو عندهم جميلاً كأن يسود
ذوق طهاتهم من الشمال إلى الجنوب ، وأن ينتشر تنسيق الشعر على
طريقتهم في جميع محال التجميل في أوروبا .

(١) أزياء : جمع زى ، والزى بكسر الزاى : الهيئة . وهو ما يقابل الموده

(La mode) .

فلا يهمهم ما دامت هذه المزايا العظيمة لهم أن يكون التفكير السليم صادرا إليهم من غيرهم ، ولا بأس عندهم من أن يأخذوا عن جيرانهم كل ما يتصل بالحكم السياسى والمدنى .

من يستطيع أن يتصور أن مملكة ، هى أقدم ممالك أوروبا وأقواها ، تحكم — منذ أكثر من عشرة قرون — بقوانين لم تصنع لها ؟ إذا كان الفرنسيون قد غزوا فإن ذلك لا يصعب فهمه ، لكنهم هم الغزاة .

إنهم أهملوا القوانين القديمة التى شرعها ملوكهم الأوائل فى الجمعيات العامة للأمم . والشئ الغريب أن القوانين الرومانية التى حلت محلها ، وضع بعضها ، وحرر بعضها الآخر أباطرة معاصرون لمشرعيهم .

وليكون الاقتباس كاملا ، وليكون الصواب آتيا لهم من الخارج فقد اقتبسوا جميع الدساتير البابوية ، واتخذوا منها جزءا جديدا من قانونهم : وهذا نوع جديد من العبودية .

وحقيقة أنهم حرروا فى الأزمنة الأخيرة بعض القوانين لتنظيم المدن والمقاطعات ، لكنها تكاد تكون مقتبسة كلها من القانون الرومانى .

هذه الوفرة من القوانين المقتبسة ، والتى يمكن أن يقال إنها تأقلمت ، كانت كثيرة جداً لدرجة أرهقت العدالة والقضاة . لكن هذه المجلدات من القانون ليست شئنا بجنب هذا الجيش الرهيب من المؤلفين والشرح والجامعين ، الذين هم أناس ضعفاء لقلة حظهم من العدالة ومن الفطنة ، أقوياء بعددهم العظيم .

وليس هذا كل ما فى الأمر : فقد أدخلت هذه القوانين الأجنبية
صِغَةً يَحْزَى لها العقل الإنسانى . وأصبح من العسير أن تقرر إذا
كانت الصيغة^(١) أبْلَغ فساداً من الناحية الفقهية ، أم من الناحية الطبية : أى
لا ندرى متى تكون أشد ضرراً : أتحت ثوب المفتى ، أم تحت قبعة
الطبيب العريضة ، أى إذا جلبت الخراب للناس فى الحال الأولى ، أم
إذا أزهدت أرواحهم فى الحال الثانية ؟

من باريس فى ١٧ من صفر سنة ١٧١٧ .

(١) الصيغة : اصطلاح يطلق على عقد زواج المتمة .

الرسالة الأولى بعد المائة من أرنيك إلى

يتحدثون هنا دائماً عن الدستور : لقد دخلت أمس بيتاً رأيت فيه أول ما رأيت رجلاً بديناً ، قرمزي اللون ، يقول بصوت جهوري : « لقد قدمت بياني ، ولن أجيب عن أقوالكم ، ولكن اقرءوا هذا البيان فسترون فيه أنني بددت جميع شكوككم ، ثم قال وهو يضع يده على جبهته : لقد تطلب إعداده مني كثيراً من العرق ، واحتجت فيه إلى جميع ما أعلم ، وإلى قراءة كثير من المؤلفات اللاتينية » . فقال أحد الحاضرين : أنا أعتقد ذلك ، لأنه بيان جميل ، وإنني أتحدى هذا القس الجزويتي الذي يأتي كثيراً لزيارتكم — أن يعد بياناً خيراً منه . ثم قال : هلموا اقرءوه فستجدون أنفسكم بقراءته في ربع ساعة ، أكثر علماً بهذه المواد مما لو حدثتكم عنها ساعتين . وهكذا تحامى الدخول في مناقشة ، أو أن ينال أحد من غروره وزهوه . وعندما اشتد الضغط عليه اضطر إلى الخروج من استحكاماته ، وبدأ يقص حماقات بلهجة لاهوتية معتمداً على تابع له روج لها لتقبل منه بكل احترام . ولما نقض له رجلاً من الحاضرين بعض المبادئ . شرع يقول : « هذا مؤكد ، وهكذا قضينا ، ونحن قضاة لانتقض أحكامنا » . فقلت حينئذ : أأنتم قضاة لا راد لقضائكم فأجاب : ألا ترى أن روح القديس يهديننا ؟ فقلت : هذه هي السعادة ؟ لأن الحال التي تكلمت بها يومنا هذا تجعلني أعتقد أنك في أمس الحاجة إلى أن تكون مهذباً .

من باريس في ١٨ من ربيع الأول سنة ١٧١٧ .

الرسالة الثانية بعد المائة

من أوزبك إلى إين في أزمير

إن أقوى الدول في أوروبا دولة الأمبراطور ، ودول فرنسا وأسبانيا وإنجلترا . أما إيطاليا وجزء كبير من ألمانيا فقسمة إلى عدد لا حصر له من دويلات ، أمراؤها في الحقيقة شهداء للسلطان .

إن سلاطيننا الأجناد عندهم من النساء أكثر من رعايا كثير من هؤلاء الأمراء . وإن أمراء إيطاليا الذين لا تربطهم وحدة تجمعهم أولى بالثناء ، لأن دويلاتهم مفتوحة كاستراحات تضطر إلى إيواء أول قادم ، فهي لذلك مضطرة إلى التحالف مع كبار الملوك ويعربون لهم عن فزتهم أكثر مما يعربون عن صداقتهم .

إن أكثر حكومات أوروبا ملكية ، أو هكذا تسمى : لأنى لا أدري ، هل هناك قط ملكية حقيقية ؟ وقبلها يمكن أن تظل كذلك أمداً طويلاً .

إن الملكية حكم صارم ينحط دائماً إلى حكم استبدادى ، يتحوّل إلى حكم جمهورى : فالسلطة لا يمكن مطلقاً أن تكون قسمة متساوية بين الشعب والملك ، ومن الصعب جداً الاحتفاظ بالتوازن بينهما ، ويترتب على ذلك أن تنقص السلطة من جانب إذا زادت في الجانب الآخر ، وترجع عادة كفة الملك ، لأنه على رأس الجيش .

وهكذا كانت سلطة ملوك أوروبا عظيمة جداً . ويمكن أن نقول :
إنها كما يريدون أن تكون ، لكنهم لا يستعملونها إلى مدى بعيد كما يفعل
سلاطيننا : لأنهم لا يريدون أولاً أن يصدموا عادات الشعب وديانته ،
وثانياً لأنه ليس من مصلحتهم أن يتبادوا في نفوذهم إلى أبعد مدى .
لأشياء يقرّب الملوك من حال كحال رعاياهم إلا هذه السلطة الواسعة
التي يمارسونها في حكمهم ، ولا شيء غيرها يجعلهم عرضة لتقلبات
الزمان ونكباته .

إن عادة إغدام من لا يروق الملوك لأيسر الأسباب — تخلّ
بالتناسب بين الجريمة والعقاب، وهذا التناسب هو روح الدول ، وتناسق
الأمبراطوريات . وهذا التناسب المرعى بدقة عند الأمراء المسيحيين
جعلهم أفضل كثيراً من سلاطيننا .

إن الفارسي الذي ينتهي به الأمر : لغفلة أو لسوء حظ إلى أن يسخط
عليه الملك — موته محقق : فأقل خطأ ، أو أيسر نزوة تقوده إلى هذا
المصير المحتوم غير أنه لو حاول اغتيال الملك ، أو أراد أن يسلم موقعه
للأعداء فإن الأمر ينتهي به أيضاً إلى الموت ، فهو إذاً لا يتعرض في الحال
الثانية لخطر أفدح من الخطر الذي يتعرض له في الحالة الأولى . وما دام
يرى الموت محققاً عند أدنى سخط ، وليس أسوأ من الموت ، فإنه يتجه
بطبيعة الحال إلى إقلاق الدولة ، وإلى التآمر على الملك ، وذلك كل ما بقي
له من مخرج .

وليست حال الكبراء في أوروبا كذلك ؛ إذ لا يحرمهم سخط الملك
إلا الحظوة والعطف . يخرجون من البلاط ، ولا يفكرون إلا في أن
يتمتعوا بحياة هادئة ، وبما ينالون من مزايا بنسبهم الرفيع . وبما أنه
لا يقضى عليهم بالموت إلا للغب في الذات الملكية فإنهم يتحامونه، لأنهم

يقدرون فداحة الخسران ، وضالة الكسب من ورائه ، لذلك قلت فيها الثورات ، واغتيال الملوك .

ومع تمتع ملوكنا بسلطة لا حد لها فإنهم لا يستطيعون أن يعيشوا يوماً واحداً إذا لم يتخذوا من أسباب الاحتياط ما يؤمن حياتهم ، وإذا لم يحنثوا إلى جانبهم عدداً لا يحصى من الجنود ليطغوا بهم على سائر رعاياهم ، ولو لا ذلك فإن سلطانهم لا يبقى شهراً واحداً .

ومنذ أربعة قرون أو خمسة اتخذ ملك^(١) فرنسا حرساً له خلافاً للألوف في هذه الأزمنة — ليحرس نفسه من السفاكين الذين أرسلهم لقتله أمير صغير من أمراء آسيا . وقد كان الملوك إلى هذا الوقت يعيشون هادئين بين رعاياهم كالآباء بين أبنائهم .

وليس مألوفاً أن يسمح ملوك فرنسا لأنفسهم أن يعدموا أحد رعاياهم كما يفعل سلاطيننا ، بل هم على عكس ذلك مع الرعية ، إذ يعفون عن جميع المجرمين ؛ ويكفي لسعادة حظ محكوم عليه بالإعدام أن يرى وجه ملكه العظيم ليظفر بالحياة . مثل هؤلاء الملوك كالشمس تشيع الحرارة والحياة في كل مكان .

من باريس في ٨ من ربيع الآخر سنة ١٧١٧ .

(١) هو فيليب أوجست ، هددته جواسيس فيودي لامونتانى
(Vieux de la montagne)

الرسالة الثالثة بعد المائة من أدركت إلى شخص ميم

إلحاقاً بالفكرة التي تضمنتها رسالتي الأخيرة أعرض عليك ما قاله لي
بالأمس أوري على حظ من العقل ، أعرضه ولا أكاد أزيد أو أنقص
منه شيئاً :

« إن أسوأ قرار اتخذته ملوك آسيا ، وساروا عليه : هو أن يجبروا
أنفسهم . وقد أرادوا بذلك أن يصيروا أجل من حقيقةهم ؛ لكنهم بذلك
جعلوا الناس يجلون الملكية لا الملك ، وتعلق نفوسهم بأى عرش ،
لا بملك معين .

إن هذا السلطان الخفي الذي يحكم لا يتغير في نظر الشعب ؛ فبالرغم
من أن عشرة من الملوك تابعوا في الحكم ، ولم تعرف إلا أسماؤهم ،
وقتلوا واحداً بعد الآخر — لم يحس الشعب أى تغيير كما لو كان قد حكم
بالأرواح ، روحاً بعد روح .

ولو أن البغيض الذي قتل ملكنا العظيم : هنرى الرابع ، وجه
ضربته هذه إلى ملك من ملوك الهند يحمل الخاتم الملكي ، ويملك كنزاً
عظيماً ظن أنه قد جمعه لنفسه لاستولى هذا القاتل في هدوء على مقاليد الحكم
وما استطاع إنسان مطلقاً أن يفكر في مطالبته بالملك وأسرته وأولاده .

ويثير العجب أنه لا يكاد يحدث تغيير ما في حكم ملوك الشرق . ومن
أين يأتي هذا التغيير إذا كان الحكم جائراً رهيباً .

إن التغيير لا يمكن أن يحدثه إلا الملك أو الشعب . والملوك لا يهمهم
أن يحدثوه : لأنهم في أوج سلطانهم يتمتعون بسلطة مطلقة ، وإذا غيروا
شيئاً ما ، فلا يمكن أن يكون إلا بفقد شيء من نفوذهم .

أما الرعايا فإذا اتخذ أحدهم قراراً فلا يدري كيف يننذه على الدولة ،
وعليه أن يرعى سلطانها الرهيب المجتمع القوي دائماً : كما يرعى حاجته إلى
الزمن كحاجته إلى الوسائل ، فلا يجد — إذاً — إلا أن يتجه إلى مصدر
السلطة ، ولا يحتاج في ذلك إلا إلى ذراع واحدة ، وبرهة يسيرة . ثم
يرتقي الجاني إلى العرش ، ويهبط الملك ويتمتع تحت قدميه يلفظ أنفاسه
الآخيرة .

إن الساخط في أوربا يفكر في أن يشترك في بعض المؤامرات السرية
أو يلجأ إلى الأعداء ، أو يستولى على بعض المواقع ، أو يشير بين الشعب
إشاعات لا طائل تحتمها ، ولكن الساخط في آسيا يتجه مباشرة نحو الملك
فيخيف ، ويضرب ، ويصرع ، ويمحو في لحظة ما هو قائم من الأوضاع
حتى التفكير في العبد والسيد ، ويصبح مغتصب العرش في برهة
مغتصباً وشرعياً .

ما أشقى الملك إذا لم يكن له إلا رأس واحد ! ويبدو أنه لم يجمع فيه
كل سلطته إلا ليدل أول طامع في العرش إلى المكان الذي يجدها فيه
بجمعة ! ،

من باريس في ١٧ من ربيع الآخر سنة ١٧١٧ .

الرسالة الرابعة بعد المائة من أدركت إلى شخص نقيه

ليس جميع شعوب أوروبا على درجة سواء في الخضوع لملوكهم :
فمثلا طبع مزاج الإنجليز القلق لا يدع مطلقاً لملكهم وقتاً لاستقرار
سلطته . والخضوع والطاعة من الخلل التي يقل تأثرهم بها . ويقولون
فوق ذلك أشياء معنة في الغرابة . ففي رأيهم لا توجد إلا رابطة واحدة
يمكن أن تربط بين الناس : تلك هي رابطة العرفان بالجميل : فالزوج
والزوجة والاب والولد لا يؤلف بينهم إلا المحبة المتبادلة والمعروف
المتبادل . وهذه البواعث المختلفة من العرفان بالجميل هي الأساس الذي
تقوم عليه جميع الممالك ، وجميع المجتمعات .

فإذا حاد الملك عن إسعاد رعاياه في حياتهم ، ورغب في أن يرهقهم
ويبيدهم فإن معين الطاعة ينضب : فلا شيء يربطه بهم ، ولا شيء
يربطهم به ، ويعودون إلى حريتهم الطبيعية . ويعتمدون في ذلك على أن
كل سلطة لا حد لها ليست شرعية ، لأنها لا يمكن أن تقوم على أصل
شرعي . وقالوا : إننا لا يمكن أن نعطي غيرنا سلطة علينا أكبر من
السلطة التي لنا على أنفسنا : ونحن لا نملك سلطة غير محدودة على أنفسنا ،
فنحن مثلاً لا نملك انتزاع أرواحنا : فليس إذن لأحد على وجه الأرض
مثل هذه السلطة . .

إن جريمة العيب في الذات الملكية ، ليست شيئاً يختلف في نظرهم عن الجريمة التي يرتكبها الأضعف ضد الأقوى . بأن يخالفه بأي نوع من أنواع المخالفة .

ولهذا فإن الشعب الإنجليزي الذي تجلّى أقوى ما يكون ضدّ أحد ملوكه قرّر أن جريمة العيب في الذات الملكية ضد أي ملك هي أن يحارب رعيته . وهم إذن على حق راسخ حينما يقولون : إن نص دستورهم الذي يأمر بالخضوع للسلطات ليس من الصعوبة بمكان أن يتبع ذلك ، لأنه ليس مستحيلاً عليهم أن يراعوه . ولم كراههم على الخضوع للحاكم ليس لأنه أفضلهم ، بل لأنه أقواهم .

يقول الإنجليز : إن أحد ملوكهم حينما انتصر ، وأسر أميراً كان ينازعه التاج ، أراد أن يوجّهه على عدم ولائه وخيائته ، فقال له الأمير المغلوب على أمره : « إن هي إلا لحظة كانت القاضية بيننا : أينا هو الخائن ^(١) » .

إن مغتصباً رمى بالتمرّد كل الذين لم يسيثوا إلى وطنهم مثله ، ولأنه يعتقد أنه ليس هناك قانون حيث لا يوجد قضاة ؛ فإنه يحترم نزوات الحظ والمصادفة كأنها أوامر إلهية .

من باريس في ٢٠ من ربيع الآخر سنة ١٧١٧ .

(١) يريد لو أن المغلوب على أمره انتصر لاقلب الوضع .

الرسالة الخامسة بعد المائة

من إرعدى إلى أوزبك في باريس

لقد حدثتني كثيراً — في إحدى رسائلك — عن العلوم ، وفنون
الثقافة التي تمارس في الغرب . وستنظر إلى كآني رجل همجي ، ولكني
لا أدري هل ربح الناس من العلوم بما يعوضهم عما جناه عليهم سوء
استعمالها على مرّ الأيام ؟

لقد سمعتهم يقولون : إن اختراع القنابل وحده سلب جميع شعوب
أوروبا حريتها . وأصبح الملوك لا يطمثون إلى حراسة البرجوازيين
لمواقعهم ، لأنهم عند أول قبلة يتخلون عن مواقعهم متمللين بالانضمام إلى
الجيوش النظامية ، ويكون نتيجة لذلك أن يفقد الملوك رعاياهم .

وأنت تعرف — يا أوزبك — أنه منذ اختراع البارود لم يعد مكان
مأميعة ؛ أي أنه — يا أوزبك — لم يعد معقل على وجه الأرض يحمي
من الظلم والعنف .

ولإني اضرب كلما توقعت أن يهتدى العلماء إلى سر يقدم للعالم أيسر
الوسائل لإبادة البشر ، وتدمير الشعوب ، والقضاء على جميع الأمم .

لقد قرأت التاريخ ؛ فتأمل فيه جيداً تجد أكثر الملكيات لم تقم إلا على
الجهل بالفنون ، ولم تندثر إلا بعد أن صار لها حظ وافر من الثقافة .
والإمبراطورية الفارسية القديمة تعطينا مثلاً واضحاً لذلك .

ما أقتُ في أوربا طويلاً ، ولكنني استمعت إلى قوم عقلاء يتحدثون
عن الخراب الذي تحدثه الكيمياء . ويبدو أنها الآفة الرابعة التي تهلك
البشر ، وتدمرهم شيئاً فشيئاً في دأب واستمرار في حين أن الحرب ،
والوباء ، والمجاعة تفنيهم جملة وإن كان ذلك على فترات .

ماذا استفدنا من اختراع البوصلة ، ومن الكشف عن شعوب كثيرة ؟
لقد سرت إلينا أسرارهم ، ولم ننتفع بأموالهم . لقد صار الذهب والفضة
باتفاق عام ثمناً لجميع السلع وتقدير قيمتها ، لأن هذين المعدنين كانا نادرين
ولا ينتفع بهما في أغراض أخرى ، فإذا كان الضرر لو اخترنا معدناً
أكثر وجوداً لنقوم به السلع فنستطيع أن نجد نوعين أو ثلاثاً من العملة ؟
ألم يكن ذلك مريحاً ؟

إن الاختراع أضر بالبلاد التي اخترعته ، والشعوب كلها لحقتها
الدمار ، والذين نجوا من الموت رُدوا إلى عبودية قاسية يضطرب المسلمون
لمجرد ذكرها .

ما أسعد أطفال المسلمين بجهالتهم ! وما أهنأهم ببساطتهم الحبيبة التي
رضى عنها نبينا الكريم ! إنك تذكرني دائماً بسلامة الفطرة عند أسلافنا
السابقين ، وبالأطمئنان الذي كان يعمر قلوب آبائنا الأولين .

من فينسيا في ٢ من رمضان سنة ١٧١٧ .

الرسالة السادسة بعد المائة

من أوزبك إلى وعدى في فينيس

أما إنك لا تفكر فيما تقول أو تفعل خيراً مما تفكر . لقد هجرت
وطنك لتعلم ، وأنت تحتقر كل تعليم . جئت لتكوّن نفسك في بلد يعلم
الفنون الجميلة ، وأنت تراها ضارّة . ألم تقل لي ذلك يا وعدى ؟ إنني متفق
وإياك في الرأي ، أكثر من اتفاقك ونفسك .

هل فكرت مليّاً في الحال الهمجية التبعة التي جرّنا إليها ضياع
الفنون منا ؟ ليس من الضروريّ أن تتصوّرّها ، لأنه من الممكن أن
نراها ؛ فلا يزال على الأرض شعوب يمكن أن يعيش فيها مكرّماً فرد نال
شيئاً من التعليم ، وسيكون فيها أقرب ما يكون من مستوى السكان
الآخرين ، ولن يرى قط غريباً في تفكيره ، ولا شاذاً في سلوكه ،
وسيمضي في حياته كسواه ، بل إنه سيمتاز بظرفه .

ستقول : إن أكثر مؤسسي الإمبراطوريات كانوا يجهلون الفنون .
أنا لا أنفي أن الشعوب الهمجية تستطيع أن تنطلق كالسيول الجارفة ،
وتنتشر في الأرض ، وتطغى بجيوشها المتوحشة على ممالك أرقى منها
حضارة . ولكن ينبغي أن تراعى أن الشعوب الهمجية المنتصرة تتعلم
الفنون أو يتركّون الشعوب المغلوبة تمارسها ، ولولا ذلك لذهب سلطانها
كما تذهب ضوواء الرعد ، وجلبه العواصف .

تقول إنك تخشى أن تخرع وسيلة للدمار أقسى من الوسائل التي

تستعمل الآن . لا ؛ لأنه إذا ظهر مخترع مششوم فمن حق الناس تحريمه على الفور ، وإجماع الشعوب على مقاومته بماسيقه . وليس من مصلحة الملوك أن يفتحوا البلاد بمثل هذه الوسائل المدمرة ، لأنهم يريدون شعوباً ، لا أرضاً خراباً .

إنك تشكو من اختراع البارود والقنابل ، وتعجب لأنه لم يعد على الأرض مكان منيع : أى أنك تجد بما يثير العجب أن الحروب الآن تنتهى أسرع مما كانت تنتهى فى الماضى .

ولا بد أنك لاحظت وأنت تقرأ التاريخ أنه منذ اختراع البارود صارت المعارك أقل إراقة للدماء مما كانت من قبل ، لأنه فى القليل جداً أن يلتحم الجيشان .

وهل إذا وُجد الفنّ ضاراً فى بعض الأحوال الخاصة تحتم علينا أن نهمله ؟ أظنّ يا رعدى أن دين نبينا صلى الله عليه وسلم الذى نزل عليه من السماء دين ضارّ ، لأنه سيستغلّ فى يوم من الأيام فى خزي الغادرين من المسيحيين ؟

أنت تعتقد أن الفنون تُتْرِف الشعوب ، وأن الترف سبب لسقوط الإمبراطوريات .

تقول ذلك عن دمار الإمبراطوريات الفارسية القديمة ، التى كانت نتيجة لترفها ، ولكن ليس هذا المثل لازماً فى جميع الحالات ؛ لأن الإغريق الذين قهروهم عنوا بالفنون عناية أتم وأوفى من عنايتهم .

وإذا قيل إن الفنون تجعل الرجال مخنثين ، فينبغى ألا يقال ذلك على

الأقل عن الذين يمارسونها لأنهم ليسوا في فراغ ، والفراغ من جميع
المفاسد أقتلها لمعانى القوة في الرجال .

وهذه حال لا تنطبق إلا على الذين يجدون في الفنون متعة . ولكن
الذين يتمتعون بما في الفن من متع ، كما هي الحال في البلاد المتحضرة
مضطرون إلى أن يمارسوا فناً آخر يعيشون منه ، إلا أن يرضوا بأن
ينحدروا إلى حال مزرية من الفقر ، وعلى ذلك فلا تلازم بين الفراغ
والرخاوة وبين الفنون .

ربما كانت باريس أكثر مدن الدنيا فتنة وإغراء . إذ تهبط اللذات
فيها أمتع ما تكون ، ولكنها مع ذلك يعيش الإنسان فيها حياة أقسى من
الحياة في أى مكان ، فعيشة منعمة لفرد واحد تتطلب أن يعمل مائة
رجل آخرين دون كلل . وإذا وضعت امرأة في رأسها أن تظهر في مجتمع ما
بزينة ترضاها فإنه يجب منذ هذه اللحظة ألا ينام خمسون عاملاً ،
و ألا يجدوا فراغاً يأكلون فيه أو يشربون : إنها أمرت فأطيعت أسرع
ما يُطاع ملكنا ، ذلك لأن سلطان الكسب أكبر سلطان على الأرض .

ذلك الحساس للعمل ، وتلك الرغبة الملحة في الثراء ، تسرى من
طبقة إلى أخرى : من العمال إلى العظماء . ولا يرضى أحد أن يكون أفقر
من ذلك الذى يليه في حالة مباشرة . وقد تجد في باريس رجلاً عنده ما يكفيه
للعيش إلى يوم الدين ، ومع ذلك يعمل دائماً في العمل ، ويخاطر فيختصر
أيام عمره ليجمع — كما يقول — ما يعيش به .

وهذا التفكير يستحوذ على الشعب كله ، فلا تجد عنده إلا العمل
والحرقة : فأين إذن هذا الشعب المختث الذى تتحدث عنه كثيراً ؟
وافرض يا رعدى أن مملكة ما لم تسمح إلا بالفنون الضرورية جداً

لفلاحة الأرض ، وهى مع ذلك فنون شتى ، وأنها نفت كل الفنون الخاصة بالذات واللهم ، فإنى أؤكد لك أن هذه الدولة مستكون أتعس دولة فى الدنيا .

وإذا كان لدى السكان من الاحتمال ما يتجاوز به عن كثير من الأشياء التى يحتاج إليها لسد حاجاته ؛ فإن الشعب يتدهور يوماً فيوماً ، ويصير إلى حال من الضعف ، بحيث تستطيع أى أمة لها حظ من القوة أن تغزوها .

وأستطيع هنا أن أدخل فى تفصيل مسهب ، وأريك أن دخل الأفراد يكاد ينقطع نهائياً ، وبالتالي تنقطع موارد المالك . وتكاد تنعدم الصلة بين مواهب المواطنين ، وينعدم بتاتاً الرواج المالى ، ونمو الدخل الذى هو ثمرة اتصال الفنون بعضها ببعض ، ولا يستفيد كل إنسان إلا من زراعة أرضه ، بل إنه لا يستخرج من الأرض إلا ما هو ضرورى ليسك عليه حياته فلا يموت جوعاً . وبما أن ذلك لا يحقق إلا جزءاً من مائة من دخل دولة ما فسيقول سكانها حتماً بنسبة نقص دخلها ، أى لن يبق فيهم إلا جزء من مائة .

أنظر ملياً إلى أى حد يبلغ كسب الصناعة . إن رأس المال فيها لا يربح فى السنة إلا جزءاً من عشرين جزءاً (٥٪) . ولكن بدينار ألوان ، يصنع رسامٌ لوحةً بخمسين ديناراً . ويمكن أن يقال مثل ذلك فى الصائغ ، وعمال الصدف ، والحريز ، وفى أرباب الحرف جميعاً . والنتيجة الحتمية التى تستخلص مما سبق يارعدى ، أن المالك إذا أراد أن يكون عظيماً فعليه أن يمهّد لشعبه حياة منعمة ، ويعمل جاهداً ليحقق له الكفايات كما يعنى بأن يحقق له ضرورات الحياة .

من باريس فى ١٤ من شوال سنة ١٧١٧ .

الرسالة السابعة بعد المائة

من ريكا إلى أمين في أزمير

لقد رأيت الملك الشاب: ورأيت حياته ثمينة عند رعاياه ، وليست أقل من ذلك قيمة عند أوروبا كلها نظرا إلى ما يمكن أن يحدثه موته من اضطرابات خطيرة . لكن الملوك مثل الآلهة ، ينبغي أن يعتقد الناس - وهم أحياء - أنهم لا يموتون . إنه جليل المحيّا ، لكنه جذاب . وإن تربيته الصالحة تعاونت مع استعداد الطيب على تسكينه ، فدلّت مخايله على أنه سيصبح ملكا عظيما .

ويقال : إنه لا يمكن الحكم على مسلك ملوك الغرب إلا بعد اجتياز اختبارين عظيمين : النساء ورجال الدين . وكلا الطرفين يعمل على أن يستولى على نفس الملك وهو من أجل ذلك سيخوض معارك خطيرة ؛ لأنه في أثناء حكم الملك - وهو شاب - تتصارع هاتان القوتان دائما ، لكنهما تتصالحان وتتحدان أيام حكم الملك - وهو شيخ - ففي ظلال حكم الملك الشاب يكون لرجل الدين دور يصعب عليه كثيرا أن يثبت فيه ، لأن قوة الملك تضعفه ، ولكنه ينتصر بقوته إذا ضعف الملك .

وحين وصلت إلى فرنسا وجدت الملك الراحل محكوما بالنساء حكما مطلقا مع أنه كان في سن تجعله أقل ملوك الأرض حاجة إليهن فيما اعتقد . وقد سمعت يوما إحدى النساء تقول : « يجب أن تصنع شيئا لهذا الضابط الشاب ، فإني أعرف قدره وسأحدث إلى الوزير في أمره ، وقالت أخرى :

«إن من الغريب أن ينسى هذا الشماس. يجب أن يكون قسًا ، لأنه ذو نسب
وسأنوه بأخلاقه ، . ويجب مع ذلك ألا نتخيل أن هؤلاء المتحدثات من
ذوات الخطوة عند الملك ، ولعلهن لم يتحدثن إليه إلا مرتين طوال حياتهن.
وهذا أمر يسهل حدوثه كثيرا في بلاط ملوك أوروبا . ولكن لن نجد في
باريس أو الريف شخصا في البلاط ليس من خلفه امرأة تدفعه يديها ،
فينال فضلا ، أو يعنى من عقاب على مظالم قد يرتكبها . وبين هؤلاء
النساء روابط قوية ، ويكون نوعا من الجمهورية أعضاؤها ناشطات دائما،
ويساعد بعضهن بعضا ، ويتبادلن الخدمات ، وكأنهن دولة جديدة داخل
الدولة ، ورجال البلاط في باريس أو الأقاليم إذا رأوا تصرفات الوزراء
ورجال الحكم ، ورجال الدين ، ولم يفتنوا إلى هيمنة النساء عليهم أشبه
بمن يرى آلة تلعب دون أن يعرف مطلقا الزنبرك الذى يحركها .

أتمتقد — يا إلهين — أن امرأة ما تفكر فى أن تصير خليفة لوزير
ليسكن إليها ؟ أى فكرة هذه ! إنما هى تريد أن تعرض عليه خمس
عرائض أو ست كل صباح ، وتنتظر بأن مروءتها دفعها إلى أن تفعل
الخير لأناس فى حضيض المسكنة ، على حين أنهم يقدمون لها إيرادا قيمته
مائة ألف دينار .

يشكو الناس فى فارس من أن الدولة يحكمها امرأتان أو ثلاث ،
والأمر فى فرنسا أسوأ بكثير ؛ فجميع النساء بوجه عام يحكمن ، لا جملة
واحدة ، وإنما يتقاسمن السلطة بينهن .

من باريس فى آخر شهر شوال سنة ١٧١٧ .

الرسالة الثامنة بعد المائة من أدبك إلى

هنا نوع من الكتب لا نعرفه مطلقاً في فارس ، ويبدو لشيوعه أنه يوافق أمرجتهم : لأنها الصحف . والكسل يستنيم إلى قراءتها : إن المرء يجد لذة في أن يتصفح ثلاثين كتاباً في ربع ساعة .

في أكثر الكتب ، لا يكاد ينتهي المحرر من الإطار المعتاد حتى يضيق به القراء : ثم يدخلهم — وهم نصف أموات — في مادة غارقة وسط بحر من الألفاظ . وهذا المحرر يريد أن يخلد اسمه بالقطع الصغير ، وذلك يسعى للخلود بالقطع المتوسط ، وثالث بالقطع الكبير^(١) : وينبغي للمحرر أن يمحط وفقاً للحجم المناسب ، وذلك ما يفعله دون رحمة ، غير مراعاة جهد القارئ المسكين الذي يقتل نفسه في إنجاز ما أجهد المحرر نفسه في إطالته .

إنني لا أدري أي فضل في عمل مثل هذه المحررات : إنني أستطيع أن أخرج منها كثيراً إذا شئت أن أدمر صحتي . وأدمر صاحب المكتبة .

إن أكبر خطأ لدى الصحفيين هو أنهم لا يتكلمون إلا عن الكتب الجديدة : كما لو كانت الحقيقة دائماً جديدة . ويحسب إلى أنه لو أتيح

(١) يريد أن الصحف مختلفة الأحجام . المراجع

لرجل أن يقرأ جميع الكتب القديمة لم يجد أى سبب يفضل به الكتب الجديدة عليها .

لكنهم عندما يلتزمون قانوناً هو ألا يتحدثوا إلا عن الكتب الخارجة حالا من يد المؤلف فإنهم يفرضون على أنفسهم قانوناً آخر هو أن تكون هذه الكتب مئة كل الملة . وهم لا يعشون بنقد الكتب التي يختارون منها مقتطفات ، لأسباب يحتفظون بها لأنفسهم ، إذ من الشجاع الذي يرضى أن يثير له عشرة أعداء أو إثني عشر كل شهر ؟

إن أكثر المؤلفين أشبه بالشعراء . يتحملون ضربات متوالية بالعصا دون شكوى ، ولا يجزعون لما يصيب أكتافهم ، لكنهم يرتاعون لأقل نقد ينال أثرأ من آثارهم . فيجب إذن أن نحترس من الهجوم عليهم من هذه الناحية الشديدة الحساسية ، والصحفيون يعرفون ذلك جيداً ، لكنهم يفعلون ضد ما يعلمون ، يبدءون بالثناء على المادة التي يحرقونها : وهذه أولى سمجاتهم ، ثم ينتقلون إلى مديح المؤلف ، وهو إطاراء يُحملون عليه حملاً : لأنهم يتعاملون مع أناس لا يزال بهم رمق ، متأهبون أن يشمروا عن سواعدهم ويصعقوا بسنّ قلبهم أى صحفيّ جرى .

من باريس في ٥ من ذى القعدة سنة ١٧١٨ .

الرسالة التاسعة بعد المائة

من ريك إلى

إن جامعة باريس هي البنت البكر للملك فرنسا ، وهي ممثلة في الكبر
فعمرها يزيد على تسعمائة سنة : هكذا تحلم أحيانا .

لقد حدثت أن جدلا قام من زمن بين بعض علمائها حول حرف
الكاف^(١) من جهة نطقه أينطق كي أو كا . وحى وطيس الجدل حتى
أضاع بعضهم فيه ثروته . وأصبح لزاما أن يضع البرلمان حدا لهذا
الخلاف ، فأصدر تصريحا ، بقرار رسمي لجميع رعايا ملك فرنسا أن
ينطقوا حرف الكاف كما يشاؤون . وكان جميلا أن ترى أكثر هيئتين في
أوروبا جلالات مشغولتين بتقرير مصير حرف من الحروف الهجائية .

ويبدو يا عزيزي . . . أن رموس أعظم الرجال تضيق إذا كانت
مجتمعة ، ومن هنا قلت الحكمة كلما كثرت عدد العقلاء . إن الهيئات الكبيرة
تهتم اهتماما بالغاً بتوافه الأمور ، وبالشكليات وبالعبث الذي لا طائل
تحتة ، أما الجوهرى من الأمور فلا يأتى إلا أخيراً . فقد سمعت مرة
أن ملكا من ملوك أراجون جمع ممثلى ولايات أراجون وكتالانيا^(٢) ،

(١) يشير المؤلف إلى ما حدث من خلاف حول هذا الموضوع الذى عرف بمركه
راموس ، وهو بير لا راميه (١٥١٥ — ١٥٧٢) ، فيلسوف ونحوى فرنسى معارض
لمذهب أرسطو ، كان يقول بالفعل لا بالإجماع ، ويمد المبرر بديكارث .

(٢) أراجون وكتالانيا : يشير إلى فيليب الثالث ملك أسبانيا ، لأن مملكتي أراجون
وكتالانيا قد اتحدتا منذ قرن قبل ذلك أى فى سنة ١٦١٠ .

وشغلت الجلسات الأولى من اجتماعهم لتقرير أى اللغتين تكون بها
المناقشة ، وحى وطيس الخلاف ، وكادت الصلات بين المقاطعتين أن
تنفصم غير مرة لولا أن اقترح أحدهم أن يكون السؤال باللغة الكتالونية ،
والإجابة باللغة الأراجونية .

من باريس فى ٢٥ من ذى الحجة سنة ١٧١٨ .

الرسالة العاشرة بعد المائة

من ريكالتي

إن الدور الذي تلعبه امرأة جميلة أخطر من أن يتصوره إنسان ،
لأنه ليس عندها أهم من الوقت الذي تقضيه صباحاً في زينتها وهي بين
خدمها . إن قائد الجيش لا يهتم بتنظيم جنده اهتمامها بوضع خال في وجهها
كما ترجو لنفسها وتوقع من نجاح فيه .

أي جهد فكري تبذله ، وأي لباقة ينبغي أن تستخدمها لتوفق دائماً
بين مصالح المتنافسين في حبها ، ولتبدو محايدة بينهما ، ولكنها تستسلم
لها واحداً بعد الآخر . وتجعل نفسها وسيطاً بينهما في كل شكوى
هي مصدرها .

وإن شغلها الشاغل أن تخلق أسباب المسرات ، وتحرص على تعاقبها
وتجديدها وتوقع ما عساه يتكرر عليها مسراتها ، أو يفسدها .

ومع كل ذلك فليست الصعوبة في الابتهاج ، ولكن في التظاهر به
فضايق النساء ما استطعت فسيغفرون لك ذلك إذا ما أقنعنّ مقنع بأنهن
قد استمتعن استمتاعاً مرضياً . لقد شهدت منذ أيام عشاء بالريف أقامته
بعض السيدات . وفي الطريق كن يقلن دائماً : « على الأقل يجب أن
نضحك كثيراً وأن نتسلّى » . وكنا مجموعة غير متناسبة . لذلك غلب الجدل
على اجتماعنا . غير أن إحدى السيدات قالت : ينبغي أن نعترف أننا

استمتعنا أيما استمتاع ، وأنه ليس في باريس جمع هو أكثر مرحاً من
 جمعنا . ولما كان الملل مستولياً على هزتي إحداهنّ وقالت لي : ألسنا
 في مزاج معتدل ؟ فأجبتهما متشابهاً : نعم ويخيل إليّ أنّي سأموت من كثرة
 الضحك . ومع أن الحزن كان مسيطرأ على أفكارنا . فإني أحسست أنّي
 منقاد لتأؤب إثر تأؤب أسلني إلى نوم أنساني كل شيء ، وقضى على
 مسراتي .

باريس في ١١ من المحرم سنة ١٧١٨ .

الرسالة الحادية عشرة بعد المائة - من أدركت إلى

لقد كان حكم الملك الراحل طويلاً جداً حتى أن نهايته أنستنا بدايته .
وأصبح المؤلف اليوم ألا يهتم الناس إلا بالأحداث التي حدثت أيام
كان تحت الوصاية ، ولا يقرءون إلا المذكرات التي كتبت عن هذه
الحقبة من الزمان .

وإليك خطاباً ألقاه أحد قواد^(١) مدينة باريس ، في مجلس حربيّ .
وأعترف لك أنني لم أفهم منه شيئاً ذا قيمة .

سادق : بالرغم من أن قواتنا قد هزمت مع خسائر فادحة ، فإنني
أعتقد أنه من السهل علينا أن نصلح هذه الخسارة : فإن لدى ستة
مقطوعات غنائية توشك أن تظهر في الوجود ، وأنا متأكد من أنها
ستضع الأمور في نصابها . وقد اخترت لها أصواتاً صافية ، تخرج من
أعماق صدور بلغت مبلغاً عظيماً من القوة ، وستهم مشاعر الشعب بشكل
عجيب ، لأنها لحنّت حتى الآن لحنّاً فريداً في نوعه .

وإذا كان هذا لا يكفي ، فإننا نعرض لوحة خشبية حُفرت عليها
صورة مازران مشوقاً . وإنه من حسن حظنا أنه لا يحسن التكلم باللغة
الفرنسية ، وقد بلغت عجمته فيها حداً يمكن معه أن تنهار مصالحة .

(١) شارل دي مونتى ماركيز هو كينكرر ماريشال فرنسا عام ١٦٥١ . المراجع

ولا تعوزنا الوسائل التي نكشف بها للشعب لهجته التي توجب السخرية ،
وتستثير الضحك . وقد كشفنا له منذ أيام غلطة نحوية بلغ من فظاعتها
أنها أضحت ماثراً للضحك في جميع الأنحاء .

وإني آمل — قبل ثمانية أيام — أن يجعل الشعب اسم مازران اسم
جنس يدل على جميع البهائم التي تحمل الأثقال . أو تجرّ العجلات .

وقد دأبت موسيقانا ، منذ هزيمتنا على إيجاعنا بها ، وتصويرها
بصورة أفحش من الخطأ الأول الأزلّ لأدم ، فاضطر مازران ، حتى
لا يرى أنصاره ينقصون إلى النصف ، أن يطرد جميع وصفاته .

انتعشوا إذن ، واستردوا شجاعتكم ، وتأكدوا أننا سنجعله يجتاز
اللال بنفخة واحدة في البوق .

من باريس في ٤ من شعبان سنة ١٧١٨ .

الرسالة الثانية عشرة بعد المائة من رسيدى إلى أدريكث في باريس

في أثناء إقامتى بأوربا قرأت ما كتبه المؤرخون القدامى والمحدثون :
ووازنت جميع العصور بعضها ببعض ، وكنت أجد متعة وكأنها تمرّ
أمامى ، وكنت أقف بفكرى متأملاً أحداثها لاسيما الانقلابات العظيمة
التي تغير وجه الأرض ، وتجعل عصوراً تختلف عن عصور أشد
اختلاف حتى إن الأرض تكاد تكون غير الأرض .

ولعلك لم تنبّه إلى شيء يثير فى كل يوم عجباً : كيف أن الدنيا صارت
أقلّ عمرانا بالسكان عما كانت فى الماضى ؟ وكيف أمكن أن تفقد الطبيعة
هذه الخصوبة الرائعة التي كانت لها فى الأزمنة الأولى ؟ أدركتها الشيخوخة ،
أم اعترأها السقام ؟

لقد مكثت فى إيطاليا أكثر من سنة ، فلم أجد فيها إلا حطام هذه
الدولة التي ذاعت شهرتها قديماً . وبالرغم من أن جميع الناس يسكنون
المدن فإنها كانت مقفرة خالية من السكان : ويبدو أن هذه المدن لم تظلّ
قائمة إلا لتدل على الأمكنة التي كانت تقوم فيها مدن عظيمة كثيراً ما تحدث
عنها التاريخ .

وهناك من يزعم أن مدينة روما وحدها كانت تحوى قديماً من السكان
أكثر مما نجده فى مملكة كبيرة فى أوربا فى عصرنا الحاضر . وكان أىّ

مواطن رومانيّ يملك عشرة آلاف أو عشرين ألفاً من العبيد عدا من يعملون في بيوته بالريف . فإذا أحصينا في رومة أربعمئة ألف أو خمسمئة ألف مواطن كهذا فإنه لا يمكن أن يحصى عدد سكانها دون أن تستثير خيالنا .

وقديماً كان في صقلية دول عظيمة ، وشعوب وافرة العدد اختفى أكثرها منذ لم يعد لهذه الجزيرة اعتبار إلا ببراكينها .

واليونان أقفرت إلى حدّ أنه لم يبق بها إلا عشر سكانها القدماء .

وأسبانيا التي كانت كثيفة السكان لا يُرى بها الآن إلا حقول خاوية ، وفرنسا ليست شيئاً إذا قيسَت بأمة الغال القديمة التي تحدث عنها قيصر .

أما بلاد الشمال تماماً فكانت مجدية ، وكانت شعوبها تفتقر إلى أسباب العيش ، وقد حدث قديماً أنهم اضطروا إلى أن يتقاسموا أرزاقهم - ويرسلوا إلى الخارج - بكجماعات النحل - أفواجا منهم ، وأبماً بأسرها تبحث عن مواطن جديدة .

وبولونيا وتركية أوربا تكادان تخلوان من السكان .

وفي أمريكا لا نجد من السكان جزأين من مائة من كان بها من الناس الذين كوّنوا الإمبراطوريات العظمى .

وليست آسيا مطلقاً أحسن حالا . فهذه آسيا الصغرى التي كانت مهداً للممالك قوية ، وكانت تضمّ عددا هائلا من المدن الكبرى ، لم يعد بها إلا مدينتان أو ثلاث . أما آسيا الكبرى التي كانت تحت سلطان الأتراك

لم تعد ملأى بالسكان ، والتي كانت تحت سلطان ملوكنا إذا وازناها الآن بما كانت عليه في عهد ازدهارها قديماً رأينا عدد سكانها ضئيلاً جداً . إذا قيس بسكانها الذين يفوقون الحصر أيام إكسركيس وداريوس .

أما الدويلات الصغيرة التي تحيط بهذه الإمبراطوريات العظيمة فإنها مقفرة تماماً : مثل دول إيريميت ، وسيركاسي ، وجوويل . وهؤلاء الملوك مع ممالكهم الواسعة لا يكاد عدد رعاياهم يبلغون خمسين ألفاً .

ومصر لم تكن أقل تناقصاً في السكان من البلاد الأخرى وأخيراً ، هأنذا أجوب البلاد فلا أرى إلا القفر . وأعتقد أن سبب ذلك الطاعون والمجاعة .

وأفريقية التي كانت مجهولة تماماً حتى إن المرء لا يستطيع أن يتحدث عنها بدقة كما يتحدث عن سائر أجزاء العالم . وإذا لم نعتبر إلا شواطئها على البحر الأبيض المتوسط المعروفة في جميع الأزمنة رأينا سكانها قد نقصوا كثيراً عما كانوا وهم تحت حكم الرومان . وملوكها الآن من الضعف بحيث أصبحوا أقل الملوك قوة في العالم .

وبعد حساب يبلغ هذا المبلغ من الدقة يمكن أن يكون في مثل هذه الأحوال ، وجدت أنه لا يعمر الأرض الآن على وجه التقريب سوى جزء من خمسين جزءاً من الناس الذين كانوا يعمرونها أيام قيصر . والذي يثير العجب أنه إذا ظلّ عدد السكان ينقص على مر الأيام ، واستمر ذلك مدى عشرة قرون فستكون الأرض صحراء خاوية من السكان .

وهذه يا عزيزى - أوزبك - السكارثة المروعة التى لم يحدث مثلها
فى العالم ، مع أنه لا يكاد يشعر بها أحد ، لأنها تحدث بحال لا تُدرك ،
خلال عدد كبير من القرون ، وهذا يدل على بلاء داخلى ، أو سمّ دفين ،
أو مرض الهزال الذى يفجع النوع الإنسانى .

من فينيس فى ١٠ من رجب سنة ١٧١٨ .

الرسالة الثالثة عشرة بعد المائة من أدركت إلى رعدى في ثيبين

إن الدنيا يا عزيزى رعدى لا تفسد ، وكذلك السموات : وعلماء
الفلك هم الشهود الذين يرون بأعينهم تغيراتها كنتيجة لطبيعة لحركات
المادة في الكون .

إن الأرض تخضع كسائر الكواكب - لقوانين الحركات ، وتماهى
في جوفها معركة دائمة من هذه القوانين ، والماء واليابسة كلاهما يبدو في
حرب أزلية ينشأ عنها في كل لحظة أوضاع جديدة .

والناس في هذا المقر المعرض كثيراً للتقلبات في حال غير مأمونة
العواقب : فهناك علل كثيرة أقلها جدير بأن يدمرهم تدميراً ، أو يزيد في
عددهم أو يقلل منهم .

لن أحدثك عن كوارث بعينها ، معروفة عند عامة المؤرخين ، وقضت
على مدن بأسرها ، أو ممالك برمتها ؛ وإنما أحدثك عن الكوارث العامة
التي وضعت الجنس البشرى في كثير من الأحيان على شفا الدمار .

والتاريخ مملوء بأخبار الطوائع العامة التي تناوبت العالم ، وفجعت
البشر . وقد تحدث التاريخ عن واحد منها كان عنيفاً جداً فأحرق
كل شيء حتى جذور النباتات . وأحدث أثراً في جميع العالم المعروف

حتى إمبراطورية كاتاي^(١) . ولو اشتد هذا الطاعون شيئاً ما لقضى على الجنس البشرى كله في يوم واحد .

ومنذ أقل من قرنين فشا أشنع الأمراض في أوروبا وآسية وإفريقية وأحدث في زمن وجيز أفدح الآثار . ولو استمر بسرعه وحدته لقضى على البشر . وقد ماتوا في بؤس لأنهم نشئوا منذ ولادتهم مرهقين بالآلام ، عاجزين عن النهوض بأعباء تكاليفهم في المجتمع .

وماذا كان يحدث لو استشرى السم أكثر من ذلك ؟ لقد كان من الممكن أن يستفحل الداء بلا شك لو لا أن كشف — لحسن الحظ — دواؤه الناجع . كان من الممكن أن يقضى على الجنس البشرى كله بعد أن قضى على جزء منه .

ولكن الداعى إلى الكلام عن إبادة الجنس البشرى التي كان يمكن أن تحدث ، مع أنها لم تحدث ، ألم يقض على الطوفان ولم يستبق منه إلا أسرة واحدة ؟

هل يستطيع أولئك الذين يعرفون الطبيعة ، ولهم عن الله تعالى رأى سليم أن يدركوا أن المادة والأشياء المخلوقة لم يمض عليها سوى ستة آلاف سنة ؛ وأن الله أجل أعماله في الأزل ، لم يستعمل قدرته الخالقة إلا أمس ؟ لأنه لم يستطيع استخدامها ؟ أم لأنه لم يرد ذلك ؟ لكنه إذا لم يستطيع ذلك في وقت ما فإنه لا يستطيعه في وقت آخر . إذاً كان ذلك لأنه لم ترده . وإذا أنه لا خلف عن الله قط ، فإننا إذا سلطنا بأنه أراد شيئاً مرة ، فإنه يريد دائماً ومنذ البداية .

لا ينبغي إذاً أن نعد سنى الدنيا : فعدد حباب الرمال بالبحر لا تساوى

(١) في بلاد الصين . (للمراجع)

عند الموازنة بعمر الدنيا إلا لحظة واحدة .

ومع ذلك فقد حدثنا المؤرخون عن الأب الأول : وبينوا لنا نشأة الإنسان . أليس من الطبيعيّ أن تفكر في أن آدم نُجّيّ من بلاء عام ، كما نُجّيّ نوح من الطوفان ؟ وأن الكوارث الجسام توالى على الأرض منذ أن خلقت الدنيا ؟

واسكن الكوارث لم تسكن كلها عفيفة . ونرى كثيراً من بقاع الأرض أجهدها تقديم المعاش للناس . وما يدرينا أن الأرض كلها ليس لديها أسباب عامة بطيئة وخفية لإجهاد الخلق ؟

لقد أراحنى أن أدليت إليك بهذه الأفكار العامة ، قبل أن أجيب على الأخص عن رسالتك المتعلقة بنقص السكان الذى حدث منذ سبعة عشر قرناً أو ثمانية عشر .

وسأريك فى رسالتى الآتية أن هناك أسباباً من الأخلاق والعادات مستقلة عن الأسباب الطبيعية أحدثت هذا النقص .

من باريس فى ٨ من شعبان سنة ١٧١٨ .

الرسالة الخامسة عشرة بعد المائة من أدركت إلى شخص نفسي

لم يكن الرومان يملكون أقل مما نملك من العبيد ، بل إنهم كانوا يملكون منهم أكثر مما نملك ، لكنهم كانوا يستغلونهم خيراً مما نستغلّ .

وقد كانوا أبعد ما يكونون عن أن يمنعوا تكاثر العبيد بالطرق الجبرية ، بل إنهم - على عكس ذلك - كانوا يشجعونه بكل ما أوتوه من قوة ؛ إذ يجمعون بين رجالهم ونسائهم - ما استطاعوا - بأنواع الزواج المختلفة : وبهذه الوسيلة ملثوا بيوتهم بخدم من الجنسين ، من كل الأعمار ، وعمرؤا الدولة بشعب لا يُحصى عددا .

وهذا النسل الذي يعمل دائماً لتكوين ثراء سيّد ، يتوالد حول هذا السيّد بلا حصر : وهو وحده المتكفّل بتغذيتهم وتربيتهم ، وآباؤهم متحررون من هذا العبء ، يستجيبون لنداء الطبيعة ويتكاثرون غير خائفين من تضخم عدد الأسرة .

لقد قلت لك : إن العبيد عندنا مشغولون بحراسة نساءنا ، ولا شيء غير هذا ، أما نحو الدولة فهم في سبات دائم ، بحيث ينبغي أن يוכל إلى عدد من أحرار الرجال ، ورؤساء الأسر أن يمارسوا الصناعات ، وفلاحة الأراضي التي لا يبذلون فيها إلا أقل جهد .

وليست الحال كذلك عند الرومان : فالجمهورية تستغل هؤلاء العبيد

استغلالا لا حد له . إذ كان لكل من هؤلاء العبيد مبلغ مدّخر بشرط أن يسمح سيده ، وبهذا المبلغ يعمل ويتصرّف حيث تؤهله مهارته ، فهذا يتاجر في العملة ، وذلك يتجه إلى تجارة البحار ، وثالث يبيع السلع بالتجزئة ، ورابع يمارس صناعة ميكانيكية ، أو يستأجر الأرض ويستغلها . ولا تجد أحداً منهم إلا وهو يبذل وسعه في استغلال هذا المدّخر استغلالا يحقق له في آن واحد رغد العيش في عبوديته الحاضرة ، والأمل في حرية مستقبلية: وهذا السلوك أدّى إلى إيجاد شعب عامل حيث به الفنون والصناعات .

هؤلاء العبيد الذين صاروا أغنياء بدأ بهم وعملهم تحرّروا وصاروا مواطنين . وبذلك تتجدد الجمهورية باستمرار ، وتستقبل في أحضانها أسرا جديدة كلما هلكت أسر قديمة .

ربما وجدت في رسالتى المقبلة فرصة لأثبت لك أنه كلما زاد عدد الناس في دولة ازدهرت التجارة فيها ، وسأثبت لك كذلك بسهولة أنه كلما ازدهرت التجار فيها زاد عدد الناس : وهذان أمران متعاونان ، يتأثر أحدهما بالآخر حتما .

وإذا كان الأمر كذلك ، فكم من العبيد العاملين يتكاثرون ، ويعظم عددهم ! إن الصناعة والرخاء يوجدانهم ، وهم من جانبهم تزدهر بهم الصناعة ، ويتحقق الرخاء .

من باريس في ١٦ من شعبان سنة ١٧١٨ .

الرسالة السادسة عشرة بعد المائة من أدركك إلى الشخص نفيسة

تسكلمنا قبل عن البلاد الإسلامية ، وبحثنا عن السبب الذي من أجله كانت أقل سكاناً من الأقاليم التي كانت خاضعة لسلطان الرومان : ولنبحث الآن عما أحدث هذه الظاهرة عند المسيحيين .

ذلك أن الطلاق مسموح به في ديننا ، محرم عند المسيحيين . وهذا الفارق الذي يبدو لأول وهلة أن أثره هين ، له نتائج خطيرة محسوسة لدرجة لا يكاد الإنسان يصدقها .

إن تحريم الطلاق لا يقضى فقط على حلاوة الزواج ، بل إنه كذلك يحدد نهايته ، فإنهم إذ يريدون بتحريم الطلاق إحكام عقد الزواج يعملون على حلها ، وبدلاً من أن يربطوا به بين القلوب — كما يزعمون — يفصلون ما يينها إلى الأبد .

وفي العقد الذي ينبغي أن يكون حراً إلى أبعد مدى ، وأن يحسب فيه للقلب حساب كبير . استعمل المسيحيون فيه المضايقة والإلزام ، وتحكموا في مصائر الناس . ولم يحسبوا حساباً لتنافر الأذواق ، ولا للزوات ولا لعدم توافق الأمزجة . وأرادوا أن يثبتوا القلوب على حال واحدة ، وهي أكثر الأشياء في الكون تغيراً وتقلباً . وربطوا من غير تردد ولا أمل بين شخصين يضيق كل منهما بصاحبه متنافرين أكثر أوقاتها . وهم بذلك يفعلون فعل الطغاة الذين ربطوا الأحياء بأجساد الموتي .

لا شيء يؤثر في العلاقة الزوجية كرخصة^(١) الطلاق : فالزوج والزوجة يتحملان متاعب الحياة الزوجية ، ويحملهما على الصبر في تحملها عليهما أنهما يملكان في أى وقت أن يضعاً حدّاً لنهاية هذه المتاعب بالطلاق ، وهما يحتفظان غالباً بهذا الحق مدى الحياة ولا يستعملانه لسبب واحد هو شعور كل منهما بأنه حرّ يستطيع أن يستعمله متى شاء .

ولست الحال كذلك عند المسيحيين ، فإن متاعبهم الحاضرة تؤثّرهم من المستقبل : ولا يرون من مكاره الزواج إلا دوامه ، أعنى أزليّته ، ومن هنا يأتى السأم والشقاق والاستخفاف بالزوجية ، ولذلك أثره فى تناقص التناسل ؛ إذ لا تنقضى ثلاث سنوات على الزواج حتى تهمل حقوقه الأساسية ، ثم يقضى الزوجان معاً ثلاثين سنة فى علاقة فائرة ينشأ عنها انفصالات داخلية فى عنف الانفصالات العلنية ، بل ربما كانت أسوأ أثراً منها : وكل من الزوجين يعيش بجانب الآخر ، ولذلك أثره فى ذرية المستقبل . وسرعان ما يمل الزوج زوجته الأبدية ، ويستسلم لبنات الهوى : وتلك تجارة مخزية من أضرّ الأشياء بالمجتمع ، لا تقصد ما يرمى إليه الزواج ، وإنما أكثر شيء فيها عرض المتع .

فإذا ارتبط شخصان هذا الرباط ، وكان أحدهما عديم الأهلية للزواج ولتكاثر النوع ، سواء أكان ذلك لضعف بنيتة ، أم لكبر سنه فإنه يقبر الآخر معه ، ويجعله عقياً مثله تماماً .

فلا ينبغي إذن أن نعجب إذا رأينا كثيراً من الزواج عند المسيحيين لا يثمر إلا عدداً قليلاً من المواطنين .

(١) الرخصة فى الشرع ما تسمح به الشريعة تيسيراً على الناس كفطر المسافر ، وكالطلاق عند تعذر الوفاق بين الزوجين . (المراجع)

ألغى الطلاق : ولا وثام يرجى للزواج الذى يتم بلا توافق ، ولم تعد النساء تنتقل - كما كانت الحال عند الرومان - إلى أيدي عدد كبير من الأزواج الذين كانوا يحرصون على أن يظفروا منهن في طريقهم بأوفر نصيب .

وأستطيع أن أقول : إذا كانت جمهورية مثل جمهورية لاسيديمونيا التى يضيق فيها المواطنون دائماً لقوانينها الغريبة الدقيقة ، والتى لم يكن فيها إلا أسرة واحدة هى الجمهورية ، قد قررت أن الأزواج لا بد أن يغيروا زوجاتهم كل سنة - فإن ذلك يضمن لها شعباً لا يحصى عدده .

لأنه من الصعوبة بمكان أن يفهم المرء جيداً الباعث الذى حمل المسيحيين على إلغاء الطلاق . إن الزواج عند جميع شعوب العالم عقد مرن ، قابل لجميع الشروط ، ولم يخرج على ذلك إلا الشعوب التى تستطيع أن تغضّ من قيمته ، ولم ينتبه المسيحيون إلى هذا الاعتبار ، وصعب عليهم أن يفكروه لنا : إنهم لا يقيمونه على أساس اللذات الحسية ، بل على العكس من ذلك - كما قلت لك آنفاً - يبدو أنهم يريدون أن ينفوا عنه اللذات الحسية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وهذا خيال ورمز ، وشيء ما مبهم لا أفهمه مطلقاً

من باريس في ١٩ من شعبان سنة ١٧١٨ الميلادية .

الرسالة السابعة عشرة بعد المائة من أدركك إلى شخص نقيس

إن تحريم الطلاق لم يكن السبب الوحيد في قلة عدد السكان في البلاد المسيحية : فالعدد العظيم من الخصيان الذين يعيشون بينهم لا يمكن إغفاله وسأتحدث عن القساوسة والرهبان من الجنسين الذين استسلموا للزهادة الأبدية وهي عند المسيحيين أسمى الفضائل ، لكن في أي شيء ؟ لا أدري لأنني لا أعرف أيّ فضيلة هذه التي لا تستهدف غاية من الغايات .

وأجد الفقهاء منهم تتضارب أقوالهم تضارباً يئسنا إذ يرون الزواج مقدساً ، ويرون في الوقت نفسه أن العزوبة وهي الحالة المقابلة له أعظم تقديساً ، دون رعاية لمبادئ أو أصول أساسية تنتهي إلى أن الخير دائماً هو الأفضل .

وقد كثر عدد الذين ألفوا العزوبة إلى درجة هائلة . والآباء في الماضي كانوا يثدنون أطفالهم في المهد ، والآن يهبونهم الكنيسة في الرابعة عشرة من عمرهم ، والنتيجة في الحالين واحدة . وإن هذه الرهينة أبادت عدداً لم تُبد مثله الأوبئة ولا الحروب الدامية . فكثيراً ما ترى في الأديرة أسراً أقامت بها إلى الأبد ، لا تنجب طفلاً ، ولا تعمل عملاً ، بل تعيش عيالا على غيرها من الناس . إن هذه الأديرة بيوت مفتوحة دائماً لكنها أشبه شيء بحفر عميقة تقبر فيها الأجيال المقبلة .

هذه السياسة تخالف تمام المخالفة ما درج عليه الرومان من سنّ
قوانين لعقاب من أبى الزواج ، ويريد أن يتمتع بحريته التي تتعارض
والصالح العام .

لنى لا أحدثك هنا إلا عن الكاثوليك . أما البروتستنت فقد
أباحوا الزواج وإنجاب الأطفال لجميع المسيحيين ، فلم تعد شكوى بعد ذلك
للقسس ولا للرهبان . وإذا عدنا بأفكارنا إلى نشأة هذا المذهب ، وأيامه
الأولى لم نجد طعنا ما وجه إليه بعدم الاعتدال ، فلا ينبغي إذاً أن نشكّ
فى أن هذا المذهب قد خفف من وطأة الدين عن كاهل المسيحيين
إذ أباح لهم جميعاً أن يتزوجوا ، وكسر الحاجز بين الإسلام والمسيحية
فى هذا الأمر .

ومهما كان الأمر فإنه مما لا شك فيه أن الدين خول البروتستنت
مزية كبرى لم يظفر بها الكاثوليك .

وأستطيع أن أقول أن أوروبا نجحها الراهنة لا يمكن أن تظل بها
الكاثوليكية أكثر من خمسة قرون . فقبل أن تنهار أسبانيا كان
الكاثوليك أعظم قوة وأكثر عدداً . ولكن البروتستنت ظلوا يكثر
ويقوون شيئاً فشيئاً حتى ساووا الكاثوليك ، وسيثرون ويقوون على مر
الزمان بينما يضعف الكاثوليك .

ونشأ عن ذلك ، — كما هو الواقع — أن تكون الأقاليم البروتستنتية
أكثر سكاناً وأوفر عمراً : أولاً : لأن الضرائب فيها زادت زيادة كبيرة
مناسبة لعدد الذين يدفعونها ، وثانياً : لأن الأرض زرعت بعناية أتم ،
وثالثاً : لأن التجارة ازدهرت ازدهاراً عظيماً لأن النامس يملكون ثروات
يستغلونها ولهم حاجات كثيرة يجدون لسدها موارد متعددة . ومن

المشاهد أنه إذا لم يوجد العدد الكافي لزراعة الأرض فإن التجارة تموت ، وإذا لم يكن هناك العدد الضروري لمزاولة التجارة فإن الزراعة تضمحل ، أى أن التجارة والزراعة شديدا الارتباط فلا تقوم إحداهما إلا على الأخرى ، كما تضمحل كلتاهما للسبب الذى تضعف به إحداهما .

أما عند الكاثوليك فلم تهمل زراعة الأرض فحسب ، بل إن النشاط الحيوى كله لحقه الضيم ، واقتصر على تعلم خمس كلمات أو ست من لغة ميتة فإذا حصلها أحدهم لم يجد من الضروري أن يعنى بثروته ، وآثر الحياة الهادئة فى الدير على الحياة العامة التى تتطلب العرق والنصب .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إن الزهبان استولوا على معظم أموال الدولة ، وهم جماعة جشعة ، تأخذ ولا تعطى أبداً ، وتسكدس دائماً ما يرد إليها لتسكون به رؤوس أموال شلاء طالما كانت فى أيديهم . وشلل المال يصيب حركة الحياة كلها من تجارة وفن وصناعة بالشلل ، ولا يعود المال متداولاً بين الناس .

وليس هناك مطلقاً ملك بروتستنتى لا يفرض على رعاياه من الضرائب عشرة أمثال ما يفرضه البابا على رعيته ومع ذلك فإن هؤلاء الآخرين مساكين بينما يعيش الآخرون فى رغد . والتجارة تشيع الحياة فى كل شىء عند الأولين ، على حين تسبب الرهينة الموت فى كل مكان عند الآخرين .

باريس فى ٢٦ من شعبان سنة ١٧١٨

الرسالة الثامنة عشرة بعد المائة من أدركك إلى شخص نقيس

لم يعد لدينا ما نقوله عن آسيا وأوربا ، فلنمض إلى إفريقيا . على أن الإنسان لا يستطيع أن يتحدث إلا عن سواحلها ؛ لأنه لا يعرف شيء عن داخلها .

إن سواحل البربر — حيث استقر الدين الإسلامي — ليست آهلة بالسكان كما كانت أيام الرومان ، وذلك للأسباب التي ذكرتها لك آنفا .

أما سواحل غينيا فكان من الضروري أن تخلو من سكانها بشكل مرعج منذ مائتي سنة ، إذ كان صغار الملوك ورؤساء القرى يبيعون رعاياهم للملوك أورنا ليحملوهم إلى مستعمراتهم في أمريكا .

هناك أمر عجيب: ذلك أن أمريكا التي تستقبل على مرّ السنين كثيراً من السكان الجدد ما زالت هي نفسها مقفرة ، ولم تستفد من النقص المستمر الذي منيت به إفريقيا .

إن هؤلاء العبيد الذين نقلوا إلى جوّ آخر — يختلف عن جوهم — يهلكون آلافاً كما أن أعمال المناجم التي يعمل فيها أهالي البلاد والأجانب دون توقف ، والروائح السكرية التي تتصاعد من هذه المناجم ، والزئبق الذي لا بد من استخدامه دائماً . كل هذه الأشياء تهلكهم ، ولا عوض عنهم .

فليس هناك جنون أخش من أن يهلك الإنسان عدداً لا حصر
له من الرجال في سبيل الحصول على الذهب والفضة من جوف
الأرض . هذان المعدنان في حد ذاتهما لا فائدة منهما ، ولم يكونا
ثروات إلا لأن الإنسان قد اختارهما ليكونا رمزاً لها

من باريس في آخر شعبان سنة ١٧١٨ .

الرسالة التاسعة عشرة بعد المائة من أدركك إلى شخص نفيسة

إن وفرة النسل في شعب تتوقف أحياناً على أصغر الأمور في الدنيا ،
فلا يلزم الشعب في أكثر الأحوال جولة جديدة بخياله ليصل إلى ما يجعله
أكثر عدداً مما هو .

فاليهود يُستأصلون دائماً ، ثم يتجددون دائماً بالتناسل ، فيعوضون
ما يفقدونه من عددهم ، وما تذهب به عمليات إبادةهم المستمرة ، لآمل
وحيد عند جميع الأسر هو أن كل أسرة تأمل أن يظهر منها ملك عظيم
يصير سيد العالم .

إن ملوك الفرس القدماء لم يظفروا بالآلاف المؤلفة من الرعايا
إلا بسبب شريعة الحكماء ، التي توحى بأن أحب الأعمال التي يُرضى بها
الإنسان ربّه هي أن ينجب طفلاً ، أو يحرث حقلاً ، أو يزرع شجرة .

وإذا كان في رحاب الصين شعب وافر العدد . فما ذلك إلا لنوع
من التفكير ، فالأطفال يعتبرون آباءهم كآلهة ، ويقدمونهم مثلها في هذه
الحياة ، ويكرّمونهم بعد مماتهم بقرايين ، ويعتقدون أن أرواح أسلافهم
تتلاشى في الخالق ثم تستأنف حياة جديدة ، وذلك دفع كل صيني إلى
إكثار عدد أسرة خاضعة تماماً لهذه الحياة ضرورية لحياة أخرى .

ومن جهة أخرى تقفر البلاد الإسلامية من السكان على مرّ الأيام
لزعم له عندهم حظ عظيم من القداسة ، وما كان ليثمر عندهم آثاراً ضارة
لو لم يكن متأصلاً في نفوسهم ، يقولون : نحن نعتبر أنفسنا سائحين ،
فلا ينبغي ألا تفكرت إلا في وطن آخر : فالأعمال النافعة الدائمة ، والعناية
بتحقيق ثروة لأطفالنا ، والمشروعات التي تمهّد العيش لأجل في حياة
قصيرة عابرة تبدو لنا نوعاً من الطيش . ونحن مطمئنون إلى الحاضر
غير قلقين من المستقبل : فلا ينبغي أن نجهد أنفسنا لافي ترميم المنشآت
العامّة ، ولا في عمارة الأرض الجذبة ، ولا في زراعة تلك التي تثمر فيما
عنايتنا ، ونعيش في خدر عام ، ونُدع كل شيء للقدر (١) .

إنها فكرة طائشة أقامت عند الأوربيين نظام انفراد الولد البكر
بالميراث وهو نظام يتعارض وتكاثر النسل لأنه يحمل الأب على توجيه
اهتمامه بولد واحد من أبنائه ، ويغضى عن سائرهم . وما يحمله على تنمية
الثروة لفرد منهم يتعارض وتكوين الثروة لأبناء كثيرين ، وذلك يدمر
المساواة بين المواطنين والمساواة مصدر الرّغد .

من باريس في ٤ من رمضان سنة ١٧١٨ .

(١) الإسلام مع تميّده الحياة الآخرة ، ودعوته للعمل لها ، دعا إلى العمل للدنيا ففي
القرآن الكريم نصوص كثيرة تثبت ذلك كقوله تعالى « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا
فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » آية ١٥ سورة الملك . وقوله : « فاذا
قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض ، وابتغوا من فضل الله » سورة الجمعة آية ١٠ . وقد
حضر النبي صلى الله عليه وسلم على العمل وتعمير الأرض في أحاديث كثيرة منها قوله :
(ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده) . وقوله : (ما من مسلم
يفرس غرساً أو يزرع زرعاً فأكّل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة) .
المراجع

الرسالة العشرون بعد المائة من أدركت إلى شخص نفسه

البلاد المسكونة بالهمج تكون — عادة — قليلة السكان، لأن جمهورهم
تكره العمل ، وفلاحة الأرض . وبغضهم للعمل بغض شديد مشموم :
حتى إنهم إذا سخطوا على أحد أعدائهم لم يشف نفوسهم منه إلا أن يحرقوه
بأن يفلح الأرض . ويعتقدون أنه ليست هناك حرف شريفة تليق بهم
إلا الصيد في البر أو البحر .

وكثيراً ما يقلّ الصيد في البر والبحر فيفجعون بمجاعات شاملة .
ولا يدخل في حسابهم أن بعض البلاد يتوافر فيها الصيد من الوحش
والطير والسمك بدرجة تكفل العيش لشعب كبير ، ولا يدركون
أن الحيوان يفرّ دائماً من الأماكن المزدحمة بالسكان .

وفوق ذلك ، فإن قرى الهمج التي يسكن كلاً منها مائتا ساكن
أو ثلثمائة منعزل بعضها عن بعض ، ولكل منها مصالحها الخاصة
المنفصلة عن مصالح الأخرى كأنفصال مصالح دولتين كبيرتين ؛
فلا تستطيع أن تنهض لأنها لا تملك موارد الدول الكبرى التي تتكافل
أجزاؤها ! ويتعاون بعضها مع بعض .

وعند هؤلاء الهمج عادة أخرى لا تقل ضرراً عن الأولى : عادة

قاسية : هي أن الحوامل من النساء يُجهضن حتى لا يتأذى أزواجهن
بمنظرهن منتفحات البطون .

وهنا بعض القوانين الصارمة لإزاء هذه الفوضى تصل إلى
درجة الهوس : فكل بنت لم تسجل حملها عند الحاكم تعاقب بالموت
إذا مات جنينها ، ولا يشفع لها حياؤها ولا خجلها ، ولا الحوادث
التي تتعرض لها .

من باريس في ٩ من رمضان سنة ١٧١٨ .

الرَّسَالَةُ الْوَاحِدَةُ وَالْعَشْرُونَ بِعِدَالَتِهِ مَنْ أُوذِيَ بِكَ إِلَى أَشْخَصٍ نَفْسِهِ

النتيجة المألوفة للجاليات ، أنها تضعف البلاد التي تُخرج منها ، دون أن تعمّر البلاد التي تُرسَل إليها .

يجب أن يظل الناس حيث هم ، لأن هناك أمراضاً تحدث من تغيير هواء جيّد ، بهواء رديء ، وأخرى تحدث من مجرد التغيير .

إن الهواء يحمل كالنبات ذرات الأرض لكل قطر من الأقطار ، وهكذا يتحدّد مزاجنا ، فإذا انتقلنا من بلد إلى بلد مرضنا . وبما أن للسوائل قواماً معيّنأ ، وللجامدات تركيباً خاصاً ، فكل من النوعين له درجة معينة من الحركة لا يحتمل دونها درجة أخرى ، ويأبى أىّ وضع جديد .

وحينما يكون قطر مقفراً من السكان فذلك ينبغي بأن هناك عيباً خاصاً في طبيعة جوّه : ولذلك إذا أخذنا جماعة من الناس من جوٍّ موافق لهم لنرسلهم إلى بلد ما فإن ما يحدث في الواقع هو عكس ما نقصد .

وقد عرف الرومان ذلك بالتجربة ، إذ أرسلوا جميع المذنبين إلى سردينية ، وأرسلوا إليها اليهود . وكان لزاماً أن يتعرّضوا عن فقدهم ، والواقع أن الاحتقار الذي يكنونه لهؤلاء البائسين هوّن عليهم فقدهم .

والشاه عباس العظيم عندما أراد أن يمنع الأتراك من إمداد جيشهم

الكبير على الحدود أخرج أكثر الأرمن من بلاده ، ورَحَّل أكثر من عشرين ألف أسرة إلى مقاطعة جيلان فهلك أكثرها في زمن وجيز.

وهجرة الشعوب إلى القسطنطينية لم يتحقق منها نجاح مطلقاً .

وهذا العدد الهائل من الزوج الذين تحدثنا عنهم آنفاً ما عمروا أمريكا مطلقاً .

فيجب أن نعترف إذن أن عمليات الفناء الكبيرة ليس من اليسير إصلاحها ، لأن أى شعب إذا نقص إلى درجة معينة ، فإنه سيظل على حاله من النقص ، إلا إذا عرضت له فرصة للانتعاش والزيادة ، ولكن ذلك يحتاج إلى قرون من الزمان .

وفى حال نقص السكان ، فإن أقل الأحوال التي تكلمنا عنها آنفاً إذا أسهمت في النقص فلن يصعب صلاح الأمر بحسب ، بل إن النقص سيستمر يوماً فيوماً حتى يذهب إلى الفناء .

وطرد المسلمين من أسبانيا لا يزال ملحوظ الأثر كأول يوم حدث فيه ، وبدلاً من أن يُسدَّ الفراغ ، فإنه صار على مرّ الأيام أوسع مما كان .

ومنذ الإبادة في أمريكا ، لم يستطع الأسبان الذين حلوا محل السكان القدماء أن يعمروها . بل الأمر على عكس ذلك ، فبقدر أخرى أن أسمّيه عدلاً إلهياً دمر المدرون أنفسهم وهلكوا على مرّ الأيام .

فلا ينبغي إذن أن يفكر الملوك قط في أن يعمروا الأقطار الواسعة بالجاليات . ولا أقول إن هذا لا ينجح في بعض الأحوال ، فهناك بعض

الأجواء ملائمة جداً للنوع الإنساني فيتكاثر فيها دائماً ، والشاهد على ذلك تلك الجزر التي عمرت بمرضى بركتهم فيها بعض السفن ، فلبسوا فيها العافية في وقت قريب^(١) .

وإذا نجحت هذه الجاليات ، فإنها — بدلا من أن تزيد في سلطان الدولة التي انتقلت إليها — تقاسمها هذا السلطان ، إلا إذا كانت محدودة العدد كتلك التي ترسل لاحتلال بعض المراكز للتجارة .

وأهل قرطاجنة كشفوا أمريكا كالأسبان ، أو على الأقل جزراً عظيمة أقاموا فيها تجارة هائلة ، ولكن هذه الجمهورية الرشيدة عندما رأت سكانها ينقصون حرّمت على رعاياها التجارة والملاحة .

ويمكن أن أقول : إنه بدلا من ترحيل الأسبانيين إلى الهند ، يجب أن ينقل الهنود والمولدون إلى أسبانيا ؛ بل يجب أن يُردّ إلى هذه المملكة جميع رعاياها المشتتين ، وإنه لو احتُفظ بنصف هذه الجاليات العظيمة النازحة لأصبحت أسبانيا القوة التي يهرب جانبها أكثر من أي قوة في أوروبا .

ويمكن تشبيه الإمبراطوريات بشجرة امتدت فروعها في جميع الأرجاء ، وامتصّت عصارة الساق ، مع أنه لا غناء فيها إلا أن تمدّ ظلها .

وليس هناك عبرة للبلوك الذين يندفعون في الغزو إلى مدى بعيد كالبرتغال والأسبان ، هاتان الأمتان في غزوهما بمالك عظيمة بسرعة

(١) لعل المؤلف يشير إلى جزيرة بوربون .

فائقة كانوا متعجبين من انتصاراتهم أكثر من عجب الشعوب المهزومة من هزيمتهم ، وفكرتا في الوسائل التي تحتفظان بها بالممالك التي فتحها ، وكان لكل منهما طريق في السياسة يختلف عن طريق الأخرى .

أما الأسباب فإنهم ليأسهم من أن تَظَل الشعوب المهزومة في ولاء لهم ، اختاروا أن يبيدوهم ، ویرسلوا إليها من أسبانيا جماعات موالية : ولم تنفذ مطلقاً خُطّة فضیحة بمثل هذه الدقة . فرأى الناس شعباً يبلغ عدده سكان أوروبا كلها يختفي من على سطح الأرض منذ وصل إليها هؤلاء الهمج ، الذين بدا لهم إذ كشفوا بلاد الهند أن يروا الناس في الوقت نفسه إلى أي مدى تبلغ القسوة .

بهذه الوحشية احتفظوا بهذا القطر تحت سلطانهم . ومن هنا تستطيع أن تحكم كم تكون الغزوات مشثومة مادامت لها مثل هذه النتائج : وأخيراً لعل هذا الدواء المزعج دواء فريد من نوعه . وإلا فكيف يمكن الاحتفاظ بطاعة الملايين من الناس ؟ وكيف يمكن مساندة حرب أهلية في مكان قصي ؟ وماذا يمكن أن يحدث إذا أعطيت هذه الشعوب وقتاً تُفِيق فيه من دهشها الذي أصابها هؤلاء الآلهة الجدد ، ومن الخوف من أن تصفحهم قوى هذه الآلهة ؟

أما البرتغاليون فاتخذوا طريقاً مضاداً لطريق الأسباب : لم يستعملوا القسوة : ولهذا طردوا وشيكا من جميع البلاد التي فتحوها . أما الهولنديون فقد أعانوا ثورة هؤلاء الشعوب ، ثم استغلوها لمصلحتهم .

من من الملوك يرغب في حظ كحظ هؤلاء الفاتحين ؟ ومن يجب

الفتوح في مثل هذه الأحوال ؟ إن بعض هؤلاء الفاتحين طرد من فورهم ،
وبعضهم ترك البلاد المفتوحة خراباً ، وجعل بلاده هو خراباً مثلها .

إن مصير الأبطال الذين يدمرون بالغزو بلاداً يفقدونها وشك
فتحها ، والذين يخضعون أمما يُضطرون هم أنفسهم إلى تدميرها كحال
هذا الأحق الذي يبدد ماله في شراء تماثيل يرميها في البحر ، أو مرايا
يحطمها فور شرائها .

من باريس في ١٨ من رمضان سنة ١٧١٨ .

الرسالة الثانية والعشرون بعد المائة
من أدركك إلى شخص نفسه .

إن رفق الحكومات بالرعية يساعد بشكل عجيب على تكاثر النوع
الإنساني وفي جميع الجمهوريات دليل واضح على ذلك ، وأكثر ما يتضح
هذا في سويسرة وهولندة أسوأ بلاد أوربا طبيعة أرض ، وأكثرها
— مع ذلك — سكانا .

وليس شيء يجذب الأجانب إلى بلد ما كالحرية ، ورغد العيش الذي
ينشأ عنها دائماً . أما الحرية فتُطلب لذاتها ، وأما رغد العيش فيسعى إليه
الناس حيث يكون بدافع الحاجة .

والنوع يتكاثر في البلاد التي تضمن للنسل ما يعيشون به ، دون أن
ينقص ذلك من رزق الآباء .

والمساواة كذلك بين المواطنين تثمر عادة شيئاً من المساواة في
الثروات ، وتُشيع الرغد والحياة في جميع الهيئات السياسية ، وفي أرجاء
البلاد كلها .

وليست الحال كذلك في البلاد التي تخضع للحكم المطلق حيث يملك
الملك والحاشية وبعض المحظوظين جميع الثروات ، بينما يئن سائر الشعب
من الفقر المدقع .

إن الإنسان إذا لم يكن في يسر ، وأحسن أنه ، إذا تزوج ، نسل

أطفالاً أفقر منه أعرض عن الزواج ، وإذا تزوج خشي أن يكون له عدد من الأطفال قد يرهقون ثروته ، أو يهبطون بمستوى معيشته .

واعترف بأن الرجل البدوي أو الفلاح — إذا ما تزوج — نسل بلا مبالاة سواء أكان غنياً أم فقيراً ، ولا يحسب حساباً للغنى أو الفقر ، لأن عنده الميراث المضمون الذي سيخلفه لأولاده ، ذلك الميراث هو المعشوق ، فلا شيء مطلقاً يمنع من الانطلاق مع غريزته الطبيعية انطلاقاً أعمى .

ولكن أى فائدة لدولة ما من عدد كهذا من نسل يضوى من الفاقة ؟ إنهم يكادون يهلكون إثر ولادتهم ، فلن يتكاثروا أبداً . وهم ضعاف نحاف يموتون بالتجزئة بطرق شتى على حين تحتاج سائرهم الأمراض الشعبية السائدة التى تنشأ دائماً عن الفاقة وسوء التغذية ومن ينجو منهم من الموت ويصل إلى سن الرجولة محروماً من قوة الرجولة ، وظل في هزال بقية حياته .

والناس كالثبات لا يتزعزع مطلقاً إلا إذا غنى بزراعته ، لذلك ينقرض النوع الإنسانى أو ينحط في الشعوب الفقيرة .

وفرنسا يمكنها أن تعطينا مثلاً لكل هذا ، ففي الحروب الماضية دفع النسل إلى الزواج وهم في سن مبكرة ، وفقير مدقع ، خوفاً من التجنيد . ونشأ عن هذا الزواج عدد هائل من النسل فقدتهم فرنسا إذ قضى عليهم الفاقة والجوع والمرض .

إذا رأينا هذا تحت سماء سعيدة ، وفي مملكة لها حظ من الحكم الصالح كفرنسا ، فماذا عساه يحدث في الممالك الأخرى ؟ .

باريس في ٢٣ من رمضان سنة ١٧١٨ .

الرسالة الرابعة والعشرون بعد المائة

من أوزبك إلى رعدي في فيليس

ماذا عسى أن يكون الدافع للأمراء إلى هذا الكرم العظيم الذي يقدونه على رجال الحاشية؟ أيريدون أن يستحوذوا عليهم؟ لقد ملكوهم كأنهم ما تكون الملكية، ومن ناحية أخرى إذا كانوا قد كسبوا بعض الرعية بالعطايا، فقد خسروا منها عدداً غير محدود بالحرمان.

وحين أفكر في حال هؤلاء الأمراء الذين يحيط بهم قوم جشعون لا يقنعون مطلقاً لا أملك إلا الرثاء لهم. ويضاعف ألمي من أجلهم أنهم لا يستطيعون مقاومة المطالب المرهقة دائماً لأولئك الذين لا يطالبونهم بشيء مطلقاً.

وكما استمعت إلى ما يسبغونه عليهم من الهبات والمكرات والأموال سارعني آلاف الخواطر، وتزاحمت في نفسي الأفكار، وبدأ لي أن أعلن هذا العلاج:

«من الشجاعة التي لا تكل أن يطلب منا بعض أتباعنا منحاً درجوا على طلبها من جلالتنا، ونضطر آخر الأمر إلى أن نستجيب إلى ما طلبوه مع كثرته، مقابل ما قاموا به حتى الآن من أياد جليظة في تأييد عرشنا.

لقد ذكروا لي أنهم منذ ارتقينا العرش لم يتخلفوا قط عن المشول

بين أيدينا عندما نهب من نومنا ، وأتينا دائما نراهم واقفين في طريقنا
ثابتين كالأوتاد ، وأن أعناقهم تشرّب من وراء أعلى الأكتاف
ليراجلنا .

كما تلقينا من الجنس اللطيف طلبات كثيرة يرجوننا أن نغيرهن اهتمامنا
لأنهن يحين حياة قاسية ، وبعضهن من الطاعنات في السن قد التمس أن
نذكر أنهن كنّ يزين بلاط أسلافنا من الملوك ، وأن قواد الجيوش
إذا كانوا قد شدوا من أزر الدولة بأعمالهم الحربية فإن دسائسهن لم تكن
أهل خطراً في بناء الدولة .

ورغبة منا في معاملة أصحاب هذه المطالب بالكرم ، وتحقيق مطالبهم ،
أمرنا بما هو آت :

يجب أن يخصم من كل مزارع له خمسة أولاد خمس نصيبه من
الخبز كل يوم ، وعلى الآباء أن يسووا بين الأولاد فيما بقي لهم
بعد ذلك .

ومحرم — بصفة قاطعة — على من يقومون بزراعة أراضيهم الموروثة
أو يحملون لقب صاحب مزرعة أن يصلحوا هذه الأراضي مهما كان
الجزء الذي يتطلب الإصلاح صغيرا . وأمرنا جميع الأشخاص الذين
يمتهنون الحرف الوضيعة والآلية التي لا تليق بجلال مكاتنا ألا يشتروا
من الآن ملابس خاصة بهم أو بنسائهم أو أطفالهم إلا مرة كل أربع
سنوات ، كما يحرم عليهم بتاتا أن يحتفلوا في أسرهم بتلك الأعياد الأساسية
التي اعتادوا أن يحتفلوا بها كل سنة .

وبما أنه قد بلغنا أن جمهرة البرجوازيين في مدننا الكبيرة يستولى

على تفكيرهم الرغبة في أن يزوجوا بناتهم من الأشراف ، وهن لا يبلغن
هذا الشرف إلا بتواضع محزن محرج للأشراف ، فإتينا لا نسمح لهن بهذا
الزواج إلا إذا وصلن إلى السن المحددة بأوامرنا ، وإذ ذاك يسمح
لهن ما حرم عليهن من قبل . وحظرنا على رجال التمتضاء أن يمارسوا
تربية أولادهم .

(باريس في غرة شوال سنة ١٧١٨)

الرسالة الخامسة والعشرون بعد المائة مسيكاالى

يحار المرء كثيرا إذا نظر في جميع الأدباء ليعرف فكرة عن النعيم الذى أعد للذين عاشوا عيشة مستقيمة . يفرع الأشقياء - بسهولة - بما يهددهم من عذاب يمتد آمادا طويلة . ولكن لا يعلم ما ينتظر الصالحين: والظاهر أن من طبيعة المتع أن تكون قصيرة الأمد ، ولا يكاد الخيال يعطى لها صورة أخرى .

لقد رأيت أوصافا للفردوس جديدة بأن تجعل ذوى الذوق السليم يعزفون عنها : فبعضهم يتغنى دائما بظلالها السعيدة ، وبعضهم يحكون عليها بأنها عذاب بنزهة أبدية ، وفريق ثالث يجعل الاتقياء يحلبون في الملاء الأعلى بعشيقات الدنيا ، ولا يظنون أن مائة مليون من السنين كفيلة بأن تنفى عنهم الميل إلى هذه الشهوات الجنسية .

وأذكر في هذه الفرصة قصة سمعتها تحكى لرجل كان في بلاد المغول ، تدلنا على أن رجال الدين الهنود ليسوا في تفكيرهم عن متاع الفرس أقل عقما من سواهم . والقصة هي أن زوجة جاءت عقب وفاة زوجها - في حفل - إلى حاكم المدينة ، تطلب إليه أن يسمح لها بأن تحرق نفسها . فرفض الحاكم ذلك رفضا باتا ، لأن البلاد الخاضعة للإسلام أبطلت هذه العادة القاسية .

فلما وجدت توسلاتها عاجزة عن تحقيق رغبتها انطلقت تقول في غضب شديد : ما أشد حرجنا ! ألا يسمح لامرأة مسكينة أن تحرق نفسها إذا أرادت ذلك !

هل رأى الناس مثل ذلك ؟ إن أمى وغالتى وأخواتى قد ظفرن بإحراق أنفسهن ! فإذا ذهبت أطلب السماح لى به من هذا الحاكم اللعين ، يغضب ويصرخ فى وجهى كالمسحور ؟ وعرضاً كان هناك شاب برونى ، قال له الحاكم : أيها الرجل الكافر . أنت الذى أوحى إلى هذه المرأة بما فزعها ؟ فقال : لا . ما حدثتها قط . لكن إذا صدقتنى قلت : إنها ستنتفع بهذه التضحية ، لأنها سترضى بها المعبود براهما ، وسيجزئها عنها خير الجزاء ، لأنها ستجد زوجها فى الدار الآخرة ، وستستأنف معه الحياة الزوجية ، فقالت المرأة دهشة : ماذا تقول ؟ سأجد زوجى ثانية ؟ آه ! لن أحرق نفسى من أجله ، إنه كان غيوراً حزينا ، وفوق ذلك كان عجوزاً حتى إنه إذا لم يكن براهما قد أصلح فيه شيئاً فإنه لن يحتاج إلى . أحرق نفسى من أجله ؟ لا ، ولا أنملة لأخلصه من قاع الجحيم .

وقد كان هناك عجوزان برونيان يفتنانى ، ويعرفان كيف كنت أعيش معه ، لم يتورعا عن قول يقولانه لى ، لكن إذا لم يكن لدى المعبود براهما سوى هذه الهدية يقدمها لى ، فإنى أرفض هذا النعيم . سيدى الحاكم ، إنى أريد أن أسلم . ثم وجهت الخطاب إلى الكافر البرونزى قائلة : تستطيع أن تذهب إلى زوجى لتخبره أنى بصحة جيدة .

من باريس فى ٢ من شوال سنة ١٧١٨ .

الرسالة السابعة والعشرون بعد المائة من ريكابي أدرك في

سأنتظرك هنا غداً ، ومع ذلك أرسل إليك رسائلتي التي أتت من أصفهان . أما رسائلي فتحتوي أن سفير جلالة ملك المغول^(١) تلقى أمراً بالخروج من المملكة . وفوق ذلك فقد قبض على الأمير خال الملك ، المكلف أن يريه . واقتيد إلى قصر حبس فيه ، وشدت عليه الحراسة وحرم جميع امتيازاته . وإني متأثر لمصير هذا الأمير ، راث لحاله .

وأعترف لك — يا أوزبك — أنني لم أر طول حياتي دموعاً تسيل من عيني شخص دون أن أتأثر منها .

وإني أشعر بعاطفة إنسانية نحو البائسين ، كأنه لا أناس في الدنيا غيرهم بل إن العظماء الذين أحس في قلبي جفاء نحوهم وهم مرتفعون ، أحجم حالاً يهبطون .

وما يصنع العظماء — في زمن الرخاء — بحنان لا جدوى منه ؟ إن الحنان يقترب كثيراً من المساواة ، لذلك هم يفضلون أن يحترموا الاحترام

(١) يشير المؤلف هنا إلى مؤامرة أطلق عليها «سيلمار» اشترك فيها سفير أسبانيا ، ودوق ودوقة مين ضد الوصي على العرش ، فاقتيد السفير الأسباني سلامار تحت حراسة مهيمنة إلى الحدود ، أما دوق مين فقد سجن في دولانس ونقلت الدوقة إلى قصر ريجون .

الذى لا يؤملون عودته قط . إنهم حينما يهرون من عليائهم ، لا يذكرهم
بعظمتهم إلا رثاؤنا لحالهم .

ولانى لأجد صفة تعوى كثيراً من السذاجة والعظمة فى نفس الوقت .
تترامى لى فى قول ملك كاد يقع فى أيدى أعدائه ، وهو يرى أتباعه
يكون حوله : « لانى أرى فى دموعكم أننى لا زلت ملكا عليكم ، .

من باريس فى ٣ من شوال سنة ١٧١٨ .

الرَّسَالَةُ السَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ بَعْدَ الْمِائَةِ مِنْ رِسَالَةِ إِبْنِ تَيْمِيَّةٍ فِي مَسِيرِهِ

لقد سمعت الناس كثيرًا يتحدثون عن ملك السويد الشهير : إنه كان
يحصّر مكانًا ما في مملكة تدعى بمملكة النرويج ، وبينما كان وحده يتفقد
خندقًا مع أحد المهندسين أصابته ضربة في رأسه فأردته قتيلاً . فقبض في
الحال على رئيس (١) وزرائه ، واجتمعت الهيئات العليا وحكمت بموته .

إنه اتهم بجريمة كبرى : هي أنه خدع الأمة ، فأفقدتها ثقتها بمملكها .
وهي جريمة تستحق - في نظري - أن يعدم ألف مرة .

ذلك لأنها جريمة شنعاء أن يشيء المرء إلى الملك بأقل فرد من رعاياه ،
فكيف إذا كانت الوشاية بأمة بأسرها فتحرمها رعاية من أعدته العناية
الإلهية لإسعادها ؟

إنى أود أن يتحدث الناس مع الملوك ، كما تتحدث الملائكة مع نبينا
الكريم .

وأنت تعلم أنه في الولايم المقدسة ، التي ينزل فيها رب الأرباب من
عرشه الدنيوى الأسنى ليقرب من عبيده - أخذت نفسى بقانون صارم ،

(١) قتل شارل الثاني عشر في حصار فردريك شول بالدنمارك ، في ١١ ديسمبر سنة
١٧١٨ ، وقتل رئيس وزرائه الكونت دى جورنس فى استكهولم ، فى ١٢ من مارس
سنة ١٧١٩ . المراجع

هو أن أخضع لساني الجامح ، فلم يسمع منى أحد مطلقاً كلمة واحدة تند فتؤذى أقل عباده . وفي الأحوال التي تضطرنى إلى الزهد لم أتحوّل قط عن الأمانة .

وفي هذه التجربة التي تختبر إخلاصنا آثرت المخاطرة بحياتي على المخاطرة بفضيلتي .

ولا أدري كيف أنه لا يكاد يوجد مطلقاً ملك شرير ، إلا ووزيره أسوأ منه حالاً ، ولا يكاد يفعل فعله شنعاء إلا بإيحاء من الوزراء ، حتى أن طمع الملوك لا يبلغ ما يبلغ من الخطورة إلا بانحطاط نفوس مستشاريه . ولكن هل تدرك أن رجلاً لم يدخل الوزارة إلا أمس ، وربما لا يكون فيها غداً ، يمكن أن يصبح في لحظة عدو نفسه هو ، وعدو أسرته ووطنه ، والشعب الذي سيتوالد على مر الزمان ، ويعانى ما اقترفه الوزير من ظلم . ؟

للملك نزواته ، والوزير يحركها ، وتبعاً لها يوجه وزارته ، ولا يتجه مطلقاً إلى هدف آخر ، بل لا يريد أن يعرف غير رغبة الملك . ورجال الحاشية يغرونه ويفتنونه بمدائحهم والوزير أشد خطراً بملقه ونصائحه وخططه ، التي يوحى بها إليه ، وبالأسس التي يقترحها عليه .

من باريس في ٢٥ من شعبان سنة ١٧١٩ .

الرسالة الثامنة والعشرون بعد المائة من رسالة إلى أوزبك في

مررت بالأمس فوق « القنطرة الجديدة » مع أحد أصدقائي ، فقابل رجلاً من معارفه ، قال لي عنه : إنه من علماء الهندسة ، ولم يكن في مظهره مطلقاً ما ينم عن ذلك ، لأنه كان ساجحاً في حلم عميق ، وكان على صاحبي أن يجذبه طويلاً من كفه ، وأن يهزّه هزاً ليهوى من خياله وينتبه إليه ، فقد كان مرهق الفكر ، قد أضناه التفكير منذ ثمانية أيام أو تزيد ، وتبادلا التحيات ، والأحاديث الأدبية ، وقادتهما هذه الأحاديث إلى باب مقهى ، فدخلت معهما .

وقد لاحظت أن عالمنا هذا قد استقبل في المقهى بحفاوة من جميع الناس ، وأن نُدل المقهى قد اهتموا به أكثر من اهتمامهم بفارسين كانوا ينتحيان جانباً في المقهى . أما هو فقد بدا أنه وجد نفسه في مكان حبيب إليه ، إذ انبسطت أساريره ، وجعل يضحك كأنه لم يكن يفكر قط في علم الهندسة .

ومع ذلك فقد كان عقله المنظم يزن كل ما يقوله في أثناء المحادثة فكان أشبه بمن هو في حديقة يضرب بسيفه رؤوس الأزهار التي تتسامى فوق مستوى الأزهار الأخرى : وضحية لدقته وسدايه أهين إهانة بالغة كالنظر المرفف يتأذى بالضوء الساطع . ولا شيء يثير اهتمامه مادام حقاً وكذلك كان حديثه غريباً . لقد أتى في ذلك اليوم من الريف مع صديق له

رأى قصر أخفا ، ذا حدائق عظيمة ، لكن هذا العالم لم ير القصر إلا مبنى طوله ستون قدما ، وعرضه خمس وثلاثون قدما ، ولم ير الحدائق إلا مكانا ذا شجر ، مساحته نحو خمسمائة ألف متر مربع ، ولم كان يتمنى لو أن قواعد الفن التصويرى روعيت كما روعيت الممرات التي تظهر متساوية في الاتساع ، وكان يود لو أعطيت لذلك قواعد لا تخطئ . وقد أبدى رضاه عن ساعة شمسية بدیعة التكوين ، وثار بحدة ضد عالم كان قريبا منى ، لأنه لسوء الحظ سأل : هل تعين هذه الساعة الساعات البابلية ؟ وتحدث صحنى عن ضرب قصر فونتارابي بالقنابل ، وشرح لنا فى لحظة خصائص الخطوط التي مرت بها القنابل فى الهواء ، وكان مزهوا بمعرفته هذه الأشياء ، لكن صاحبنا تجاهل ما أصاب هذا المحدث من نجاح . وشكا رجل من إفلاسه فى الشتاء الماضى بسبب الفيضان فأجابه الرياضى : ما قلته لى يثلج صدرى ؛ لأنه يرى أننى لم أكن مخطئا فى ملاحظتى ، وهى أنه لا بد أن يسقط على الأرض هذا العام بوستان على الأقل أكثر مما سقط فى العام الماضى .

وبعد لحظة خرج ، فتبعناه . ولأنه كان ينطلق بسرعة ، ولا ينظر بانقباه أمامه ، فوجىء برجل آخر ، فاصطدما بعنف ، وهذه الصدمة ردت كلا منهما بقوة الى الناحية التى أتى منها لسبب واحد هو سرعتهما ، وجرهما . ولما أفاقا شيئا ما من دوارهما ، قال هذا الرجل واضعا يده على جبهته للعالم الرياضى : « لئننى مسرور لأنك صدمتنى . إذ أن عندى لك خبرا هاما . هو أننى نشرت كتابى عن هوراس » . فأجابه قائلا : كيف ذلك ؟ لقد كان هذا الرجل يعيش منذ ألفى سنة . فقال الرجل : كأنك لم تفهم ما أريد . إنها ترجمة عن هذا المؤلف القديم أظهرتها للناس ، لقد توفرت على إخراجها عشرين عاما .

فقال الهندسى : ما هذا ياسيدى ! إنك لم تفكر منذ عشرين عاماً !
 إنك تتحدث عن غيرك ، وغيرك يفكر لك ! فأجابه : أعتقد ياسيدى
 أننى لم أقدم للناس خدمة عظيمة إذ هيأت لهم أن يقرءوا المؤلفين مجيدين
 مشهورين ؟ فقال العالم الرياضى : لم أقل هذا تماماً : إننى أقدر أكثر من
 أى شخص آخر العبقریات السامية التى ألبستها ثوباً جديداً ، لكنك
 لا تشبههم مطلقاً : لأنك إذا ظلت تترجم لهم ، فلن يترجم لك
 أحد أبداً .

« التراجم كهذه العملة النحاسية التى لها تماماً قيمة القطع الذهبية
 بل إنها أكثر استعمالاً لدى الشعب لكنها ضئيلة دائماً منحة القيمة » .

تريد أن تقول : إنك تنشر يئنا هؤلاء الأموات المشهورين ،
 وأنا أعترف لك بأنك منحتهم حقاً أجساماً ، ولكنك لم تمنحها الحياة ،
 وستظل دائماً فى حاجة إلى أرواح لتحييها .

أما كان أجدر بك أن تبحث جاهداً عن الحقائق النافعة ، بترتيب
 سهل يجعلنا نكشف عنها يوماً بعد يوم ؟ وبعد هذه النصيحة المزدوجة
 فافترقا ولم يكن أحدهما - فيما أعتقد - راضياً عن الآخر .

من باريس فى نهاية ربيع الآخر سنة ١٧١٩ .

الرسالة التاسعة والعشرون بعد المائة

من ريكا إلى

سأحدثك في هذه الرسالة عن فئة من الناس يدعون الصحفيين ،
لأنهم يجتمعون في حديقة نخمة حيث يشغلون فيها دائماً أوقات فراغهم .
لأنهم عديمو الفائدة للدولة ، فأحاديثهم منذ خمسين عاماً ، لا يختلف أثرها
عما لو سكتوا هذه المدة الطويلة . ومع ذلك يعتقدون أنهم عظماء يضطلعون
بأمور عظيمة ، ويعالجون شئوناً ذات آثار جليلة .

إن أساس أحاديثهم فضول تافه مرذول ، ويدعون أنهم نفذوا إلى كل
مكان مهما بلغ خفاء ما فيه ، ولا يسألون مطلقاً بأنهم يجهلون شيئاً ،
فهم يعرفون مثلاً كم امرأة عند سلطاننا العظيم ، وكم يلد على مر السنين .
وبالرغم من أنهم لا يتكلفون شيئاً في التجسس فهم يعلمون ما اتخذ
السلطان من وسائل لإخضاع إمبراطور تركيا ، وإمبراطور المغول .

ولا يكادون يفرغون من الحديث عن الحاضر ، حتى يسرعوا إلى
المستقبل ، ويسبقون القدر ، فيتنبئون بتصرفات الناس : يجذبون قائداً
من يده ، بعد أن يتمدحوه بألف حماقة لم يرتكبها ، ويعدون له ألفاً
أخرى لن يفعلها .

هم يطيطون الجيوش كالكراكى^(١) ، ويسقطون الأسوار كالورق

(١) نوع من الطيور .

السميك (السكرتون) . إن لهم قناطر فوق كل الأنهار . ومالك سرية
بين الجبال ، ومخازن هائلة في الرمال المحرقة ، ولا ينقصهم إلا حسن
الإدراك .

إنى أسكن مع رجل تسلم هذه الرسالة من صحفى ، ولأنها فى نظرى
فريدة فى نوعها ، فإنى أحفظها ، وأبعث بها إليك ، فهاكها :

« سيدى :

إنى قلما أخذع فى تخمينى عن أحداث الزمن . فى أول يناير سنة ١٧١١
تنبأت بأن الإمبراطور جوزيف سيموت فى أثناء العام . حقاً لأنه كان
يتمتع بصحة جيدة ، رأيت أنى أسخر بنفسى لو أنى أوضحت الأمر بكلام
صريح ، لذلك ألغزت فى عباراتى ، ولكن المتعقلين من الناس وافقونى .
وفى السابع عشر من إبريل من السنة نفسها مات الإمبراطور بمرض
الجدرى .

وحينما أعلنت الحرب بين الإمبراطور والأتراك بحثت عن رجالنا
فى جميع أرجاء التويلرى ، وجمعتهم قريباً من الخوض ، وتنبأت بأن
حصاراً سيقع على بلجراد وأنها ستسقط . وكما كانت سعادتى حينما تحققت
نبوءتى ، حقاً إننى فى أثناء هذا الحصار راهنت بمائة درهم على أن المدينة
سوف تسقط فى الثامن عشر^(١) من أغسطس . ولكنها لم تسقط إلا فى
اليوم التالى ، فهل يضيع الرهان لاختلاف يسير كهذا ؟ .

وحينما رأيت الأسطول الأسباني رسا عند سردينية ، قررت أنه

(١) سنة ١٧١٧ .

سيغزوها أعلنت ذلك ، وتحقق القول .. ولزهوى بهذا النجاح قلت :
 إن هذا الأسطول الظافر سيرسو في فيناك ليفتح الميلاينز ، فلما رأيت
 إباءاً لقبول هذه الفكرة دعمتها بأن راهنت عليها بخمسين درهما لكنني
 خسرتها أيضاً ، ذلك لأن هذا الشيطان : «أبروني» — بالرغم من
 المعاهدات — أرسل الأسطول إلى صقلية فخدع بذلك اثنين من السياسيين :
 أنا ودوق سافوي .

كل هذا — ياسيدي — غير مسلكي ، فقررت أن أتنبأ دائماً ،
 وألا أراهن مطلقاً . فيما مضى لم تكن نعرف عادة المراهنة قط في قصر
 التويلزي ، ولم يكن الكونت دي لان^(١) يسمح بها مطلقاً ، ولكن منذ
 أن خالطتنا جماعة من صغار السادة ، أصبحنا لا نعلم من أمرنا شيئاً ،
 فلا نكاد نفتح فمنا لنذيع خبراً ، حتى يتصدى لنا أحد هؤلاء الشبان مقترحاً
 المراهنة ضد ما نقول .

و ذات يوم ، لم أكد أفتح مفكرتي ، وأعدل نظارتي على أنفي ،
 حتى قال لي أحد هؤلاء المغرورين — منتزاً الفرصة بين الكلمة الأولى
 والثانية . « أراهن بمائة درهم أن : لا ، ، فتظاهرت بأنني لم ألق بالال هذا
 الطيش . وشرعت أتكلم بصوت رصين قوى ، وقلت : « إن القائد ...
 حين علم ... ، فقال لي : « هذا خطأ .. إن أخبارك كلها طائشة ، وليس
 لما تقول معنى . » أرجوك ياسيدي أن تدخل عليّ السرور بأن تقرضني
 ثلاثين درهما ، لأنني أصارحك بأن هذه المراهنات قد سببت لي
 ارتباكاً شديداً .

(١) هيج دي ليون . وسيدكر مونتيكيو في هذه الرسالة أنه رئيس الصحفيين .
 وعلى ذلك لا يمكن أن يكون وزيراً كما ذهب المؤلف وهو يكتب هذه الرسالة . (المترجم)

وإني أرسلك إليك صورتى الرسالتين اللتين كتبتهما إلى الوزير . .
لنى ... الخ .

رسالة من صحفى إلى وزير

إبنى أخلص رعايا الملك ، فأنا الذى أرغمت أحد أصدقائى على أن
ينفذ المشروع الذى كنت قد صممته لكتاب أظهر فيه أن لويس العظيم
كان أعظم الملوك الذين استحقوا هذا اللقب . وإنى أعمل منذ أمد بعيد
فى مؤلف آخر سيضيف شرفاً عظيماً إلى شرف أمتنا ، فإذا شاءت
عظمتكم أن تمنحنى امتيازاً بذلك ، فإن خطتى هى أن أبرهن على أنه منذ
بدء الملكية لم يغلب الفرنسيون قط ، وأن ما قاله المؤرخون إلى هذا
الوقت عن مساوئنا هراء وافتراء . وإنى مضطر إلى أن أتصدى لهم فى
مواطن كثيرة . وأستطيع أن أفخر بأننى ذائع الصيت ولا سيما
فى النقد .

إننى يا صاحب الفخامة . . . الخ

* * *

يا صاحب الفخامة

منذ فقدنا الكونت دى لان ونحن نتوسل إليك أن تتفضل فتأذن
لنا بانتخاب رئيس ، لأن الفوضى تسود اجتماعاتنا ، وشئون الدولة لم
تعد تناقش فيها كما كانت تناقش من قبل ، وليس فى حياة شبابنا أى اعتبار
للكبار ، وهم فيما بينهم غير مهذبين ، إنها — حقاً — نصيحة روبام التى

ترى أن الشباب يجب أن يتحكموا في الشيوخ . وعبثاً حاولنا أن نوضح لهم أننا كلنا سلفاً نسيطر في هدوء على التويلري منذ عشرين سنة قبل ولادتهم . وأعتقد أنهم سوف يطردوننا في النهاية ، وأننا سنضطر إلى مغادرة هذه الأماكن التي طالما أثرتنا فيها ذكريات أبطالنا الفرنسيين ، وإلى أن نعتد اجتماعاتنا في حديقة الملك ، أو في أي مكان منعزل . إلخ..

من باريس في ٧ من جمادى الآخرة سنة ١٧١٩ .

الرسالة الثلاثون بعد المائة

من سيكالي

سأحدثك في هذه الرسالة عن طائفة من الناس يسمون الإخباريين ،
يجتمعون في حديقة نخمة ، حيث يقضون دائماً فراغهم . ما أبعدهم عن نفع
الدولة ! فإن أحاديثهم التي قالوها في خمسين سنة لا فرق بين أثرها ،
وبين ما يمكن أن يحدثه سكوتهم هذه المدة الطويلة ؛ ومع ذلك يظنون
أن لهم قدراً ، لأنهم تناقشوا في مشروعات هائلة ، وعالجوا موضوعات
ذات نفع عظيم .

والأساس الذي تقوم عليه أحاديثهم تطلع تافه سمج : فليس هناك
مكتب خفي الأسرار إلا ويدّعون أنهم ولجوا فيه ، ولا يمكن أن يعترفوا
بأنهم يجهلون شيئاً ما ، إنهم يعرفون كم عدد نساء سلطانتنا العظيم ،
وكم يولد له من الأطفال على مر السنين . وبالرغم من أنهم لا يتكفون
شيئاً في الجاسوسية ، فهم يعلون الوسائل التي استخدمها ليقهر إمبراطور
الأتراك ، وإمبراطور المغول .

وما كادوا يستنفدون الحاضر ، حتى انطلقوا إلى المستقبل ، وسبقوا
القدر ، وتنبّأوا بتصرفات جميع الناس . وتناولوا فيما تناولوا قائداً ،
فبعد أن مدحوه بشتى الحماقات التي لم يرتكبها ، أعدوا له منها حماقات
أخرى لم يرتكبها .

إنهم يرفعون الجيوش كالروافع ، ويسقطون الأسوار كأنها من

الورق المقوّى ، وعندهم قناطر على جميع الأنهار ، ومسالك خفية في جميع الجبال ، ومستودعات هائلة في الرمال المحترقة : ولا ينقصهم إلا الفهم السليم .

هناك رجل أسكن معه ، تلقى رسالة من إخبارى ، وقد احتفظت بها ، لأنى رأيتها طريفة وهاكها :

• سيدى

• ندر أن أخطىء فى حدسى عن تصرفات الزمن : فقد تنبأت فى أول يناير سنة ١٧١١ أن الإمبراطور جوزيف سيموت فى هذه السنة . ولأنه كان يتمتع بصحة جيدة ، فإنى حقيقة اعتقدت أنى سأستهدف للسخرية إذا أنا شرحت هذا الموضوع بوضوح ، فألغزت فى كلامى ، لكن الذين يعرفون كيف يفكرون فهموا ما أعنى جيدا . وفى السابع عشر من إبريل مات الملك بالجدرى .

• ولما أعلنت الحرب بين الإمبراطور والأتراك ، ذهبت لمقابلة سادتنا فى جميع أركان قصور التويلرى ، واجتمعت بهم بالقرب من الحوض ، وتنبأت لهم بأن بلجراد ستحاصر ، ويستولى عليها ، وكم كنت سعيدا إذ تحققت نبوءتى . وحقيقة راهنت بمائة دينار . فى أثناء الحصار ، على أن الاستيلاء على المدينة سيكون فى ١٨ أغسطس ، فاستولى عليها من الغد : أيمكن أن أخسر الرهان من هذا الحظ من التوفيق ؟

• وحينما رأيت الأسطول الأسباني يرسو فى سردينية قلت : إنه سيغزوها ، وقد تحقق ما قلت . وقد قلت وأنا مزهو بهذا التوفيق : إن هذا الأسطول حليف النصر سيذهب إلى فينال ليقاتل أهل ميلان . فلما رأيت معارضته لقبول هذه الفكرة أردت أن أويدها باعتذار ، فراهنت

بخمسين دينارا ، وقد خسرتها كذلك . ذلك لأن اللعين البيروني أرسل أسطوله إلى سيسيليا بالرغم من قيام المعاهدات نخدع في وقت واحد سياسيين عظيمين : أنا ودوق سافوي .

كل ذلك — ياسيدى — عدل بي عن طريقى عدولا جعلنى أقرر أن أتنبأ دائماً وألا أراهن مطلقا . وقديما كنا في قصور التويلرى لانعرف مطلقا عادة المراهنة ، وقبلنا كان المرخوم الكونت « L » يسمح بها . ولكن عند ما اندست فينا فئة من الشبان واختلطوا بنا لم ندر أين نحن منهم . وما هو إلا أن نفتتح أفواهنا لنقول خبرا حتى يغربنا هؤلاء الشبان بالمراهنة .

و ذات يوم كنت أفتح مفكرتى ، وأريح نظارتى على أنفى فانهز أحد هؤلاء المغرورين اللحنلة التى بين قراءة الكلمة الأولى والكلمة الثانية فقال لى : « أراهن بمائة دينار أن هذا الخبر مكذوب » . وتظاهرت بأنى لم أكرث لهذا الهرس ، وقلت مستأنفا حديثى بصوت أقوى : « سيدى الماريشال . . . عندما علمت . . . » فقال لى الشاب : هذا خطأ إنك تحمل دائما أخبارا غير معقولة ، فليس فى كل ما تقول معنى مألوف . فقلت للباريشال : أرجو يا سيدى أن تسرنى بأن تقرضى ثلاثين دينارا ؛ لأنى أعترف لك أن هذه المراهنات ضايقتنى كثيرا . وإنى أرسل إليك صورتى الرسالتين اللتين كتبتهمما إلى الوزير . وإنى . . الخ .

رسالة من إخبارى إلى وزير

سيدى

إنى من أخلص رعايا الملك الذين يندر أن يظفر بمثلهم . إننى كلفت أحد أصدقائى أن ينفذ المشروع الذى وضعته عن كتاب يبين أن لويس

الرابع عشر كان أعظم الملوك الذين استحقوا لقب : « العظيم » .
ولاني دائب منذ وقت طويل في وضع مؤلف آخر سيكون له أثر عظيم
في تمجيد شعبنا . وإذا شئتم نخامتكم أن تمنحوني امتيازاً فإن خطي أن أبين
أن الفرنسيين لم يهزموا قط منذ بدء الملكية ، وأن ما قاله المؤرخون حتى
الآن عن هزائنا أباطيل أخذت على نفسي أن أصحها في كثير من
المواطن . وأفتخر بأنني لأمع في النقد بوجه خاص ، ولاني ياسيدى . . الخ .

الرسالة الثانية

سيدى

منذ فقدنا الكونت « L » ، ضرعنا إليك أن تتفضل فتسمح لنا
بانتخاب رئيس إذ أن الفوضى شملت مؤتمراتنا ، وشبّون الدولة لم تعد
تناقش كما كانت تناقش في الماضي وشبابنا لا يرعى في حياته أى اعتبار
للكبار ، وهم فيما بينهم غير مهذبين . إنها لصيحة روبروم يفرضها الشبان
على الشيوخ ، وعشنا بينا لهم أننا كنا قوامين متزينين هادئين على قصور
التويلرى منذ عشرين سنة قبل أن يولدوا ، وأعتقد أنهم سيطردوننا منها
آخر الأمر ، وأننا مضطرون إلى هجر هذه الأماكن التي طالمنا أثرنا
فيها أشباح أبطالنا الفرنسيين ، وأن نحرص على عقد مجتمعاتنا في حديقة
الملك ، أو في أماكن أبعد منها ، إلخ . . .

في باريس في ٧ من جمادى الآخرة سنة ١٧١٩ .

الرسالة الحادية والثلاثون بعد المائة من رهيدي إلى رسيكاني بباريس

من أ كثر الأشياء التي أثارت تطلعي عند وصولي إلى أوربا نشأة
الجمهوريات وتاريخها . وأنت تعرف أن أكثر الآسيويين ليسوا محرومين
فقط من التفكير في هذا النوع من الحكم ، بل إن تصورهم لا يمكن
أن يسمح لهم بأن يدركوا أنه من الممكن أن يكون على سطح الأرض
حكم غير الحكم الاستبدادي .

إن الحكومات الأولى في العالم كانت ملكية ، ولم يحدث إلا مصادفة ،
وعلى مرّ القرون أن تكونت الجمهوريات .

ولما دمر الطوفان اليونان ، جاء إليها سكان جدد ليعمروها . وقد
جذبت معظم هؤلاء السكان من مصر ، ومن أقرب أقطار آسيا إليها .
وبما أن هذه الأقطار كانت تحت الحكم الملكي فقد حكم من جاءوا منها
بهذا النوع من الحكم ؛ فلما ثقل عليها طغيان الملوك تمردوا عليهم . وعلى
أنقاض هذه الملكيات قامت الجمهوريات التي كانت أكثر ازدهاراً في
اليونان ، وكانت هي الدولة المتحضرة بين الشعوب الهمجية .

إن حب الحرية ، وكرهية الملوك أثبتت اليونان طويلاً متمتعة
بالاستقلال وامتد منها الحكم الجمهوري إلى آفاق بعيدة . وقد وجدت
المدن اليونانية حلفاء لها في آسيا الصغرى ، وأرسلت إليها جاليات حرة
مثلها ، استغلتها في إقامة سد دون ما يدبره ملوك الفرس .

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ ، بل إن اليونان عمرت إيطاليا ، وإيطاليا
عمرت أسبانيا ، ومن يدري لعل عمرانها قد امتدّت إلى بلاد الغال
(فرنسا) .

ومعلوم أن بلاد الهسبرى العظيمة ، ذات الشهرة في العالم القديم
كانت هي اليونان في الأصل ، رآها جيرانها موطن النعيم : ولكن
اليونانيين لم يجدوها قط بلاد السعادة فبحثوا عنها في إيطاليا ، والإيطاليون
فحثوا عنها في أسبانيا ، وأهل أسبانيا طلبوها في البيتيك (البرتغال) : بمعنى
أن كل هذه الأقطار حملت هذا الاسم (L'Esperie) عند القدماء . وهذه
الجاليات اليونانية حملت معها روح الحرية الذي اقتبسته من هذا الوطن
الجميل . ولذلك لم تر ملكيات في إيطاليا في العصور الموعلة في القدم ،
ولا في أسبانيا ، ولا في بلاد الغال (فرنسا) . ثم رثى بعد ذلك أن شعوب
الشمال وألمانيا لم تكن أقل حرية ، وإذا وجدت آثار الملكيات بينهم ،
فذلك لأنهم اعتبروا قواد الجيوش ، ورؤساء الجمهوريات ملوكا .

كان هذا كله في أوروبا : أما آسيا وإفريقية فكانتا دائماً مرهقتين
تحت الحكم الاستبدادي إلا إذا استثنينا بعض مدن آسيا الصغرى التي
تسكمتا عنها آنفاً ، وجمهورية قرطاجنة في إفريقية .

وقد كان العالم تتنازعه جمهوريتان عظيمتان : جمهورية رومة ،
وجمهورية قرطاجنة . والناس يعرفون منشأ الجمهورية الرومانية معرفة
واضحة . ولا يكادون يعرفون شيئاً عن أصل الجمهورية القرطاجية .
كما يجهلون جهلاً تاماً تتابع ملوك إفريقية منذ ديدون^(١) ، كما لا يعرفون
كيف فقدوا سلطانهم . ما كان أسعد العالم بالعظمة الهائلة للجمهورية

(١) مؤسس الملك في قرطاجنة .

الرومانية لو لم تكن هذه التفرقة الظالمة بين المواطنين الرومانيين، والشعوب المهزومة ولو لم يكن لأمرء الأقطار هذا الحظ العظيم من السلطة، ولو لم يكتموا الأفواه بالسكنوز التي جمعوها من الشعوب ظلما ولو راعوا القوانين المقدسة التي وضعوها لمنع استبدادهم.

ويبدو أن الحرية لم تكن إلا لعبقرية الشعوب الأوربية، وأن العبودية لم تعد إلا للشعوب الآسيوية. وكان عبثاً أن يقدم الرومان لأهل كبادوكية^(١) هذا الكنز الثمين. فإن هذا الشعب الدنيء رفض الحرية، وحرص على العبودية حرص الشعوب الأخرى على الحرية. لقد استبد قيصر بالجمهورية الرومانية، وأخضعها لحكم ظالم.

وعانت أوروبا طويلا حكما عسكريا عنيفا، إذ انقلب رفق الرومان إلى كبت فظيع.

ومع ذلك خرج من الشمال عدد لا حصر له من أمم مجهولة، انتشرت كالسيول في الأقاليم الرومانية، ووجدوا الغزو سهلا كالقرصنة، فقطعوا أوصال الدولة وكونوا من أشلائها بمالك. هذه الشعوب كانت حرة فحددت كثير آ من سلطان ملوكهم الذين كانوا هم أنفسهم رؤساء، أوقواد جيوش. ولذلك فإنه بالرغم من أن هذه الممالك قامت على القوة، لم تشعر قط بنير المنتصر. ولكن حينما فتحت الشعوب الآسيوية فتوحاتها كالترك والتر، خضوعا لإرادة فرد — لم يفكروا إلا في أن يقدموا له رعايا جددا وأن يقيموا بتومة الجيوش سلطانه القاهر، لكن شعوب الشمال، الأحرار في بلادهم، عندما اغتصبوا الأقاليم الرومانية لم يعطوا رؤساءهم قط سلطة

(١) في آسيا الصغرى.

واسعة . لكن بعض هذه الشعوب كالقنندال في إفريقية ، والجوت في أسبانيا خلعوا ملوكهم منذ اللحظة التي كانوا فيها غير راضين عنهم . وعند غيرهم كان سلطان الملك مقيدا بصور شتى : فقد كان عدد من السادة يقاسمونه السلطة ، فالحروب لا يشرع فيها إلا برضاهم ، والغنائم قسمة بين الرؤساء والجند ، ولا تُفرض أى ضريبة لمصلحة الملك ، والقوانين كانت توضع في مجلس الأمة .

وهذا هو الأساس الذي قامت عليه جميع الدول التي تكوّنت على أنقاض الإمبراطورية الرومانية .

من فينيس في ٢٠ رجب سنة ١٧١٩ .

الرسالة الثانية والثلاثون بعد المائة

من ريسكا إلى

مند خمسة شهور أو ستة كنت في مقهى ، لا حظت فيه رجلاً أنيق
الملابس إلى حد ما ، يستهوى الأذان بحديثه، وكان يتحدث عن لذة العيش
بباريس ، ويأسف لأن ظروفه تضطره للعيش بالآقاليم . وقال : « لدى »
خمسة عشر ألفاً من الجنيهات لإيراد مزارعي ، وأعتقد أنني لو كنت أملك
ربع هذا المقدار من الثروة من مال سائل يمكن انتقاله من مكان إلى مكان
لكنت أكثر سعادة ، وعبثاً ضغطت على المزارعين ، وأرهقتهم بنفقات
القضاء ، لأنني بذلك لم أفعل سوى أنني أعجزتهم عن الوفاء بما عليهم ،
حتى أصبحت لا أستطيع رؤية ألف فرنك دفعة واحدة . فلو كنت
مدينا بعشرة آلاف فرنك فسيحجز على الأرض كلها ، وسأذهب إلى
المستشفى .

خرجت من المقهى دون أن أهتم بهذا الحديث ، ولكن حين وجدتني
أمس في هذا الحى دخلت إلى المقهى نفسه ، فرأيت فيه رجلاً مهيباً
ذا وجه شاحب مستطيل بين خمسة متحدثين أو ستة ، وكان يبدو كشيء
مفكراً ، ثم تحدث فجأة ، فقال : نعم أيها السادة - واختلج صوته - لقد
أفلسيت ، ولم يعد لدى ما أعيش به ، ذلك لأنني أملك الآن مائتي ألف جنيه
من الورق ، ومائة ألف من الفضة وإني لأجدني في وضع مخيف . قد

كنت أعتقد أنى غنى ، ولكن هأنذا بالمستشفى . فلو أنى كنت أملك -
على أقل تقدير - قطعة صغيرة من الأرض أستطيع أن ألجأ إليها لابقنت
أنى سأجد ما أقتات به ، ولكن ليس عندى ثراء عظيم كهذه القبة^(١)
التي تملك ثروة من الأرض .

وأدركت رأسى عرضاً إلى الناحية الأخرى فرأيت رجلاً آخر تنقبض
أساريره بشكل جنونى يصيح قائلاً : « بمن يثق الإنسان منذ الآن ؟ إن
خائناً كنت أعتقد أنه أصدق أصدقائى ، أقرضته مالى ، فردّه إلىّ .
أى خيانة فظيعة هذه ! حسناً فمل ، ولكنه سيظل - بحسب تفكيرى -
ملوث الشرف » .

وكان قريباً منا رجل زرى الهيئة ، قال وهو يرفع عينيه إلى السماء :
« فليبارك الله مشروعات وزرائنا ! ولعلى أرى الأجور تصل إلى ألفى
فرنك ، ويصير جميع الخدم فى باريس أغنى من سادتهم ! » فدفعنى حب
الاستطلاع إلى أن أسأل عن اسمه ، فقبل لى : إنه مسكين ، وحرفته مسكينة
مثله ، إنه عالم أنساب ، ويأمل من مهنته - إذا نمت الثروات - أن يحتاج
إليه محدثو الثراء ليعدّل أسماءهم ، ويخلصهم من أسماء أجدادهم ، فتزوين
مراكبهم^(٢) . ويتخيل أنه سيخلق أناساً من ذوى النسب الرفيع كما يشاء ،
فيطرب لمضاعفة عملياته .

وأخيراً رأيت عجوزاً نحيفاً شاحب الوجه ، يدخل المكان ، والذي
عرفته قبل أن يجلس أنه صحفى^٣ : وأنه لم يكن من هؤلاء الذين لديهم ثقة
فى النصر على حوادث الزمان ، ويتفاملون بالانتصارات ، بل كان على

(١) يقصد صاحبها وهو المالك الذى سبق الحديث عنه (٢) كظهور من مظاهر النبلاء

قيض ذلك ، كان من الرعايد الذين لا يحملون إلا الأخبار الحزينة -
ال : « إن الأمور تجري سيئة في أسبانيا ؛ فليس لدينا فرسان على الحدود ،
نخشى أن الأمير « ديو » الذي يسيطر على عدد هائل من الفرسان
لا يستطيع مساعدة لانجدوك .

وكان يازاني فيلسوف رث الهيئة ؛ كان ينظر الى الصحفي في كثير
من الإشفاق ، وكان يهز كتفيه كلها اضطرب صوت الآخر - اقتربت منه
نهمس في أذني قائلا : « ألا ترى إلى هذا التافه الذي يحدثنا ساءة عن
خوفه على لانجدوك ، على حين أني لاحظت أمس بقعة في الشمس إذا
أدت خمدت الطبيعة كلها ، ومع ذلك لم أنبس ببنت شفة » .

من باريس في ١٧ من رمضان سنة ١٧١٩ .

الرسالة الثالثة والثلاثون بعد المائة

من ريكابالى

ذهبت يوما إلى مكتبة عظيمة في دير للرهبان ، الرهبان فيها كأمناء
لكنهم مضطرون لأن يتركوا جميع الناس يدخلونها في ساعات محدودة
في النهار .

وعند دخولي رأيت رجلا رزيناً ويغدو ويروح بين عدد لا يحصى
من المجلدات ، فذهبت إليه ورجوته أن يخبرني ماتكون هذه المجلدات التي
عنى بتجليدها أكثر من العناية بسائر الكتب ، فأجابني قائلا : ياسيدي
إنني غريب الديار ، ولا أعرف في هذه الأرض إنسانا ، وقد سألتني كثير
غيرك مثل هذا السؤال ، وأنت ترى تماما أنني لن أقرأ كل هذه الكتب
لأشفي غليلهم فيما يسألون عنه . وعندى أمين المكتبة يجيبك عما سألت
جوابا شافيا ، لأنه منكب ليلا ونهارا على فك رموز كل ماترى من الكتب .
إنه رجل لا يصلح لشيء ، وهو عبء علينا ، لأنه لا يعمل شيئا للدير
مطلقا . وسمعت رنين ساعة الطعام فقال الراهب : « إن من كان مثلي على
رأس طائفة وجب أن يكون أول القائمين بالواجبات . ، ولم يكذب يتهنى
من قوله هذا حتى دفعني إلى الخارج ، وأغلق الباب ، وغاب عن عيني كأنه
قد طار .

باريس في ٢١ من رمضان سنة ١٧١٩ .

الرسالة الرابعة والثلاثون بعد المائة من ريكالتي شخص نفسه

عدت من غدى إلى هذه المكتبة ، فوجدت بها رجلا لا كالذي رأيته فيها في المرة الأولى : كان سمح المظهر والحيا ، ظريفا باش اللقاء وما علم تطلعي إلى معرفة ما سألت عنه حتى تكفل بأن يشبع رغبتى بالإيضاح لاسيما وأنا غريب . فقلت له : ماهذه المجلدات — يا أبي — التي تشغل كل هذا الجانب من المكتبة ؟ فأجاب : إنها شروح للكتاب المقدس . فقلت : أراها كثيرة العدد ، فلا بد أن الكتابة في الماضي غامضة جداً ، وصارت الآن واضحة تمام الوضوح .

ألا تزال هناك شكوك ؟ أيمكن أن يكون هناك نقاط تثير الجدل ؟ فأجاب : ومادا نصنع يا إلهي لو وجدت ؟ إنها كثيرة تكاد تبلغ عدد السطور . فقلت ، نعم ، وماذا صنع إذن جميع هؤلاء المؤلفين ؟ فأجابني بأن هؤلاء المؤلفين لم يبحثوا فيها مطلقاً عما يجب اعتقاده بل عما يعتقدونه هم ، وهم لا ينظرون مطلقاً إلى الكتاب ككتاب يحوى عقائد يجب اعتناقها وإنما يرونه مؤلفاً يمكن أن تستمد منه أفكارهم الخاصة سلطانها ؛ ولذلك أفسدوا جميع معانيه ، وأساءوا تأويل فقراته ، وأصحاب المذاهب المختلفة في هذا الإقليم يغير بعضهم على بعض ، ويسطو كل على الآخر كأنهم في ميدان حرب تلتقي فيه شعوب متعادية ، ويلتحمون في كثير من المعارك التي يكون بها هجوم وكفاح بصور شتى .

وترى هنا عن كتب كتيب الفقه أو العبادات ، ثم كتب الأخلاق ،

وإليك كتب أخرى أكثر فائدة هي كتب اللاهوت ، وهي صعبة مستخلقة مبنى ومعنى ثم التصوّف ، أى كتب العبّاد ذوى القلوب الرقيقة . فقلت له : مهلاً يا أبت ، لا تعجل بى ، وحدثنى عن هؤلاء المتصوّفين فقال لى : ياسيدى إن العبادة تصهر القلوب المتهيشة للرقّة واللين كما تصهر ما ينبعث من الأفكار فى الرءوس فتنشأ عنها الغيوبة والنشوة ، وهى حال الشطحات (١) فى التعبد . وكثيراً ما تكتمل هذه الحال ، أو بعبارة أخرى يصل المرء إلى ربّه بالحبّ الطاهر النقيّ الخالص ، وهذا مبدأ الكييتزم (٢) Ouïetisme وأنت تعلم أن المعتنق لهذا المبدأ إما مجنون أو نقي أو فاجر .

لقد رأيت شأن المحللين النفسيين الذين يكشفون ما خفى ، ويصورون لحياهم جميع البشاعات التى يمكن أن يخلقها شيطان الحب ، يجمعونها ، ويوازنون بينها ، ويجعلونها الموضوع الدائم لأفكارهم . ما أسعد من لا يشارك فى إثم أو ضلالات صريحة واضحة للعيان ، ولا يهتم قلبه بالشكليات ١ .

ها أنت ذا ترى أنى أفكر تفكيراً حراً ، وأنى قلت لك ما أعتقد وقد كنت فى الحق صريحاً ولا سيما معك ، لأنك أجنبيّ تريد أن تعرف الأشياء ، وتريد أن تعرفها كما هى ، ولو أردت أن أدخل فى نفسك الروعة بما أقول لقلت لك دائماً . « هذا مقدس . هذا مبجل . هذا خارق . » وبذلك أصير فى رأيك أحد رجلين . إما مخادعاً ، وإما شخصاً لا شرف عنده .

وبقينا حيث كنا حتى طرأ على الراهب عمل علق حديثنا إلى الغد .
من باريس فى ٢٣ من رمضان سنة ١٧١٩ .

(١) تعبير صوفى يراد به الغيوبة والهذيان — المراجع

(٢) الكييتزم : مبدأ القائلين بعدم وجوب الأعمال فى بعض حالات النفس .

الرسالة الخامسة والثلاثون بعد المائة من رسالة الشيخ نفسه

عدت في الساعة المحددة ، فقادني صاحبي إلى المسكان الذي كنا قد
غادرناه ، ثم قال لي : هاك النحاة واللغويين والمفسرين . فقلت له : ألم
يكن أجدر هؤلاء الناس يا أبي أن يكونوا ذوي عقول رشيدة ؟ فقال :
أجل كان في استطاعتهم ذلك ، ومع هذا يبدو أن مؤلفاتهم ليست أسوأ
من تفكيرهم ، وذلك يريحهم كثيراً ، فقلت : هذا حق ، وإنني أعرف
كثيراً من الفلاسفة يعكفون على دراسة هذه الأنواع من العلوم .

ثم قال : وهناك الخطباء الذين لهم قدرة على إقناعك مع بعدهم عن
التفكير السليم ، وعلماء الهندسة الذين يلزمون المرء إلزاماً أن يقبلوا
براهينهم . وهذه كتب « ما وراء الطبيعة » التي تهتم اهتماماً شديداً بأن تجعل
اللانهاية تلتقي بكل شيء . وكتب الطبيعة التي لم تجد في عجائب هذا الكون
الفسيح ونظامه إلا ما يجده في أيسر الآلات التي بين يدي صناعنا . وإليك
كتب الطب وهي مظهر لضعف الصلة بين الطبيعة وقوة الفن ، وهي
تضطرب عند علاج أيسر الأمراض وتجعل الموت ماثلاً أمامنا ، لكنها
عندما تتحدث عن مزايا الأدوية تجعلنا في مأمن من الموت فإننا أزلين
لأنموت أبداً .

وقريب منها كتب التشريح التي تحوى من وصف أجزاء الجسم
الإنساني وأسمائه إلا تلك الأسماء الحديثة التي أطلقوها عليها وهذا حظ
من المعرفة لا يشفى المريض من مرضه ، ولا الطبيب من جهله .

وهذه كتب الكيمياء التي تقيم مرة بالمستشفى ومرة بمصحات الأمراض العقلية التي هي خير موطن لها .

وهذه كتب العلوم أو الجهل المقنع فهي تحوى نوعا من الرقى بمقوتنا عند جمهور الناس ، وهو عندى يستدر الشفقة .

وهذه كتب التنجيم الفقهى ، فقلت له فى حرارة : ماذا تقول يا أبى ؟ كتب التنجيم الفقهى ! إن لها أعظم التقدير فى فارس ؛ فهي تنظم أعمالنا فى الحياة وتحددها . والمنجمون هم قادتنا الحقيقيون ، بل إن لهم لشأنا أعظم من ذلك فهم الموجهون لسياسة الحكومة . فقال : إذا كان الأمر كذلك فأنتم تعيشون تحت نير أقسى من نير العقل : وهذا أغرب سلطان يتحكم فى الناس . إني لأرثى لأسرة ، بل لامة تعيش تحت سلطان الكواكب ، فاستأنفت الكلام قائلا : إننا نستخدم التنجيم عندنا كما تستخدمون الجبر عندكم ؛ فكل أمة تختار العلم الذى توجه به سياستها : وإن جميع المنجمين فى فارس لم يرتكبوا من الخبايا ما ارتكبه واحد فقط من علماء الجبر عندكم .

ألا تعتقد أن جريان الكواكب كيفما كان يعد أدق فى نظامه من التعليقات المقبولة لواضع نظامكم الاقتصادى . وإذا أخذنا الأصوات للتنجيم فى فارس والرياضة فى فرنسا ، فأى نصر مبین يظفر به التنجيم ! وأى خزي يصيب الرياضيين ، وأى نتيجة مزرية يذموا إليها !

وهنا انقطع جدلنا ووجب أن نفرق .

باريس فى ٢٦ من رمضان سنة ١٧١٩ .

الرسالة السادسة والثلاثون بعد المائة من ريك إلى شخص نفسه

في لقائنا التالي قاذني هذا العالم الذي حدثك عنه إلى حجرة خاصة وتعالى : « هذه كتب التاريخ الحديث ، وإليك أولا مؤرخي الكنيسة والبابوات ، لقد قرأت كتبهم لأصلح نفسي بما فيها من سير ، ولكن كانت آثارها في أغلب الأحيان عكسية .

وأما هذه الكتب التي هناك فهي لمؤرخين كتبوا عن سقوط الامبراطورية الرومانية العتيدة التي قامت على أنقاض ممالك كثيرة ، والتي روى عن سقوطها روايات شتى . وكان نتيجة لذلك أن ظهرت فجأة أقوام من البربر لا حصر لهم ، لا يعرف موطنهم الأصلي ، ولا من أين جاءوا ، فغمروا فجأة الامبراطورية الرومانية ، واجتاحوها ، ومنزقوها وأسسوا جميع ما ترى الآن من ممالك في أوروبا . ولم يكن هؤلاء الأقوام براهبة بالمنى الصحيح ، لأنهم كانوا أحرارا ، ولكنهم صاروا كذلك حين خضع أكثرهم للسيطرة المطلقة ، فأفقدتهم هذه الحرية الجميلة التي تلائم العقل والإنسانية والطبيعة .

وهنا ترى مؤرخي الامبراطورية الألمانية التي تعتبر ظلا للامبراطورية الأولى ، وأراها القوة الوحيدة على الأرض التي لم يضعفها التقسيم ، وأرى كذلك أنها ستقوى بنسبة خسائرها ، وأنها تتقدم تدريجيا ، وستظل قوية عزيزة على الرغم من هزائنها .

وإليك مؤرخى فرنسا الذين تجد فى كتبهم أولا كيف تكونت
عظمة ملوكها وقوتهم ، وكيف خمدت هذه القوة مرتين ، ثم عادت
للحياة من جديد ثم ضعفت لعدة قرون بعد ذلك ، لكنها استردت
قوتها ، واتسعت رقعتها ، ووصلت إلى أوج عظمتها ، فكانت أشبه شيء
بالأنهار التى تفقد مياهها أثناء سيرها ، وتختفى تحت الأرض ثم تظهر من
جديد ، وتعظم بما يصب فيها من روافد ، ويقوى تيارها فيجرف فى
سرعة كل ما يعترض سبيلها .

وهناك تجد الشعب الأسباني الذى قد خرج من بعض الجبال ،
والأمراء المسلمين الخاضعين الآن بعد أن فتحوا هذه البلاد فى سرعة
عجيبة وتجمعت بممالك صغيرة كونت مملكة واسعة أصبحت الوحيدة ،
ثم أعياءا الترف ففقدت قوتها وسمعتها أيضا ، ولم يبق لها إلا الزهو
بعظمتها الغابرة .

وهؤلاء هم مؤرخو إنجلترا التى تظهر فيها الحرية دائما خارجة من
بين نيران الخلافات والثورات . ومملكتهم يترنح دائما فوق عرش ثابت
والشعب نافذ الصبر ، لكنه متزن التفكير حتى فى غضبه ، وسيدة البحار
(وذلك لم يكن معروفا حتى ذلك الحين) تمزج تجارتها بسلطانها .

وبالقرب من هنا ، مؤرخو مملكة البحار الأخرى ، أعنى الجمهورية
الهولندية وهى محترمة جدا فى أوروبا ، لكنها متجبرة فى آسيا حتى إن
كثيرا من الملوك ينجحون أمام تجارها .

أما مؤرخو إيطاليا فإنهم يعرضون عليك أمة كانت سيدة الأمم
فيا مضى لكنها صارت أمة لكل الشعوب الآن ، وانقسمت حكمها

وضعفوا ، ولم يبق لهم من السلطان سوى حظ هزيل من الاشتراك في سياسة لا غناء فيها .

وهناك مؤرخو جمهوريات سويسرة وهى من الصورة الطيبة للحرية ، والبندقية التى ليس لها موارد إلا حسن تديرها لشئون المال ، وجنوة التى ليس لها إلا عظمة مبانى .

وهذه ممالك الشمال ، ومن بينها بولونيا التى أساءت استعمال حريتها وحقها الطبيعى فى اختيار ملوكها ، وكأنها أرادت أن تأتسى فى ذلك بجاراتها التى فقدتها .

وهنا افترقنا على أن نلتقى فى غدنا .

باريس فى ٢ من شوال سنة ١٧١٩ .

الرسالة السابعة والثلاثون بعد المائة من رسالة الشيخ نفسه

وفي اليوم التالي صبحني إلى حجرة أخرى ، وقال لي : إن الشعراء هاهنا وأعنى بهم المؤلفين الذين تحتم عليهم مهنتهم أن يضعوا العوائق أمام الفهم المستقيم ويرهقون العقل باسم اللذة والامتناع ، وهم في ذلك أشبه بمن كانوا في الماضي يكادسون على النساء أنواع الحلي والزينة حتى يدفنوهن تحت زينتهن وحلاهن .

وأنت تعرفهم فهم ليسوا نادرين في الشرق ، حيث تسطع الشمس في حرارة أشد فتلهب كل شيء حتى الخيال .

ثم قال : فهذا شعر الملاحم ، وما أدراك ما شعر الملاحم ؟ في الحقيقة لا أعرف عنه شيئاً ، ولكن ذوى البصر بالشعر يقولون : إنه لم يضع منه إلا ملحمتان ، وما عداهما ليس منه وإن وضع تحت اسمه ، وهذا ما لا أعرفه أيضاً ، بل يزعمون أنه من المستحيل أن تنشأ منه قصائد جديدة ، وهذا من أعجب العجب .

وهؤلاء شعراء المسرح ، وهم أحسن الشعراء فيما أعتقد ، فهم المهيمنون على العواطف والمشاعر ، وهم قسمان : شعراء المسرحيات الهزلية ، وهي التي تحرك مشاعرنا في رفق ، وشعراء المأسى وهي التي تضرب لها نفوسنا وتهز مشاعرنا دزاً .

وإليك الشعراء الفنائيين ، وإنني أحتقرهم بمقدار احترامي لسواهم فهم يصنعون من قلمهم هذياناً منسق الإيقاع .

وبعدهم يحى شعراء الرعاة ، وشعراء الريف الذين يرضون رجال
البلاط ويسرونهم لأنها تعطيهم صوراً من الحياة الهادئة التي يحياها الرعاة
فيحسون لحظة بفترة من الهدوء الذي لا يجدونه في حياتهم .

وأخطر من ذكرنا جميعاً من الشعراء هؤلاء الذين يسلطون أهاجهم
اللاذعة ، كأنها السهام الصغيرة النافذة التي تحدث كلوما عميقة تستعصى
على الشفاء .

وهؤلاء كتاب القصة ، وهم نوع من الشعراء يرهقون بدورهم لغة
العقل والقلب ، ويظلون طول حياتهم يبحثون عن الطبيعة فلا يجدونها
أبداً ، ويخلقون أبطالاً خرافيين كالننين ذى الأجنحة ، والحسان ذى
الرأس الآدمي .

فقلت له : لقد رأيت بعض قصصكم ، فإذا ما رأيت قصصنا فستراها
أسوأ ، لأنها أيضاً لا تحكى الطبيعة إلا قليلاً ، وترهقها تقاليدنا أشد
الإرهاق ، إذ لابد للمحب من أن يرح به الهوى عشر سنوات قبل أن
يرى وجه محبوبته ، ومع ذلك فهؤلاء المؤلفون مضطرون إلى أن يدخلوا
قراءهم في تلك المقدمات المملة .

وبما أنه من المتعذر أن تتغير الحوادث : فإن المؤلف يعتمد إلى أن يكلف
أسوأ من الشر نفسه الذي يريد علاجه ويسرف في المبالغة إسرافاً شديداً .
وإني على يقين من أنك لن تجد مبالغتهم إلا كالذى زعموا من أن
ساحرة أخرجت جيشاً من جوف الأرض ، أو أن بطلاً وحيداً استطاع
أن يسحق مائة ألف من الرجال . وعلى أى حال فهذه هى قصصنا :
في مغامراتها الباردة التي تجلب لنا السآمة بشكرارها ، وإسرافها في
المبالغة تجعلنا نشور عليها .

باريس في ٦ من شوال سنة ١٧١٩ .

الرسالة الثامنة والثلاثون بعد المائة

من ريكا إلى لمين في أزمير

الوزراء هنا يتتابعون ، وينتهون كالفصول : ففي خلال ثلاث سنوات شهدت النظام المالي يتغير أربع مرات . يقوم الآن في فارس وفي تركيا نظام الضرائب نفسه الذي أقامه مؤسسوها تين المملكتين : وكان يجب هنا أن يأخذوا بهذا النظام نفسه .

إننا في الواقع لا نقدر الفكر كما يفعل الغربيون لأننا نعتقد أنه ليس هناك كبير فرق بين تدبير إيرادات الملك ، وبين تدبير إيراد فرد إلا كالفرق بين عد مائة ألف جنيه أو مائة .

ولكن الأمر هنا أكثر دقة وغموضا . فلا بد من مواهب عظيمة تعمل ليلا ونهارا ، لشمر بلا انقطاع ، وبجهد جهيد ، مشروعات جديدة ، وتستمع إلى آراء عدد لا يحصى من أناس يعملون لهم دون أن يدعوا لذلك . انسحب أصحاب المواهب من المجتمع ، وعاشوا في عقر مكاتب لا تقتحم من الكبار ، ومقدسة عند الصغار ، ورؤسهم دائما ملأى بالأسرار الهامة ، والخطط العجيبة ، والأنظمة الجديدة ، ولأنهم غارقون في التفكير لم يجرموا فقط من حسن التصرف في الحديث ، بل حرموا أحيانا لطف المعاملة .

فلم يكد الملك الراحل يغمض عينيه حتى فكروا في إقامة نظام جديد . وكان الشعور العام أن الحال سيئة ، ولكن لا يدرون ماذا يفعلون لتحسين

الحال . وكان من سوء الحال أن سلطة الوزراء السابقين لم تكن محدودة فأرادوا تقسيمها . فأنشئ لذلك ستة مجالس أو سبعة ، وربما كانت هذه الوزارة من خير الوزارات التي حكمت فرنسا بكثير من التعقل . وكانت مدتها قليلة كالخير الذي حققته .

كانت فرنسا لدى صوت الملك الراحل جسماً مرهقاً بشتى الآلام : من (١) حكم البلاد بيد من حديد ، وخلص الجسم من اللحوم التي لا فائدة منها . واستخدم بعض الأدوية الصالحة ، ولكن بقي في داخل الجسم آفة تحتاج إلى العلاج . فجاء أجنبي (٢) ليمارس هذا العلاج . وبعد أن عالجها بكثير من الأدوية العنيفة ، ظن أنه رد إلى الجسم صحته ، ولكنه لم يفعل شيئاً سوى أن جعله وارماً .

إن جميع من كانوا أغنياء قبل ستة أشهر خلت ، هم الآن في فقر ، ومن كانوا لا يجدون الخبز يعضّون الآن بالثراء . ولا يمكن مطلقاً أن يتقارب هذان الطرفان .

وقد غير الأجنبي حال الدولة ، كما يصنع بائع الثياب البالية : يظهر في أعلاها ما كان في أسفلها ، وما كان في أعلاها يقلبه رأساً على عقب . أي ثروات غير مرجوة ، وبعيدة أيضاً عن الظن ، تحققت لمن كونوها ؛ إن الله (تعالى) لا ينتشل الناس من العدم أسرع من ذلك . وكمن خدم قام أصدقاؤهم بخدمتهم ، ولعل سادتهم يخدمونهم غداً !

(١) الدوق دى نواي (Noaille) .

(٢) جون لو ، اقتصادي اسكتلندي . ولد في إدنبره سنة ١٧٢٩ . وكان المرابط العام للشئون المالية بفرنسا ، وأنشأ شركة الهند ، ووضع في زمن الوصاية على العرش نظاماً مالياً أنشأ بمقتضاه مصرفاً ملكياً ، وقد جر نظامه الدمار المالي لكثير من الأسر الفرنسية .

كل ذلك أحدث أشياء غريبة . فالوصفاء الذين أثروا أيام الحكم
الماضى يفخرون اليوم بعراقة نسبهم . وردوا إلى هؤلاء الذين لم يكادوا
يتركون ثياب خدمتهم في شارع ما كل ما تلقوا من احتقار كان يوجه
إليهم منذ ستة أشهر . وصاحوا بكل قوة : إن النبالة قد دمرت ! أى
فوضى تفشت في الدولة! وأى خلط حدث بين الطبقات ! لا يرى الإنسان
إلا أناسا مغمورين يكوّنون ثروات ! . وإني أعذك أنهم سيثأرون ممن
يأتون بعدهم ، وأنه في خلال ثلاثين سنة ستحدث طبقة الأشراف دويآ .

من باريس في غرة ذى الحعدة سنة ١٧٢٠ .

الرسالة التاسعة والثلاثون بعد المائة من رسالة الشيخ نفع

هاك مثلاً رائعاً لحنان الزوجية ، لامن امرأة من عرض النساء لكنه من ملكة . ذلك أن ملكة السويد ^(١) ، وقد أرادت بكل ما أوتيت من قوة أن تشرك زوجها الأمير في التاج ، مهدت للتغلب على جميع العقبات بأن أرسلت إلى جميع المقاطعات قراراً تبتدى فيه أنها تتنازل عن الوصاية إذا انتخب الأمير .

ومنذ نصف وستين سنة تنازلت ملكة أخرى تدعى كرسيتين عن التاج لتتوفر على دراسة الفلسفة . ولا أدري أى المثليين أروع .

وبالرغم من أنى أستحسن أن يثبت كل شخص في المسكان الذى أعدته له الطبيعة ، فإنى لا أستطيع أن أمدح ضعف الذين يتركون أما كنهم — كنوع من الهرب — لأنهم يرونها دون كفايتهم . ومع ذلك فقد راعنى العظمة الروحية لهاتين الملكتين ، وما أراه من عقل الأولى ، وقلب الثانية ، وكلتاها سمت سموماً فوق ما كان لها من مكانة رفيعة : فكرستين ، وكبرت في المعرفة في الوقت الذى لا يفكر فيه غيرها إلا في المتع ، والآخرى لم ترد أن تتمتع إلا بأن تضع سعادتها بين يدي صاحب الجلالة زوجها .

من باريس في ٢٧ من المحرم سنة ١٧٢٠ .

(١) هى إريك إليوتور شنيقة شارل الثانى عشر توفيت فى ٥ من ديسمبر سنة ١٧٥١ فى الرابعة والخمسين من عمرها ، أما زوجها فهو فردريك دى هيس كاسل الذى شاركها فى عرش السويد فى ٤ من إبريل سنة ١٧٢٠ ، وتوفى فى ٥ من إبريل ١٧٥١ ، وقد بلغ من العمر الثانية والسبعين .

الرَّسَالَةُ الْأَرْبَعُونَ بِعَشْرِ الْمِائَةِ من ريسكا إلى أوزبك في ١٨٧٠

لقد نفى (برلمان ^(١)) باريس منذ زمن قريب إلى قرية صغيرة تدعى « بنتواز » . « Pontoise » وذلك لأن مجلس الوزراء أرسل إليه قراراً ليسجله أو ليقره ، وكان فيه مساس به فسجله البرلمان ، فوافق بطريقة تسمى إلى كرامة مجلس الوزراء .

وكل مجلس نيابي في المملكة مهدد بأن يعامل هذه المعاملة .

هذه جماعات ممقوتة دائماً : إنها لا تقترب من الملوك إلا لتخبرهم بحقائق محزنة . وإذا مثلت جماعة من رجال البلاط شعباً سعيداً بحكم الملوك ، فإنهم لا ينقطعون عن الكذب والملق ، ويحملون إلى أعتاب العرش الآنات والدموع التي هم مستودعها .

إن الحقيقة - ياعزيزي أوزبك - عبء ثقيل عندما يجب أن تحمل إلى الملوك ، وينبغي أن يقدر الملوك أن الذين يحملون الحقائق إليهم يكونون في حرج ، وأنهم لا يحملون أنفسهم قط على هذا التصرف المحزن - المسبب للآسى لمن يتعرض له - إلا بدافع من واجبهم ، واحترامهم للملوكهم ، وحبهم لإياهم .

باريس في ٢١ من جمادى الأولى سنة ١٧٢٠ .

(١) لقد نفى البرلمان في ٢٠ من يوليو سنة ١٧٢٠ ، لأنه لم يوافق على إقرار القرارات التي اتخذها « لو » لنظامه المالي الخاسر . المراجع

الرسالة الحادية والأربعون بعد المائة من رسالة إلى شخص نفسه

سأغدو لرؤيتك في أخريات الأسبوع : ولعل أيامك تمضي كما تحب !

قدّمتُ منذ أيام إلى سيدة من سيدات القصر أبدت شيئاً من الرغبة في أن ترى وجهي الأجنبيّ . وجدتُها جميلة جدّيرة بأن يراها مولانا الملك ، وبأن تحتل مكانة رفيعة في المكان المقدّس الذي يأوى فيه قلبه .

لقد وسّجت إلى سيلا من الأسئلة عن عادات الفرس ، وعن طريقة حياة الفارسيات . وقد بدا لي أن الحياة في القصر لا تلائم ذوقها ، وأنها تجد اشمئزازاً في أن ترى الرجل موزعاً بين عشر نساء أو اثنتي عشرة . إنها لا تستطيع أن ترى سعادة الرجل من غير حقد عليه وإشفاق على حال النساء . وبما أنها تحب القراءة ، وبخاصة الشعر والقصص ، فقد رجّيتُ أن أحدثها عن شعرائنا وقصاصينا ، وما حدثتها به ضاعف من تطلّعها إلى المزيد ، فرجّيتُ أن أترجم لها بعض فقرات مما حملته معي ، ففعلت ، وأرسلت إليها بعد أيام قصة فارسية ، ربما سرك أن تراها في ثوبها الجديد :

في عصر الشيخ علي خان كانت تعيش في فارس امرأة تدعى سليمي ، كانت تحفظ القرآن الكريم كله عن ظهر قلب ، ولم يكن من الأتقياء من يعرف خيراً منها سير الأنبياء عليهم السلام ، ولم يقل علماء العرب شيئاً مهما كان غامضاً إلا فهمت معناه . وكان لها مع علمها الغزير طالع خاص بروح مرحة ،

تجعل الإنسان لا يكاد يعرف . أهي تريد مداعبة من تحذهم ، أم تريد تعليمهم .

وفي يوم من الأيام كانت مع رفيقاتها في بهو من أبهاء القصر فسألتهن إحداهن رأيها عن الحياة الأخرى ، وعما إذا كانت تصدق ما روى عن العلماء من أن الفردوس لم تعد إلا للرجال . فقالت : هذا هو الشعور العام ، لأنه لا يراد بنا إلا الانتقاص من شأننا . بل الأمة .

وهذه الأفكار المهينة لنا كثيرا ، ليس لها أصل إلا غرور الرجال . لأنهم يريدون العلو علينا حتى بعد حياتهم ، ولا يفكرون في أن جميع المخلوقات — يوم الحشر — تظهر أمام الله كأنها لا شيء ، ولا تفاضل بينها إلا بالتقوى .

إن يكون لثواب الله حد يقف عنده ، وكما أن الرجال الذين سيحيون حياة مستقيمة ويحسنون القيام علينا في هذه الحياة الدنيا سيكونون في جنة الفردوس المملأ بالجمال السماوى الساحر ، حتى إنه لو رآها فإن لا تستسلم للبوت من فوره لأنه لا يستطيع صبرا عن هذا النعيم ، كذلك النساء الفضليات سيذهبن إلى دار النعيم ، حيث ينتشين بسيل من اللذات مع الرجال الصالحين الذين يخضعون لهن : وسيكون لكل منهن قصر يغلق على الرجال ، وعدد من الحصيان أيضا أخلص من خصياننا لحراستهم .

ثم قالت : قرأت في كتاب عربى أن رجلا يسمى إبراهيم ، كان يعانى غيرة لا تطاق . وكان له اثنا عشرة امرأة فائقات الحسن ، وكان يعاملهن أقسى معاملة : وكان لا يثق فى خصيانه ، ولا فى جدران قصره ، فكان يغلق عليهن الأبواب فى أكثر الأوقات ، ويظلل دائما محبوسات فى حجراتهن فلا يكون بينهن حديث ولا لقاء : لأنه يغار أيضا من الصداقة البريئة ، وكانت تصرفاته كلها تصطبغ بفضاظته الطبيعية ، فلا تخرج أبدا من فمه كلمة عذبة ، ولا تصدر أدنى إشارة عنه إلا وهى تضيف شيئا إلى قسوة

عبوديتهن . وفي يوم من الأيام جمعنّ في بهو من أبهاء قصره ، فأنبرت له إحداهن ، وكانت أجرة أهن ووبخته على طبعه الجافي ، قالت : حينما يبحث الإنسان جاهدا عن الوسائل التي بها يحدث الخوف يجد دائما قبل ذلك الأسباب الموجبة للحقد . لقد بلغنا من الشقاء مبلغا لا نستطيع معه إلا أن نرغب في تغير حالنا ، ولو كان غيرى مكانى لتمتى موتك ولكنى لا أتمنى إلا موتى مادمت لا أستطيع الخلاص منك إلا به ، بل إن الموت سيكون بى أرفق ما يكون لأن به خلاصى .

وهذا الكلام الذى كان جديرا أن يؤثر فيه ، أثار فيه غضبا حادا ، فسحب خنجره ، وأغمده فى صدرها . فقالت بصوت المحتضر : رفيقائى العزيزات إذا رحم الله فضيلتى فإنه سينتقم لكنى ، ولم تكذب تنطق بهذه الكلمات حتى فارقت هذه الحياة التعمسة لتذهب إلى الخلد فى النعيم ، حيث تتمتع النساء اللائى عشن عيشة طيبة ، ويستمتعن بسعادة تتجدد دائما .

رأت أول ما رأت مرجا ضاحكا ، ازدهت خضرته بوشى من الأزهار الناضرة ، وجدولا صفا ماؤه حتى صار كالبلور ، تثنى فى المرج تشنبا لاحد له . ثم دخلت غابة وارقة الظلال ساحرة ، لا يقطع السكون فيها إلا التغريد العذب من الأطيّار . ثم بدت لها جنات رائعة زينتها الطبيعة ببساطة وبهاء ، وأخيرا وجدت قصرا فخما أعد لها ملء برجال سماويين خصصوا لخدمتها .

وأسرع اثنان من فورهما ليخلعا عنها ثيابها ، وآخران ليضعاهما فى الحمام ، وليعطراها بأذكى العطور ، وأعطياها ثيابا أنغر كثيرا من ثيابها ، ثم نقلاهما إلى بهو فسيح وجدت فيه نارا اشتعلت بخشب عطر ، ومائدة حفلت بأشهى الأطعمة . وقد بدا كأن كل شىء يسهم فى إمتاعها : فمن ناحية تسمع موسيقى شجية بقدر ما هى إلهية ، وفي الناحية الأخرى لا ترى إلا رقصا

من رجال الله الذين ليس لهم همّ إلا أن يدخلوا السرور عليها . ومع ذلك
فهنالك لذات كثيرة ، لا غاية لها إلا أن تسلم إلى لذات أمتع منها . ثم
حملت إلى حجرتها ، وبعد أن غيرت ثيابها مرة أخرى ، وضعت في سرير
نخم ونامت . وقالت : « لقد فقدت وعي . لو لم أكن متأكدة من أنى
خالدة لظننت أنى ميتة . هذا كثير ، لقد انهالت علىّ النعم . نعم : لقد
منحت حواسى شيئا من الهدوء ، وبدأت أستروح الراحة ، وأعود إلى
وعى . لماذا انتزعوا المشاعل ؟ ما أعجزنى الآن عن تقدير الجمال الإلهى !
وما أعجزنى عن الرؤية ! ولكن لماذا أرى ؟ ما أعذب هذه الكلمات !
ماذا ! سأظل خالدة » .

ولم يكن طوال اليوم إلا رقص وموسيقى ، وولائم ولعب ونزهات .
وقد لوحظ أن « أنائس » تتسلل من وقت لآخر ثم تعود إلى الجمع الذى
غادرته بوجهها المشرق دائما . وعند المساء افتقدها الناس : لقد ذهبت إلى
القصر ، وأغلقت على نفسها هناك إذ أرادت كما قالت أن تتعرف بهؤلاء
الأسرى الخالدين الذين ينبغى أن يعيشوا معها أبدا . وقد زارت فى تلك
الأمكنة هذه الأجنته الداخلية الساحرة بأناقته ، وهناك عدت خمسين
عبدا ذوى جمال فاتن ، وجالت طول الليل من حجرة إلى حجرة تتلقى
تحيات فى كل مكان : تختلف دائما فى عبارتها ، وتتحد دائما فى غايتها .

وهكذا قضت « أنائس » الخالدة حياتها ، وفى كثير من الأحيان تغادر
قصرا ساحرا إلى كنّ فى الحقول ، وكأن الأزمارة تنبت تحت خطاها ،
والملاهى تبدو لها شتى الأنواع .

منذ أكثر من ثمانية أيام وهى فى هذا المأوى السعيد ، فى نشوة
بالغة لم يخطر ببالها أى خاطر : إنها كانت تستمتع بسعادتها دون أن

تشعر بها ، ولم يكن لديها لحظة من تلك اللحظات الهادئة التي تحاسب فيها الروح نفسها ، وتستمتع إليها في سكون .

قد يكون لدى أسعد الناس متع بالغة قل أن تسمح لهم بأن يتمتعوا بهذا الانطلاق الروحي ، لأن الأشياء الحاضرة تستهويهم استهواءً شديداً لا يمكن الخلاص منه ، ويفقدون تماماً الذاكرة نحو الماضي فلا يذكرون منه شيئاً ، ولا يهتمون أى اهتمام بما عرفوا أو أحبوا في الحياة الدنيا .

لكن « أنائس » ذات الفكر الأصيل في الفلسفة ، قضت جل حياتها في التأمل : وبلغت في التفكير مدى لا يمكن أن تبلغه امرأة تركت وشأنها . إن العزلة الرهيبة التي فرضها عليها زوجها لم تترك لها إلا هذه المزية . وقوة التفكير هذه هي التي جعلتها تزدري الخوف الذي كانت تفرع منه رفيقاتها ، والموت الذي هو النهاية الحتمية لآلامها ، والبداية لسعادتها .

وهكذا خرجت شيئاً فشيئاً من سكرة الذات ، واعتزلت في جناح بقصرها . واسترسلت في خواطر بالغثة العذوبة عن حالها الماضية وسعادتها الحاضرة ، ولم تستطع ألا ترق لشقاء صواحبها ، إنها تحس الآلام التي قاسموها إياها . ولم تكثف « أنائس » بأن تقف عند مجرد الشفقة عليهن : بل إنها لفرط إشفاقها على هؤلاء الشقيات شعرت بدافع يدفعها إلى مساعدتهن .

أمرت واحداً من شايفين كانا قريبين منها أن يتشكل بصورة زوجها ، ويذهب إلى قصره ، ويصير سيده ، ويطرده منه ويحل محله إلى أن تدعوه .

كان التنفيذ سريعاً : فقد شق الفضاء ، ووصل إلى باب قصر إبراهيم ،

ولم يكن إبراهيم هناك . دق الباب ، ففتحت جميع الأبواب وركع له الخصيان : وطار إلى الأجنحة التي أغلقت على نساء إبراهيم ، وكان قد أخذ في مروره المفاتيح من (جيب) ذلك الغيور ، لأنه لم يكن ظاهراً له . ودخل فأدهشهم بادیء ذی بدء بحياه السمع العذب ، وما هي إلا لحظة حتى أثار مزیداً من عجبهم بملاطفته وبإسراعه في تنفيذ مشروعاته . وكان لكل واحدة منهم حظها من العجب ، ولو لم يكن ما أمامهم حقيقة لظنوه حلماً .

وبينما كانت هذه المناظر تمثل في مسرح القصر ، دق الباب إبراهيم ، وسمى نفسه وانطلقت عاصفة ، وصياح . وبعد أن كابد جهداً جهيداً دخل ، وأشاع في الخصيان منتهى الفوضى والاضطراب . وسار بخطى واسعة ، لكنه رجع القهقرى ، وخرّ صعقاً إذ رأى إبراهيم المزيّف ، إنها صورته الحقيقية ، في جميع تصرفاته كسيد للقصر . وصرخ مستنجداً . وأراد من الخصيان أن يساعده في قتل هذا الدعيّ ، لكنه لم يطع . ولم يبق أمامه إلا مدد ضعيف ، هو الاحتكام إلى نساته . لكن إبراهيم المزيّف كان قد سحر جميع القضاة في ساعة . فطرد إبراهيم في هوان خارج القصر ، ولو لم يأمر منافسه بالإبقاء على حياته لقتل ألف مرة . وأخيراً ظل إبراهيم الجديد المتحكم في ميدان المعركة ، فأراهم من نفسه شيئاً فشيئاً أنه جدير بمثل هذا الاختيار ، وبرز لهم بخوارق لم يعهدوها حتى هذه اللحظة وقالت هؤلاء النسوة أنت لا تشبه إبراهيم ، فقال إبراهيم المنتصر : الأولى أن تقولوا : إن هذا المدعي لا يشبهني : وماذا ينبغي أن أفعله لأصير زوجك ، إذا لم يكن هذا الذي فعلته كافياً ؟

قالت النساء : آه ! ما كان لنا أن نشك . إذا لم تكن إبراهيم ، فإنه يكفينا أنك أجدر بأن تكونه : لقد كنت في يوم واحد خيراً مما كان إبراهيم في عشر سنين . فقال : إذن هذا وعد منكّلي أن تصوّتا معي

ضدّ هذا الدعيّ ؟ فقلن بصوت واحد لا شك في ذلك . ونخلف لك أننا سنكن لك إخلاصاً أبدياً ، لم نكن على طول المدى إلا مضطهدات ولم يكن هذا الغادر يحفل بصلاحنا ، وإنما كان يفكر في ضعفه ، وإنما نرى أن الرجال لم يكوّنوا تكوينه ، لكنّ الرجال أشبه بك أنت : لو عرفت إلى أى مدى أثرت فينا كراهيته له ، فقال إبراهيم المزيف : آه ! سأعطيك أسبأباً جديدة للحقد عليه ، إنكن لم تعرفن قط حتى الآن جميع الإساءات التي فعلها بكن . فقلن له : نحن نقدر مقدار ظلمه بشدة انتقامك . فقال الرجل الإلهي : نعم : أنن على صواب ؛ فقد جعلت التكفير مكافئاً للجريمة : إنني مسرور برضاكن عن مسلكن في العقاب لكن هؤلاء النساء قلن : ماذا نصنع إذا عاد الدعيّ ؟ فقال : أعتقد أنه سيكون من العسير عليه أن يخذعكن ، ومكانى ممكن الآن لا يعينه مطلقاً على استعمال المسكر . ومع ذلك سأبعده إلى مكان قصي حتى لا تسمعن عنه شيئاً . ومنذ الآن سأتكفل بإسعادكن ، فلن أكون غيوراً ، وسأعرف كيف أطمئن إليكن دون أن أضايكن : وعندى بجدارتي من اليقين ما يجعلني أعتقد أنكن ستصرن مخلصات لى ، وإذا لم تكن صالحات معى ، فمع من تكن صالحات ؟ .

هذا الحديث استغرق وقتاً طويلاً بينه وبين النساء اللاتي أخذن بشدة الاختلاف بين الإبراهيمين ، وبقسوة الشبه بينهما ، حتى إنهن لم يستوذن هذه العجائب الخارقة . وأخيراً عاد الزوج اليائس ليعكر صفوهن ، فرأى بيته يغمره السرور ، ورأى النساء أجد ما يكنّ من أى وقت آخر ، ورأى الوضع يلائم رجلاً غيوراً ، فخرج يتميز غيظاً ، وبعد لحظة تبعه إبراهيم الزائف ، وأمسك به وحمله في الهواء ، وتركه على بعد أربع مائة فرسخ .

يا آلهتى ؛ أى غم استولى على هؤلاء النساء في غياب عزيزهن إبراهيم

لقد عاد الخصيان إلى قسوتهم المعتادة ، وغرق البيت في الدموع ، وفكرن مراراً في أن كل ما لقينه لم يكن إلا حلماً ، وأخذ ينظر بعضهن إلى بعض ويتذكرن أقل الحوادث التي مرت بهن في هذه المغامرات العجيبة . وأخيراً عاد إبراهيم الرقيق كما عهدنه دائماً ، وبدأ منه لهن أن رحلته لم تكن شاقة . وهذا السيد الجديد سلك معهن مسلكاً مضاداً لمسلك السيد الآخر مما أثار عجب الجيران : لقد طرد الخصيان ، وجعل البيت مستعداً لاستقبال الضيفان ، بل إنه لم يسمح بأن تضع زوجاته الخمر على رؤوسهن ، إنه كان من الغريب أن ترى نساؤه في المحافل بين الرجال مطلقات الحرية مثلهم . اعتقد إبراهيم ، وما اعتقده حق ، أن عادات بلد من البلاد لم تتكون لمواطنيين مثله . ومع ذلك لم يرفض أى نفقة : وأسرف إسرافاً بالغاً . في أموال الغيور ، الذى عاد بعد ثلاث سنوات من بلاد نائية كان قد حمل إليها فلم يجد إلا نساءه وستة وثلاثين طفلاً .

في باريس في ٢٦ من جمادى الأولى سنة ١٧٢٠ .

الرسالة الثانية والأربعون بعد المائة من ربي إلى أوزبك في

إليك رسالة وردت إلى أمس من أحد العلماء ، وستظهر لك فريدة
في نوعها .

سيدي

منذ ستة أشهر آلت إلى تركه عمّي واسع الثراء ، ورثني خمسمائة
ألف أو ستمائة ألف من الجنيهات ، ومنزلاً مؤثلاً تأثيثاً فاخراً . إنه من
دواعي السرور أن يملك الإنسان ثروة إذا عرف كيف يستغلها . إنني
شخص لا أطماع له مطلقاً ، وليس لي ميل إلى اللذات ، فأنا دائماً حبيس
مكتبي ، أحياء حياة عالم ، يعيش في هذا المكان ، ويهوى الآثار القديمة
المجيدة .

حينما أغمض عمي عينيه ، تمنيت لو دُفن باحتفال كاحتفالات اليونان
القدماء والرومان ، ولكن لم يكن لدىّ إذ ذاك أوعية العطر ، ولا جِرار
الرفات ، ولا القناديل التي كانت تستعمل قديماً .

ومنذ ذلك الوقت اهتمت بتلك الطرف النفيسة ، فمذ بضعة أيام بعث
آتيقي الفضية لأشترى بئمنها مصباحاً من الفخار ، كان يستعمله أحد الفلاسفة
الرواقين . ثم تخلصت من جميع المرايا التي كان يغطي بها عمي جدران
منزله لأحصل بئمنها على امرأة مشقة قليلاً ، كان يستعملها فرجيل ،

وسّرّني أن رأيت فيها وجهي ، لا وجه بحمة ماتتو. ^(١) ولم أكتف بذلك بل اشتريت بمائة جنيه من الذهب خمس قطع أوستا من العملة النحاسية التي كان يتداولها الناس منذ ألفي سنة .

ولعلّي الآن لا أدرى أن في منزلي قطعة من الأثاث ، صنعت قبل سقوط الإمبراطورية الرومانية . وعندى في مكتبي مخطوطات قيمة جدا . غالية جدا ، وعلى الرغم من أني أفنى ناظريّ بقراءتها ، فإنني أفضّلها على النسخ المطبوعة ؛ لأنها ليست صحيحة تماما ، ولأنها في متناول الناس جميعا . ومع أني لا أكاد أغادر المنزل فإنني لم أتخلّ عن ميلي — الذي لا حد له — إلى معرفة جميع الطرق التي كانت مطروقة أيام الرومان . إن بينها طريقا قريبا من بيتي ، مهّده أحد نواب القنصل من الغال منذ نحو ألف ومائتي سنة . وحين أذهب إلى بيتي الريفيّ لا يفوتني مطلقا أن أمر بهذه الطريق على الرغم من أنها وعرة ، وأنها تطيل المسافة على نحو فرسخ . ولكن الذي يغنيّني هو أنهم وضعوا فيها قوائم من الخشب ، من مسافة إلى أخرى لتعين المسافات بين المدن المجاورة . وكنت أبتئس حين أرى هذه العلامات التعسفة حلت محل الأعمدة الألفية التي كانت تستعمل في الماضي . وإنني لا أتردد مطلقا في إصلاحها بما ورثته من مال وسأنص على النفقة عليها في وصيتي . فإذا كان لديك ياسيدي بعض المخطوطات الفارسية فإنك ستضاعف سروري حين ترسلها إليّ ، وسأدفع لك كل ما تريده . وسأعطيك فوق ثمن هذه الصفقة بعض مؤلفاتي التي ستري فيها أني لست عضوا عديم الفائدة في جمهورية الأدب . وسيجذب انتباهك من بينها موضوع أدبي أبرهن فيه على أن التاج الذي كان يتخذ

(١) يريد وجه فرجيل . (المراجع)

في حفلات النصر في الماضي — كان من أغصان البلوط لا من الغار.
وسينال إعجابك بحث آخر ، أبرهن فيه بوثائق دامغة ، مأخوذة عن
أشهر كتاب اليونان . أن قبيز جرح في رجله اليسرى لا اليمنى . وفي
بحث ثالث أبرهن على أن الجبهة الضيقة كانت أمانة الجمال الذي يحرص
عليه الرومان . وسأرسل إليك أيضا مجلدا من القطع المتوسط أشرح فيه
قصيدة من الجزء السادس من إنياذة فرجيل . ولن تتسلم كل هذا إلا
بعد بضعة أيام . أما الآن فإني سأقنع بأن أرسل إليك نبذة مأخوذة من
عالم يوناني قديم عن الآلهة ، لم تظهر قط حتى الآن ، وقد كشفتها بين
أثرية مكتبة . وسأتركك الآن لعمل هام لدى ؛ يتعلق بتمحيص قطعة
لبلين عالم الطبيعيات شوهها الناقلون في القرن الخامس . إنني ياسيدى .. الخ

نبذة لعالم لاهوتي قديم

وُلد طفل في جزيرة بالقرب من جزيرة أوركار .^(١) وكان أبوه
إبول إله الرياح وكانت أمه الجنية إلهة الغابات والمياه وهى من كلدونيا :
وقيل إنه تعلم بنفسه العبد على أصابعه^(٢) ، وأنه منذ الرابعة من سنه
استطاع أن يميز جيدا بين المعادن ، حتى إن أمه أرادت أن تعطيه خاتما
من النحاس البراق بدلا من الذهب فعرف خديعتها ، ورماه على الأرض .
ولما شب علمه أبوه كيف يحبس الرياح في زق ، ثم يبيها للسافرين .
ولكن لما تكن هذه التجارة مربحة في بلاده غادرها ، وأخذ يحوب
البلاد في صحبة إله الحظ الأعمى .

(١) أسكتلندة . (٢) من اليسير أن نعلم أن المؤلف يقصد جون لو ، وقد عرف عنه
أنه كان ذا مواهب حسابية منذ نعومة أظفاره (المراجع)

وقد علم في رحلاته أن الذهب في بلاد البيتيك^(١) يهر الأبصار في كل مكان فأسرع إليها الخطى ، فاستقبل فيها أسوأ استقبال ، من سائرين حاكمها في ذلك الزمان . ولكن هذا الإله ما إن ترك الأرض حتى خطر له أن يذهب إلى مفارق الطرق ، وينادى بصوت أجش ، بدون انقطاع : « يا أهل بيتيك ، إنكم تعتقدون أنكم أغنياء لأنكم تملكون الذهب والفضة إن خطأكم جعلني أرثى لكم . صدقوني : اتركوا دولة المعدن المرذول . وتعالوا إلى دولة الخيال ، وإنى أعدكم بالثراء الذي يثير عجبكم ، وفي الحال فتح جزءا كبيرا من زقاقه التي أحضرها معه ، ووزع بضاعته على من أرادها . »

وفي اليوم التالي عاد إلى مفارق الطرق نفسها ، وصاح : « يا أهل بيتيك ، أترغبون في الثراء ؟ تخيلوا أنى أغنى إنسان ، وتخيلوا أنكم كذلك أغنى الأغنياء . وضعوا في أذهانكم كل صباح أن ثرواتكم قد ضعفت في أثناء الليل ، واستيقظوا في الحال . وإذا كانت عليكم ديون فسدوها مما تخيلتم من ثراء ، وقولوا لدائيتكم أن يتخيلوا ذلك أيضاً . »

ثم ظهر بعد أيام ، وتحدث قائلا : « يا أهل بيتيك ، لقد لاحظت أن خيالكم لم يكن أكثر روعة مما كان في الأيام الأولى . دعوني أقدمكم إلى خيالي . سأضع أمام أعينكم لافتة ستبقى لكم منبع الثروات ، ولن تروا عليها سوى أربع كلمات ، لكنها ستكون واضحة ذات معنى ؛ فإنها ستنظم صداق زوجاتكم ، وشرعية أبنائكم ، وعدد خدمكم . وأما أنتم يا أبناء الأعزاء (وأستطيع أن أناديكم كذلك ، لأنكم ولدتهم مولدا جديدا على يدى) . وستقرر لافتتي غفمة حاشيتكم ، وأبهة حفلاتكم وعدد حظياتكم ومخصصاتهم . »

وبعد بضعة أيام من هذا اللقاء حضر إلى مفترق الطرق يلهث ، ويميز من الغيظ ، وصاح بهم : « يا أهل بيتيك ، لقد نصحتكم بأن تتخلوا ، وأرى أنكم لم تعملوا بنصحي ، والآن آمركم بأن تفعلوا . ثم تركهم فجأة . ولكن فكرة ردّته ثانية على عقبيه ، وقال لهم : « لأنني أعلم أن بعضكم بغيض لأنه يكنز ذهبه وفضته ^(١) . إنني أسمح بكنز الفضة ، أما الذهب ... الذهب فإن كنزه يهينني ، ويثير غضبي . أقسم بزقاق المقدسة أن من لا يحمل إلى ذهبه لأعاقبه عقابا صارما . ثم أضاف بلهجة طائشة : « أعتقدون أنني أطالبكم بهذين المعدنين النافين لأحتفظ بهما ؟ ولأدلكم على طهارة نيتي أرد إليكم نصفهما حالما تحضرونها إلي » .

وفي اليوم التالي شوهد من بعد ، ولوحظ أنه يتحدث بصوت رقيق فيه تلعّف : « يا أهل بيتيك ، لقد علمت أن جزءا من أموالكم في البلاد الأجنبية . أرجوكم أن تحضروه إلي » ، فإنكم بذلك تدخلون السرور على ، وسأذكر لكم هذا الجليل إلى الأبد .

تحدث ابن إيول إلى أناس ليس عندهم أي رغبة في الضحك ، ولكنهم لم يملكوا أنفسهم فضحكرا ، مما دفعه إلى أن يعود إلى الحديث ، وهو شديد الارتباك ، ولكن عاودته الشجاعة ، فحاطر مرة أخرى برجاء أخير ، قال : « إنني أعرف أن لديكم بعض الأحجار الكريمة ، فباسم جويستر ، تخلصوا منها ، فلا شيء يجلب لكم الفقر أكثر من وجودها عندهم . تخلصوا منها ، فإذا لم تستطيعوا أن تفعلوا ذلك بأنفسكم ، فإني أكل ذلك إلى رجال أعمال ممتازين في هذه الناحية . وكم من مال يتدفق عليكم إذا أتمت فذمت نصيحتي . أجل فإني أعدمكم بأنقي ما في زقاق » .

(١) كان « لو » قد حصل على قرار من مجلس الوزراء يحرم على الفرنسيين أن يحتفظ الفرد بأكثر من خمسمائة جنيه فضة وذهبا . (المراجع)

وأخيرا اعتلى منصته ، وظهر أكثر ثقة بنفسه ، وقال : « يا أهل
 ميتيك ، إنى أعقد موازنة بين حالتكم السعيدة هذه ، وحالتكم التى وجدتم
 عليها حين حضرت إلى هنا ، فأرا كم الآن أغنى شعوب الأرض ، ولكن
 لى أقطع بأمر فى حظكم ، تحملوا أن أقتطع نصف ثرواتكم^(١)... » . حينما
 نطق بهذه الكلمات ، اختفى ابن إيول وطار بجناح سريع تاركا مستمعيه
 فى ذعر شديد .. وقد حدث أنه جاء فى اليوم التالى وتحدث قائلا : لقد
 لاحظت بالأمس أن خطابى لم يسركم كثيرا . وعلى ذلك فافترضوا أنى
 لم أقل شيئا . حقا إن النصف كثير . وليس هناك سوى أن نستهمل وسائل
 أخرى لنصل إلى الهدف الذى اقترحه . فلنجمع ثرواتنا جميعا فى مكان
 واحد . إن هذا يسير جدا علينا لأنها لا تشغل حيزا كبيرا . وفى الحال
 اختفت ثلاثة أرباعها .

من باريس فى ٩ من شعبان سنة ١٧٢٠ .

(١) كان الدفع هو أن يعطى الفرد نصف ماله عملة فضية ، والنصف الآخر عملة
 ورقية . (المراجع)

الرسالة الثالثة والأربعون بعد المائة
من رسالة النابلسي (طبيب يهودي) في يثغور

تسألني رأيي في فائدة التعاويذ والتمايم التي تجلب الحظ . ولماذا تنجيه
إليّ ؟ أنت يهودي ، وأنا مسلم : أعني أن كلينا من أصحاب المعتقدات .

إني أحمل معي دائماً أكثر من ألفي آية من القرآن الكريم . وأربط
على فراعي مجموعة من الأوراق كتب عليها من أسماء الأولياء أكثر
من مائتي اسم : كعلي وفاطمة وسائر الصالحين واختفت في أكثر من
عشرين موضعاً بثيابي .

ومع ذلك لا أعارض الذين يحددون الفائدة التي تعزى إلى بعض
الأقوال الدينية ، لأنه من العسير علينا جداً أن نرد على حججهم ، كعسر
ردهم هم على تجربتنا .

إني أحمل هذه التمايم المباركة بحكم العادة التي تأصلت على مر الزمن ،
لأساير بذلك عادة يمارسها الناس جميعاً . وأعتقد أنه إذا لم تكن لها
فائدة أكثر من هذه الخواص وهذه الحلي التي تتزين بها ، فليست
أقل منها فائدة .

وإنك مع ذلك تضع كل ثقتك في بعض حروف لا تعرف لها سرّاً ،
وتحس أنك دون حمايتها ستبقى في رعب مقيم .

ما أتعس الناس ! إنهم يموجون دائماً بين آمال كاذبة ، ومخاوف

مضحكة . وبدلاً من أن يركنوا إلى العقل يخترعون وحوشاً نحيقهم ،
وأشباحاً تفتنهم وتغرر بهم .

أى أثر تريد أن ينجم عن تنظيم بعض الحروف ! وما الضرر الذى
ينشأ من فساد ترتيبها ، أى علاقة بينها وبين الرياح ، لتسكين العواصف ،
وبين بارود المدافع فتغلب عليها ، وما العلاقة بينها وبين ما يسميه الأطباء
المزاج المختل ، وبينها وبين أسباب الأمراض القاتلة فتشفيها ؟ .

إن العجيب فى هذا هو أن هؤلاء الذين يجهدون عقولهم فى أن ينسبوا
بعض الأحداث إلى قوى خفية ، لا يبذلون أقل جهد يحول بينهم وبين
رؤية السبب الحقيقى .

ستقول لى : إن هناك بعض القوى ذات السلطان على النفوس تعمل
على كسب معركة ما ، وأنا من جانبي أقول لك : إنه ينبغي إذن أن تتعamy
عن أن نجد فى طبيعة الأرض ، وفى عدد الجنود وشجاعتهم ، وفى خبرات
القواد أسباباً كافية تنتج هذا الأثر الذى تريد أن نجهل سببه .

أسلم لك لحظة أن هناك قوى معنوية خافية ، فسلم معى أنت برهة
أن ليس هناك هذه القوة مطلقاً ؛ لأن ذلك ليس محالاً ، وما اتفقت معى
عليه لا يمنع من أن جيشين لا يستطيعان أن يقتتلا ، فهل تريد فى هذه
الحالة أن أحد الجيشين لا يستطيع أن ينتصر ؟

وهل تعتقد أن مصيرهما سيقى غير معروف حتى تأتى قوة خافية
لتحدده ؟ وأن هذه الضربات جميعها ستذهب سدى ، وأن التعقل سيكون
عبثاً ، وأنه لا فائدة من الشجاعة !

أأظن أن الموت الذى يحدث فى هذه الأحوال ، ويتمثل بصور شتى

لا يمكن أن يبعث في النفوس هذه المخاوف الجنونية التي طالما تحدث عنها وشرحتها ؟

أتريد أن تقول : إن جيشاً قوامه مائة ألف جندي لا يوجد فيه جندي واحد جبان ؟ هل تعتقد أن جبن هذا الجندي لا يدخل الجبن في نفس جندي آخر ؟ وأن الثاني الذي يخذل الثالث ويتركه ، لا يجعل الثالث يخذل الرابع ؟

ولا يتطلب الأمر أكثر من ذلك حتى يستولى اليأس من النصر فجأة على جيش بأسره ؛ بل من السهولة بمكان أن يستولى اليأس على جيش أكبر منه عدداً .

كل فرد يعلم ، وكل فرد يشعر أن الناس — كسائر المخلوقات التي تحرص على البقاء — يحبون الحياة بشغف . وذلك معروف بوجه عام ؛ والمراد معرفته : لماذا يخشون فقد الحياة في بعض الأحوال الخاصة .

وبالرغم من أن الكتب المقدسة لدى جميع الأمم مملوءة بالرعب الرهيب أو الخارق للعتاد فإنني لا أتصور شيئاً في مثل هذا العيب ، لأن الأثر الذي يمكن أن يحدث من مائة ألف سبب طبيعي — هو أثر غير طبيعي لا بد أن يختبر مقدماً لتعرف إذا لم يكن سبب من هذه الأسباب قد كان له علاقة بهذا الأثر ، وهذا مستحيل .

لن أقول لك شيئاً أكثر من ذلك — ياناثا نايل — لأنه يبدو لي أن هذا الموضوع لا ينبغي أن يعالج بهذا الاهتمام البالغ .

من باريس في ٢٠ من شعبان سنة ١٧٢٠ .

ملاحظة : وإذا فرغت ، سمعتُ نداءً في الشارع عن رسالة من طيب بالريف إلى طيب يباريس (فهنا كل التفاهات تطبع وتنتشر وتشتري) . وأعتقد أنني أحسن صنعا إذ أرسلها إليك ، لأنها تتصل بموضوعنا . إن فيها أشياء كثيرة لا أفهمها ، لكنك كطيب لابد أن تفهم لغة زملائك .

رسالة من طيب ريفي إلى طيب يباريس

كان في مدينتنا مريض لم يذق طعم النوم منذ خمسة وثلاثين يوما : فأمره طبيبه بأن يتعاطى الأفيون ؛ لكنه لم يستطع الاقتناع بتناوله ، وقد كان والكوب في يده أكثر ترددا من أي وقت آخر . ثم قال لطيبه : « سيدي ، أطلب إليك أن تمهلي إلى غد فقط : فأنا أعرف رجلا لا يمارس مهنة الطب ولكنه يحتفظ لديه بعدد لا يحصى من الأدوية ضد الأرق ؛ فاسمح لي بأن أرسل في طلبها ، وإذا لم أنم هذه الليلة فإني أعدك بأن أستعين بك » .. انصرف الطيب ، وأرخصى المريض الستائر ، وأمر وصيفا صغيرا بقوله : « اذهب إلى السيد أنيس ، واطلب منه أن يحضر لمقابلتي » .

وحينما جاء أنيس ، قال له المريض : « سيدي أنيس ، إنني أموت إذ لا أستطيع أن أنام ، أليس عندك في دكانك الـ C . du . G . أو أي كتاب للصلاة من تأليف ر . ب . ج ، لم تستطع بيعه ، فالغالب أن الأدوية الأكثر كسادا هي خير الأدوية . فأجابه السكتي : سيدي ، عندي الدراسة المقدسة للأب كوسان ، وتقع في ستة أجزاء وهي تحت طلبك . سأرسلها إليك ، وأرجو أن تستفيد منها . وإذا أردت مؤلفات الأب المبجل رودريج ، اليسوعي الإسباني ، فلن أؤخرها عنك . لكن صدقي ، لنحرص على علاج الأب كوسان ، فإني أرجو بعناية الله أن تكون فترة مع الأب كوسان ذات أثر أعظم من كل ما كتبه » C . du . G . . وعلى ذلك

خرج السيد أنيس وأسرع ليحضر الدواء من دكانه . وجاءت الدراسة المقدسة : ونفض عنها الغبار وشرع ابن المريض ، وهو طالب صغير ، يقرأ : فكان أول من تأثر منه ، من الصفحة الثانية ، فلم ينطق إلا بصوت غير واضح النبرات ، وشعر كل الحاضرين بالضعف .

وبعد لحظة ، علا شخير الجميع ماعدا المريض ، الذى غالب طويلا . ثم استسلم للنوم أخيرا .

وفى الصباح الباكر حضر الطبيب وسأل : « ما الحال ؟ » هل أخذ أفبوني ، فلم يجب بشيء : وإنما أشارت الزوجة ، والبنت ، والغلام ، والسرور يغمرهم جميعاً إلى كتاب الأب كوسان ، فسأل ما هذا ؟ فقيل له : « يحيا الأب كوسان ! يجب أن يرسل الكتاب لتجليده ! من كان يصدق هذا ؟ من كان يظن هذا ؟ إنها لمعجزة ! انظر ياسيدى إلى هذا الأب كوسان : هاك المجلد الذى أنام أبى ، . ثم شرحوا له الأمر كما حدث .

وكان الطبيب رجلاً يسهل التأثير فيه ، مفعماً بخفايا المعميات ، وسلطان الكلام ، والأرواح : فبهذه هذا ، وبعد كثير من التفكير ، قرر أن يغير خطة علاجه تغييراً تاماً ، وقال هذا حديث فريد من نوعه ، انتفعت منه بتجربة ، يجب أن تذهب بها إلى أبعد مدى . وإذن فلماذا لا يستطيع العقل أن ينقل خواصه إلى مؤلفه ؟ ألا نلاحظ ذلك دائماً ؟ أو على الأقل فإنه يكافئ الشعب فى محاولته . لقد تعبت من الصيدالة ، وأشربتهم ، ومسكناتهم وجميع العقاقير التى تهلك المرضى ، وتسبب إلى صحتهم : فلنغير الطريقة : ولنجرب قوة الأرواح . وعلى أساس هذه الفكرة أقام صيدلية جديدة ، كما سيظهر من الوصف الذى سأسوقه إليك عن أدوية أساسية تستخدم فى العلاج :

شراب ملين

خذ ثلاث ورقات من منطق أرسطو بالإغريقية ؛ وورقتين من بحث عميق في الفلسفة اللاهوتية كأبحاث العالم الدقيق سكوت ، وأربعاً من راسلس ، وواحدة لابن سينا ، وستاً من ابن رشد ، وثلاثاً ليورفير ، ومثلها لبلوتان ، وكذلك من جمليك ، ثم انقعها كلها مدة أربع وعشرين ساعة ، وتناول منه أربع مرات كل يوم .

مسهل أقوى

خذ عشرة من A... من C... الخاصة بـ B... و C... 1... (١) وقطرها في ماء ساخن يوضع داخله إناء فيه هذه الوصفة ، وليتها بقطرة من مزاج حريف حاد ينشأ من هذا الخليط ، وضعها كلها في كوب ماء ، وابتلع كل ذلك في ثقة تامة .

مقبيء .

خذت مواعظ دينية ، وعشر من المرائي وفق هواك ، واحذر — مع ذلك — أن تستخدم خطب السيد (٢) ومجموعة من الأوبرا الحديثة ، وخمسين قصة ، وثلاثين من المذكرات الجديدة ، وضعها جميعاً في وعاء ، ثم دعها تتخمر لمدة يومين ، ثم قطرها على نار الرمل ، وإذا لم يكف ذلك كله ، فهاك وصفة أخرى :

(١) تلميح إلى عشرة قرارات اتخذها مجلس الوزراء خاصة بالبنك وشركة الهند أو لعل المؤلف يشير إلى دستور اليسوعيين .

(٢) يشير إلى مرائي فليشييه أسقف نيم .

مقيء آخر أقوى منه

خذ ورقة من الورق الملون بلون الرخام ، الذى كان يستخدم فى تغليف مجموعة مسرحيات J.F. ، وانقع سطحها لمدة ثلاث دقائق . وسخن ملعقة من هذا النقيع ، ثم اشربها .

دواء بسيط جداً لعلاج الربو

اقرأ جميع مؤلفات الأب المبجل بمبورج ، اليسوعى الآنف الذكر ، واحرص على ألا تقف إلا فى نهاية كل عبارة ، وستشعر أنك ستستريح من صعوبة التنفس شيئاً فشيئاً ، دون أن تحتاج إلى أن تكرر الدواء .

للقاية من الجرب ، والجرب الجاف ، والقراع ،

والتهاب الأغشية المخاطية

تؤخذ ثلاث مجموعات لأرسطو ، ودرجتان مما وراء الطبيعة ، وواحدة من الامتياز ، وستاً من شعر شايلان ، وجملة مأخوذة من رسائل القسيس دى سان سيران ، واكتب الجميع فى ورقة ، وطبقها ، واربطها بشريط ، تعلقه فى عنقك .

هذه هى العقاقير التى استخدمها طبيبنا بنجاح يفوق الخيال : قال إنه لا يريد أن يهلك مرضاه باستخدام أدوية نادرة ، لا تكاد توجد مطلقاً: فعلى سبيل المثال رسالة إهدائية لم تسبب لأحد تآؤباً ، ومقدمة قصيرة جداً أو منشور حرره أسقف ، أو عمل لرجل من رجال الدين محتقر من زميله ، أو هو محل إعجاب رجل من مذهب ديني آخر . ويقول : إن هذه الأنواع من الأدوية ، ليست شيئاً إلا للاحتفاظ بادعاء العلم الذى يلقى اشتمزازاً لا يطاق .

الرسالة الرابعة والأربعون بعد المائة من رسالة إلى أوزبك

وجدت هنا منذ أيام بمنزل من منازل الريف الذي جئت إليه — عالين يتمتعان بشهرة واسعة . ويدولى سلوكهما مثيراً للعجب . وكان حديث الأول عظيم القيمة يتلخص في قوله : « ما أقوله حق لأنني قلته . » أما حديث الثاني فينتجه اتجاهها آخر : فهو يقول : « إن ما لم أقله باطل : لأنني لم أقله . » .

أحببت الأول كثيراً ، لأن اعتزاز المرء برأيه لا يضيرني قط ، أما أن يكون الشخص سفيهاً فذلك أتأذى منه كثيراً . إن الأول يدافع عن آرائه ، وهذا حقه ، أما الآخر فهو يهاجم آراء سواه ، وهو اعتداء على حقوق الناس جميعاً .

أف هؤلاء ، ياعزى أوزبك ! ما أضر الغرور بمن أوتوا منه خطأ أكبر مما يحتاجون إليه في المحافظة على كياناتهم . إن مثل هؤلاء القوم يريدون أن يكونوا محل إعجاب الناس بامعائهم في إسقاطهم . لأنهم يحرصون على أن يكونوا أسرى من الناس ، وليتهم يحظون بأن يكونوا مثلهم . أيها المتواضعون ، تعالوا أقبلكم ، أتم رقة الحياة وبهجتها . تظنون أنكم لا تتحلون بشيء ، وأتم تزدانون بكل فضل . وتحسبون أنكم لا تغضون من قيمة أحد ، والواقع أنكم تغضون من شأن الناس جميعاً .

وحينما أفكر في الموازنة بينكم وبين هؤلاء المغترين بأنفسهم حينما كانوا ، أنزلهم من عليائهم ، وأضعهم تحت أقدامكم .

من باريس في ٢٢ من شعبان سنة ١٧٢٠ .

الرسالة الخامسة والأربعون بعد المائة من أوزبك إلى

إن رجل الفكر يكون عادة عسيراً في المجتمعات . إنه يصطفي قليلاً من الناس ، إذ يضيق ذرعاً بهذا العدد الكبير الذي يعجبه أن يسميه الصحبة السيئة ؛ ومن العسير عليه ألا يحس شيئاً من النفور منهم كما لو كانوا أعداء . وهو يثق بأنه يشير الإعجاب متى أراد ، لكنه يهمل ذلك في أكثر الأحيان .

وهو ينجح إلى النقد لأنه يرى من الأشياء ما لا يرى غيره ، ويحس أكثر مما يحسّ سواه .

ويكاد يخسر دائماً ثروته ، لأن عقله يقدم له لذلك أسباباً شتى . إنه يخفق في مشروعاته ؛ لأنه يخاطر كثيراً . ونظره الذي يرى بعيداً ، يريه الأشياء وهي على بعد شاسع . ولا يلقى بالألاعقات مشروع ما عند نشوئه لأنها تأتي من طبيعة المشروع ، لكنه يرى العلاج لأنه آت من عنده هو ، تابع من أعماقه .

إنه يهمل التفاصيل الدقيقة التي يتوقف عليها مع صغرها نجاح معظم الأعمال الجسيمة .

أما الرجل قليل الذكاء ، فإنه على عكس ذلك ، يحرص على أن يستفيد من كل شيء ، ويشعر شعوراً عميقاً أنه لا يفقد مطلقاً شيئاً بالإهمال .

إن الرضا العام غالباً ما يكون من حظ الرجل قليل الذكاء . ويسرّهم أن يعطوه ما يسلبونه الذكيّ . وبينما يصُبُّ الحسد فوق رأس أحدهما ، ولا يغفر له شيء ، تستنس المعاذير للآخر : ويكون الغرور من حظه .

وإذا كان الذكي من الناس يتعرض لمثل هذا الخسران المبين ، فإذا عسى أن نقول عن الوضع السيء للعلماء ؟

إنى لا أفكر في ذلك مطلقاً إلا تذكرت رسالة لأحدهم كتبها إلى أحد أصدقائه وهاك نصها :

« سيدى ... »

« إنى رجل مكبّ طول الليالى على النظر بمنظارى الذى يبلغ طوله ثلاثين قدماً إلى هذه الأجرام السماوية التى تسبح فوق رؤوسنا ، وإذا أردت أن أريح نفسى أخذت مجهرأ صغيراً لأفحص شئاً أو سوسة .

« لست غنياً ألبتة ، وليس عندى إلا حجرة واحدة ، لا أستطيع أن أوقد بها ناراً لأن معنى مقياس الحرارة ، وأى حرارة غير الحرارة الطبيعية ستجعله يسجل ارتفاعاً . وفى الشتاء الماضى ظننت أنى سأموت من البرد ، وبالرغم من أن مقياس الحرارة سجل أخط درجة ، وأنذرنى بأن يدي ستجمدان ، فإنى لم أغتسر وضعى ، وكان عزائى أننى علمت علماً دقيقاً . تغيرات الجو التى لا تكاد تدرك مدى السنة الماضية كلها .

« وقلّ أن أتصل بأحد ، وجميع الناس الذين أراهم لا أعرف منهم أحداً . لكن رجلاً فى استكهولم وآخر فى ليزج وثالث فى لندن ، لم أراهم قط ، ولن أراهم أبداً بلا شك ، اتصل بهم بمراسلة منتظمة جداً إلى حد أنى لا أدع بريداً يسافر دون أن أكتب إليهم .

«وعلى الرغم من أنى لا أعرف أحداً فى الحى الذى أسكنه ، فإن لى فيه شهرة بلغت من السوء مبلغاً سيضطرنى آخر الأمر إلى الانتقال منه . ومنذ خمس سنوات وأنا ألتقى بقسوة إهانات من إحدى جارأتى لأننى شرحت كلباً تدعى أنها تملكه . وكانت عندها امرأة قصاب^(١) شاركتها فى شرها ، فبينما كانت تنهال على الأولى بالإهانات ، كانت الأخرى تقذفى بالحجارة ومعى الطبيب . . . الذى كان يرافقتى ، والذى تلقى ضربة عنيفة فى عظم الجبهة والقدال^(٢) اضطرب منها مخه .

« ومنذ ذلك الوقت إذا تسرب أى كلب إلى نهاية الشارع تقرر على الفور أنه مر بين يدي .^(٣) وقد حدث أن سيدة من الطبقة المتوسطة^(٤) فقدت من الكلاب جرواً ، تحبه - كما تقول - أكثر من أولادها ، جاءت عندى بالأمس ، وأغمى عليها فى حجرتى ، ولما لم تجده شكنى إلى الحاكم . وأعتقد أننى لن أخلص من الأذى الدنى من هؤلاء النساء اللاتى يحدثن لى بأصواتهن المزعجة دواراً دائماً ، وهن يرئين جميع الأجساد التى فئت منذ عشر سنوات .

« لانى . . الخ .

« وقديماً اتهم جميع العلماء بالسحر . ولا أعجب لذلك مطلقاً . فكل واحد يقول فى نفسه : « لانى أستخدم المراهب الطبيعية إلى أبعد مدى يستطيعه الناس ، ومع ذلك هناك من العلماء من يفوقنى ، فلا بد إذن من أن هناك حيلة شيطانية . »

(١) جزار (٢) القضا (٣) أى لأشرحه . (٤) برجوازية

والآن وقد افترضت مثل هذه الاتهامات الباطلة. فقد اتشبع طريق آخر، فلا يستطيع عالم أن يتجنب اتهام الناس إياه بالزيف أو الإلحاد. ومهما غفر له الشعب ما نسب إليه، فإن الجرح قد شق، ولن يلتئم أبداً بل سيظل دائماً مصدراً للألم.

ثم يأتي منافس له بعد ثلاثين عاماً، ويقول له في تواضع: «إن الله (تعالى) لا يرضيه أن أقول: إن ما اتهموك به حق، ولكنك اضطرت إلى الدفاع عن نفسك» وهكذا تلتوى التبرئة نفسها لتصبح اتهاماً.

وإذا كتب العالم تاريخاً، وكان فيه نبيل التفكير، مستقيم الخطه، فإنه يلقي من الناس عنتاً ويبلغ بهم الحال أن يشيروا عليه الحاكم ليحاكمه. لحادث مضى عليه أكثر من ألف سنة. ويراد منه أن يكون قلبه أسيراً إذا لم يكن حقيراً.

إن أسعد الناس إذن هؤلاء الأندال الذين يتخلون عما يعتقدون بشمن بخس. والذين يمارسون أنواع الخداعة والنفاق بالتجزئة، دون أن يتقاضوا عن ذلك فلساً، والذين يقبلون نظام الإمبراطورية رأساً على عقب، فينتقصون حقوقاً لسلطة، ويزيدون حقوقاً لسلطة أخرى، ويمنحون الملوك، ويسلبون الشعوب، ويحيون قوانين قد بطل العمل بها، ويتملقون أهواء أهل زمانهم كما يتملقون مساوىء العرش، فارضين على الأجيال الآتية الكثير من الهوان، دون أن تتاح لها الوسائل للقضاء على الأدلة التاريخية.

وليس ما يلقاه مؤلف مقصوداً على ما يكابد من أنواع السباب والقذف، ولا على قلقه الدائم على نجاح مؤلفه. وأخيراً يظهر أنكتاب الذى كلفه جهداً جهيداً، فيثير عليه الشحنة من كل ناحية فكيف يتجنبها؟

إن له عاطفة يدعمها بما يكتبه ، ولكنه ما يلبث حتى يجد كاتباً على بعد مائتي فرسخ منه ينقض له كل ما كتب . وهذه حرب تعلن .

وليته يستطيع أن يؤمل في حظ من التقدير والاعتبار لا أمل ..
وأكبر ما يصبو إليه أن ينال تقديراً من الذين يمارسون العلم الذي يمارسه .

إن الفيلسوف يزدرى الرجل الذي يمتلئ رأسه بالحقائق ازدراء شديداً ،
وهذا الذي يتمتع بذاكرة قوية يرى من جانبه الفيلسوف رجل خيالات
وأوهام . .

أما هؤلاء الذين ينعمون بحالة مغرورة فإنهم يريدون للنوع الإنساني
أن يقبر في عالم النسيان الذي سيصيرون إليه هم أيضاً .

إن الرجل الذي تنقصه موهبة ، يعوض هذا النقص بازدرائها :
وبذلك يزيل العقبة التي تحول بينه وبين التقدير والاعتبار ، ومن هنا يجد
نفسه في مستوى أولئك الذين تخيفه أعمالهم .

وأخيراً ، لابد أن تقترن الشهرة المشكوك فيها بالحرمان من اللذات ،
واعتلال الصحة .

من باريس في ٢٠ من شعبان سنة ١٧٢٠ .

الرسالة السادسة والأربعون بعد المائة من أدركت إلى رعيدي في تونس

يقال من قديم الزمان : إن النزاهة كانت روح الوزير العظيم .
إن أي فرد يستطيع أن يتمتع بالظلام الذي يعيش فيه ، فلا يفعل
ما يخذش سمعته إلا أمام بعض الناس ، ويظل مستوراً أمام سائرهم ، أما
الوزير الذي تنقصه الاستقامة ، فعليه شهود وحكام بعدد أفراد الشعب
الذي يحكمه .

أسمح لنفسى بأن أقول لك : ليس الخطأ الذي يرتكبه وزير غير
أمين هو إساءته إلى مملكته ، أو تضيقه مصالح شعبه ، بل هناك في رأي ما هو
أخطر من هذا : أن يكون للناس قدوة سيئة .

أنت تعرف أنني جئت بلاد الهند زمناً طويلاً ، رأيت فيها شعباً كريماً
بطبعه ، قد فسد في لحظة واحدة ، من أدنى أفراد الشعب إلى عظمائه ،
بسبب وزير من وزرائها ، كان لهم قدوة سيئة . رأيت فيها شعباً بأكمله
يتحلى بالجود والاستقامة ونقاء السريرة والأمانة . وظلت هذه الصفات
طبيعة فيه ، ثم صار فجأة أحط الشعوب : فشا فيه الفساد ، ولم ينج منه
أحد حتى أظهر الناس . ومن كانوا خير الناس أصبحوا يعملون الأعمال
الخسيسة ، ويتعسفون ، ويتعدون أريالات مبادئ العدالة في كل فرصة
بمحجة واهية ، هي أنهم حرّموا العدالة وقد طالبوا بالقوانين الممقوتة لحماية
أحط الأعمال وسماوا الظلم والخيانة ضرورة .

ورأيت الالتزام بالعقود مطروحا ، ورأيت العهد قدس ملغى ،
وجميع قوانين الأسر مهددة .

ورأيت أناسا يحبون المال حباً جماً . ويفخرون بفقر مدقع ، وهم آلات
غير جديرة بأن تقيم القوانين لهم وزناً ، ولا تعباً بهم قسوة الزمان ، يتظاهر
أحدهم بسداد الدين بدلاً من قضائه ، ويضع الخنجر في صدر من يحسنون إليه .

ورأيت آخرين أولى بالازدراء ، أولئك الذين يشترون ممتلكات
الأرامل واليتامى بثمان بخس ، أو على الأصح يجمعون أوراق البلوط
من الأرض ليدفعوها ثمناً لهذه الممتلكات ، ورأيت ظمأً إلى الثراء لا يرتوى ،
نشأ فجأة في جميع القلوب . ورأيت مؤامرة كريمة تدبر للإثراء في برهة ،
لا عن طريق عمل شريف ، أو صناعة كريمة ، ولكن عن طريق هلاك
الراجاء والدولة والرعية .

ورأيت مواطناً شريفاً في هذه الأزمنة التعسة لا ينام إلا قائلاً : إنى
هدمت اليوم أسرة ، وسأهدم غداً أسرة أخرى .

وثانياً يقول : سأذهب مع رجل أسود يحمل محبرة في يده ، وقطعة
حديد مدببة على أذنه لا غتيال كل من أكون مديناً لهم .

وثالثاً يقول : إنى أدبر أعمالى : حقيقة عندما ذهبت منذ ثلاثة أيام
لأتقاضى ديناً ، تركت أسرة بأسرها تذرف الدمع مدراراً لأنى قضيت على
صداق فتاتين طاهرتين ، وحرمت غلاماً من التربية ، والآب يموت لذلك
حزناً ، والآم تهلك من الأسى . ولكنى لم أفعل سوى ما يسمح لى به
القانون .

ياله من جرم عظيم ذلك الذى يفعله أحد الوزراء ، إذ يفسد آداب أمة

بأسرها ويفسد النفوس الكريمة ، ويطفىء ضياء القيم الخلقية ، ويظلم
الفضيلة نفسها ، ويجعل أشرف الناس أهلاً لازدراء العالم .

ماذا يقول الأبناء عندما يتحتم أن تحمر وجوههم خجلاً من عار الآباء؟
ماذا يقول الشعب الوليد عندما يوازن بين حديد أجداده ، وذهب الذين
ولدوه حديثاً ؟ إنى لأشك في أن الأشراف يتنازلون من أحسابهم عن
درجة يسيرة تخدش شرفهم ، ولا يتركون أبناء العصر الحاضر في حضيض
العدم الذي تردوا فيه .

من باريس في ١١ من رمضان سنة ١٧٢٠ .

الرسالة السابعة والأربعون بعد المائة من تفسير الخصال إلى أدبك في باريس

إن الأمور قد وصلت إلى حالة لا يمكن احتمالها ففساؤك تخيل أن
رحيلك جعلهم في حصانة تامة من العقاب . وتحدث هنا أشياء مروعة ،
حتى إنني أرتعد مما سأقصه عليك .

إن زيليس ، وهي ذاهبة منذ بضعة أيام إلى الجامع تركت خمارها يقع
فظهرت مكشوفة الوجه تقريباً أمام الناس .

ووجدت زاشي نائمة مع إحدى جواربها ، وهذا أمر تمنعه قوانين
القصر منعاً باتاً . إنني فوجئت بأكبر حادث في الدنيا ، فهذه الرسالة التي
أرسلها إليك ، لم أستطع قط أن أعرف إلى من كانت مرسله .

ووجد غلام في حديقة القصر مساء أمس ، ونجا بتسلق الجدران .
هذا إلى ما لم يصل إلى علي من أمور ، لأن القوم يخونونك بكل تأكيد .
إنني أنتظر أوامرك ، وسأظل في وضع حرج حتى اللحظة السعيدة التي
أتلقي فيها هذه الأوامر . وإنك إذا لم تضع جميع هؤلاء النساء تحت رقابتي فلن
أكون مسؤولاً عن أي واحدة منهن ، وسيكون لدى كل يوم أخبار
يسوءك أن أفضي بها إليك .

من قصر أصفهان في غرة رجب سنة ١٧١٧ .

الرسالة الثامنة والأربعون بعد المائة من أدركت إلى كبير المحضيان بقصر أصفهان

خذ بهذه الرسالة سلطة لا حدود لها على القصر كله ، وقد منحتك
سلطتي لتصرف بها كما أتصرف فيها بنفسى ، فليصحبك الرعب والخوف
أتى سرت ، ولتجرب القصر من جناح إلى جناح حاملا معك العقاب
والقصاص . وليعيش الكل فى ذعر ، وليذوبرا بكاء أمامك . حقق مع
كل من بالقصر ، وابدأ بالعبيد ، ولا تستثن نساء الحبيبات ، وأخضع
الجميع بحكمك الرهيب ، وأظهر الخبايا الدفينة ، وطهر هذا المكان الدنس
ورد إليه الفضيلة المنبوذة ، وإني منذ هذه اللحظة سأضع على رأسك أدنى
خطأ يرتكب . إني أتهم زيليس بأن الرسالة التى ضبطتها كانت موجهة
إليها . ابحث هذا الأمر بعينى الفهد .

من . . . فى ١١ من ذى الحجة سنة ١٧١٨ .

الرسالة التاسعة والأربعون بعد المائة
من نازية إلى نوريكش في باريس

يا سيدي العظيم : إن كبير الخصيان قد مات منذ قليل ، وقد حلت
مكانه لأنني أؤمن عبيدك إلى أن تعرفني على من تقع عينك .

وبعد يومين من موته حملت إلى إحدى رسائلك إليه ، فحرصت على
ألا أفتحها ووضعها في ظرف ، واحتفظت بها إلى أن أعرف إرادتك
السليمة .

جاء إلى أحد العبيد أمس في جوف الليل يخبرني بأنه وجد شايًا في
القصر فنهضت مسرعا ، وحققت الأمر فوجدته وهما .

إنني أقبل قدميك يا سيدي العظيم ، وأرجوك أن تعتمد على همتي
وخبرتي وسني .

من قصر إصفهان في ٥ من جمادى الأولى سنة ١٧١٨ .

الرسالة الخمسون بعد المائة
من أدبك إلى تاريخك في عصرنا

ما أتسك في يدك رسائل تحتوى على أوامر سريعة عنيفة ، أقل
تأخير في تنفيذها قد يسبب لي آلاما ، ومع ذلك تظل هادئا متعللا بعجل
واهية !

إن أمورا فظيعة تحدث ، وعندى عبيد يستحق نصفهم الموت ،
وهاأنذا أرسل إليك الرسالة التي كتبها إلى بهذا الشأن الخصى الأسود قبل
موته . ولو كنت فتحت مجموعة الرسائل الموجهة إليه ، لرأيت بها أوامر
دائمة . اقرأها إذن ، اقرأ هذه الأوامر ، وستهلك إذا لم تنفذها .

من . . . في ٢٥ من شوال سنة ١٧١٨ .

الرسالة الحادية والنخسون بعد المائة من سليم إلى أوزبك في باريس

إذا لزمتم السكون أكثر من ذلك كنت آثماً كسائر المجرمين الذين يضمهم قصر ك . لقد كنت أمين سر كبير الخصيان ، أخلص عبيدك . وقد استدعاني عندما أحس دنو أجله ، وأسر إلى بهذه الكلمات : « إني أموت ، والشئ الوحيد الذي يحزنني وأنا أغادر الحياة ، أن آخر نظراتي وقعت على أن نساء سيدى مذنبات ، والله القادر على أن يحفظه من الولايات التي أتوقعها ! وليت شبحي المهدد لن ، يحى بعد موتي وينذر هؤلاء الخائنات ، ويذمهن على واجباتهن ، ويخوفهن أيضاً عاقبة خيانتهم ! هاك مفاتيح هذه الأماكن الرهيبة ، أحملها إلى أسن العبيد السود ، وإذا لم تجد منه بقطة تامة بعد موتي فاعمد إلى أن تخبر سيدك » . ولم يكده ينتهي من هذه الكلمات حتى لفظ روحه بين ذراعي .

إني لا أعلم ما كان يكتبه إليك عن سلوك نساءك، قبيل موته . إن بالقصر رسالة لو فتحت لأشاعت الفزع ، تلك التي كتبتها وضبطت على ثلاث فراسخ من هنا . لا أدري ما هذا ! كل شيء يصير إلى أسوأ مما كان . ففساؤك أصبح لا يحتفظن بأى حياء ، وكان كل شيء أصبح مصرحاً به لن بعد موت كبير الخصيان . وروكسان وحدها هي التي ظلت تحتفظ باحتشامها ، وترعى واجباتها . والأخلاق هنا تفسد على مر الأيام ، ولا يجد المرء في وجوه نساءك هذه الفضيلة المتينة الصارمة التي كانت تغشاها فيما مضى . إن لونا جديداً من السرور يشيع في هذه

الأمكنة ، يقطع في رأيي بأن هناك لونا جديدا من الرضا ، وفي كثير من الأحيان ألحظ ألوانا من الحرية لم تكن معروفة من قبل . وأرى من عبيدك أيضا تهاونا يسودهم في أداء واجبهم ، وفي رعاية النظم المتبعة ، وذلك يثير دهشتي ، ولم يعد لديهم هذا الحماس المتوقد في خدمتك الذي ألفناه حيا في جميع أرجاء القصر .

إن نساءك ظلوا ثمانية أيام في الريف ، في أحد منازل التي هجرت أكثر من سواها ، ويقال إن العبد الذي عهد إليه بحراستهن قد رشى ، فبدأ في يوم ما قبل وصولهن رجلين في مخبأ من الحجارة في جدار الحجرة الرئيسية ، ومنه كانا يخرجان ليلا عندما نفسحب من المنزل . والخصي العجوز الذي كان يرأسنا في ذلك الوقت كان غيباً يصدق كل ما يراى لإيهامه به .

إنني نائر غضباً للانتقام من خيانات كثيرة ، وإذا أراد الله لخدمتك خيرا فرأيتني كفتاً لقيادة القصر ، فإن أقل ما أعدك به أن تكون نساؤك مخلصات إن لم يكن فاضلات .

من قصر إصفهان في ٦ من ربيع الأول سنة ١٧١٩ .

الرسالة الثانية والخمسون بعد المائة من تاريخت إلى أوزبك في باريس

إن روكسان وزيبس رغبتا في الذهاب إلى الريف . ورأيت أنه ينبغي
ألا أرفض طلبهما . ما أسعدك يا أوزبك ! لديك نساء مخلصات ، وعبيد
يقظون . إنني أهيمن على أماكن يبدو أن الفضيلة اختارتها مأوى لها
ليكن في خلدك أنه لن يحدث فيها شيء . لا تستطيع عينك أن تتحمله .

لقد حدث حادث مشؤوم سبب لي ألماً شديداً . ذلك أن بعض التجار
الأرمن وصلوا حديثاً إلى إصفهان يحملون إحدى رسائلك إلى ، فأرسلت
عبداً لطلبها . فسرق في عودته فضاعت الرسالة ، فاكتب إلى مسرعاً لأنني
أتحيل أن لديك في هذه التغيرات أموراً ذات بال تحب أن تكلفني إياها .

من قصر فاطمة في ٦ من ربيع الأول سنة ١٧١٩ .

الرسالة الثالثة والخمسون بعد المائة من أوزبك إلى سليم في قصر أمغهان

إني أسلمك السلاح، وأعهد إليك بأثمن شيء عندي الآن وهو انتقامي .
قم بهذه المهمة الجديدة ، ولا تكن ذا قلب ولا رحيم . وإني أكتب إلى
نساءي أن يطعنك طاعة عمياء . وفي خزي ما اقترفن من الجرائم العديدة
سيخفن منك خوفاً شديداً ، وعليك أن تحقق سعادتي وراحتي ، وأن
ترد إلى قصري كما تركته ، ولتبدأ بتطهيره : وأهلك المجرمين ، ومن
يتهمون للجريمة . وأي جزاء لا تستطيع أن تؤمله من سيدك للخدمات
التي بينها لك أتم بيان ؟ إنه لم يحرص على شيء حرصه على أن يرفعك
فوق قدرك ، ويكافئك مكافآت لم تصب إليها نفسك مطلقاً .

من باريس في ٤ من شعبان سنة ١٧١٩ .

الرسالة الرابعة والخمسون بعد المائة
من أدبكم إلى نساء في قصر صفها

لعل هذه الرسالة تكون كالصاعقة التي تنزل في أثناء البروق
والعواصف ! إن سليماً هو كبير خصيانكم لا لحراستكم بل لعقابكم ،
يجب أن يخضع له جميع من بالقصر . وأن يقضى فيما سلف من أعمالكن ،
وأما في المستقبل فسيجعلكن تعيشن تحت نير يبلغ من القسوة حداً
تأسين فيه على حريتكن إذا لم تأسفن على فضيلتكن .

من باريس في ٤ من شعبان سنة ١٧١٩ .

المرثية الخامسة والخمسون بعد المائة من أدركك إلى ضمير في أصغرها

سعيد ذلك الذي يعرف قيمة حياة حلوة هادئة ، فيستريح قلبه بين أسرته ، ولا يعرف أرضاً غير التي وهبته الحياة .

إنني أعيش في جو موحش ، أشهد فيه كل ما يزعجني وأغيب عن كل ما يلد لي ، يتملكني حزن قاتم ، وأتردى في إعياء مروع : ويبدو لي أنني أفنى ، ولا أسترد نفسي إلا عندما تشتعل الغيرة القائمة ، فتولد في نفسي الخوف والشك والحقد والحسرات .

أنت تعرفني يا نصير ، فأنت ترى ما في قلبي كما ترى ما في قلبك ، سترق لي إذا علت حالتني المحزنة . أنتظر أحيانا أخبار القصر ستة أشهر كاملة ، وأعد اللحظات التي تمر ، وفقدى الصبر يطيلها دائما على ، وعندما يقترب وصول ما طال انتظاري إياه ، تحدث في قلبي ثورة فجائية ، وترعد يدي وأنا أفض رسالة مشؤومة . وهذا القلق الذي يؤلني أجده أسعد الحالات التي يمكن أن أجده نفسي بها ، وأخشى أن أخرج منها بضربة أقسى علي من الموت ألف مرة .

إن داعيا دعا إلى خروجي من وطني . ومع أنني مدين بحياتي للملجتي الذي أويت إليه ، فإنني لم أعد أستطيع أن أبقى في هذا المنفى الموحش . أموت هكذا نهياً لأحزاني ؟ لقد دفعت ريكا ألف مرة إلى مغادرة هذه الأرض الأجنبية ، ولكنه دائماً يعارض قراراتي ويربطني هنا بكثير من

التعللات . ويبدو أنه نسي وطنه ، أو على الأصح يبدو أنه نسيني أنا نفسي
مادام لا يعبأ بأحزاني .. ما أتعسني ! أتمنى أن أرى وطني ، أياكون هذا التمني
لأكون أشد تعساً ؟ آه : ماذا أفعل في وطني ؟ سأحمل رأسي إلى أعدائي
وليس هذا كل شيء بل سأدخل القصر ، وينبغي أن أطلب فيه حساباً عن
الوقت المشثوم الذي كنت فيه غائبا عنه ؟ وماذا يكون حالي إذا وجدت
فيه مجرمين .

وإذا كانت الفكرة مجردة ترهقني وأنا على هذا البعد الشاسع ، فماذا
عسى أن يكون وما عساه يحدث لو تحتم أن أرى وان أسمع مالا أستطيع
أن أتخيله دون رعدة ، إذا قويت هذه الفكرة بحضوري . وأخيراً ماذا
يكون إذا تحتم أن تكون العقوبات التي أنطق بها دلائل دائمة على
اضطرابي ويأسي ؟

سأحبس نفسي بين هذه الجدران الشديدة الرهبة بالنسبة إلى وإلى
النساء التي حبسن فيها ، وسأحمل إليها كل شكوكي التي لن تنقص ملاطفاتهن
منها شيئاً . وسواء كنت في سريرى أو بين أذرعهن فلن أتمتع إلا بقلقى ،
وستجد غيرتى مجالا تعمل فيه في وقت لا يصلح للتفكير .

أيتها الخاتلة المحرومة من شرف الطبيعة الإنسانية ، أيها العبيد
الأخساء الذين أغلقت قلوبهم إلى الأبد دون مشاعر الجنس ، لن تودوا
تألمون لحالككم إذا عرقتم شقاء حالي .

باريس في ٤ من شعبان سنة ١٧١٩ .

الرُّسُالُ السادسة والخمسون بعد المائة من روكسان إلى أوزبك في باريس

الرعب ، والظلام، والإرهاب يسود القصر : إن حزنا هائلا يشمله ،
ونمراً يتنفس فيه عن هياجه في كل لحظة : لقد وضع خصيين أبيضين
في العذاب لأنهما لم يقرأ إلا بأتهما بريتان . لقد باع عددا من عبيدنا ،
واضطرتنا إلى أن نتناوب من يبق منهم .

زاشي وزيليس لقيت كلتاهما في غرفة في ظلمة الليل معاملة غير
كريمة ، إذا لم يتورع اللئيم أن يضع يديه القدرتين عليهما . إنه يحبس
كلا منا في جناحها : وعلى الرغم من وجودنا منفردات يفرض علينا الحجاب ،
إنه لا يصرح لنا بتاتا بأن نتحدث معاً ، وعد تبادل الرسائل بيننا جريمة ،
ولم يبق لنا من الحرية سوى البكاء .

إن فرقة من الخصيان الجدد قد دخلت القصر ، تحاصرنا ليلا ونهارا .
إن نومنا دائما قلق متقطع بسبب شكوكهم المصطنعة أو الحقيقية . وعزائي
أن كل ذلك لن يستمر طويلا وستنتهي هذه الآلام بنهاية حياتي ، ولن
يطول عمرى أيها القاسى : أوزبك ، ولن أسمح لك بوقت لتنتهى جميع
هذه الإهانات .

من قصر إصفهان في ٢ من المحرم سنة ١٧٢٠ .

الرسالة السابعة والخمسون بعد المائة من راسي إلى أرنيك في باريس

يا إلهي ! إن متوحشاً أهانني حتى في طريقة عقابي . لقد عاقبني عقاباً
بدأ بخدش حياتي ، عقاباً ينزل بي إلى أحط دركات الهوان ، عقاباً يردني
- كما يقال - إلى سن الطفولة .

إن روعي التي قتلها الخزي ، استردت شعورها بنفسها ، وأخذت
تتميز من الغيظ ، وصراخي أخذ يدوي في قباب جناحي . لقد سمعني
الناس أرجو الصفح من أقدر إنسان ، وألتمس رحمته كلما ابتعد عن
الرحمة .

ومنذ ذلك الحين سيطرت نفسه العاتية الحقيرة على نفسي : إن
حضوره ، ونظراته ، وألفاظه كلها مصائب اجتمعت علي . إنني على الأقل
أجد عزاء في الدمع إذا خلوت بنفسى ، ولكن إذا مثل أمام عيني تملكني
الغيظ ، لكنه غيظ عاجز ، فأقع في اليأس .

إن هذا النمر يجرؤ على أن يقول لي : إنك صاحب هذه الفظائع
الوحشية ، يريد أن ينزع جبي ويدنس كل شيء حتى أحاسيس قلبي ، وعندما
يلفظ باسم من أحب ، لأعرف سيلاً إلى الشكوى ولا أستطيع أن أطلب
شيئاً غير الموت .

لقد تحملت غيابك ، أوبقيت جبي بسلطان جبي لك . إن الليالي والأيام
واللحظات كانت كلها لك . وكنت رائعة بالحب نفسه ، وحبك كان مبعث
احترامى فى هذا القصر ، أما الآن لم أعد أحتمل الهوان الذى ترديت فيه .
إذا كنت بريئة فعند لحي ، وإذا كنت مذنة فعند لأموت تحت قدميك .

من حريم إصفهان فى ٢ من المحرم سنة ١٧٢٠ .

الرسالة الثامنة والخمسون بعد المائة
من زليخا إلى أوزبك في باريس

حكمتَ بإدائتي وأنت على بعد ألف فرسخ مني ، وعاقبتني وأنت على
بعد ألف فرسخ مني ، أبلغني الحال أن يرفع خصي ثقب يديه القذرتين
علي ؟ إنه ياتمر بأمرك . إن الطاغية هو الذي أهانني لا الذي
مارس الطغيان .

تستطيع أن تضاعف معاملاتك السيئة تبعاً لأهوائك ، إن قلبي
مطمئن لأنه لم يعد يستطيع حبك . إن روحك تنحط ، ونفسك تقسو ،
وتأكد أنك لن ترى السعادة قط ، وداعا .

من قصر إصفهان في ٢ من المحرم سنة ١٧٢٠ .

الرَّبُّ الْإِلَهَ الْوَاحِدُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَلِكِ
الْعَلِيِّ الْإِسْمِ الْكَافِي الْوَكِيلِ

إني أرتى لحالى وحالك أيها السيد العظيم . لم يصل مطلقا خادم وفى إلى
يأس مقيت كالذى وصلت إليه . هاهى ذى مصائبك ومصائبى ؛ إني
لا أكتب إليك عنها إلا وأنا مضطرب .

أقسم بكل أنبياء السماء أننى منذ عهدت إلى بناتك وأنا أسهر عشرين
ليلا ونهاراً . ولم أتوقف لحظة عن مواصلة اهتمامى بهن : لقد بدأت عملي
بالعقاب ، ثم كففت عنه دون أن أخرج عن طبعى القاسية .

ولكن ماذا عسى أن أقول ؟ لماذا نفخر هنا بوفاء لم تنتفع به ؟ لتدس جميع
خدماتى الماضية ، واعتبرنى خائناً ، وعاقبنى على كل الجرائم التى لم أستطع دفعها .
روكسان . روكسان العظيمة . . . يا إلهى ! . بمن ثقت بعد ذلك ؟ كنت
تشك فى زاشى وتطمئن إلى روكسان اطمئناناً تاماً ، لكن فضيلتها المتطرفة
كانت خداعاً قاسياً ، وكانت ستاراً لخباياها ؛ لقد فاجأتها بين ذراعى شاب
ما كاد يرى اكتشاف أمره حتى هجم على وطعننى بخنجر مرتين ، فأسرع
الخصيان نحو الضوضاء ، وأحاطوا به ، فدافع عن نفسه طويلاً ، وجرح
كثيراً منهم ، وباح بأنه يريد أن يعود إلى حجرة نومها ليتوت بمرآها .
واستسلم أخيراً لكثرتنا ، وجثات تحت أقدامنا .

لست أدرى - ياسيدى العظيم ، هل أنتظر أوامرك الصارمة . ولكنك
وضعت فى يدي أن أنتقم لك ولا ينبغى أن أقتر فيه .

من قصر إصفهان فى ٨ من ربيع الأول سنة ١٧٢٠ .

الرسالة التي تون بعد المائة من سليم إلى أدريكت في باريس

إني حددت موقفي ، ستنتهي آلامك ، وسأعاقب .. إني شعرت الآن
بسعادة خفية سوف تهدأ نفسي ونفسيك ، سنمحو الجريمة وستذبل
البراءة .

عجباً لكن أيتها الضحايا الأبدية للنجل والحياء . كأنك لم تخلق إلا
لتجهلن جميعاً أحاسيسكن ، ورغباتكن أنفسها . وددت لو حشرتكن
جميعاً في غمار القصر المشثوم ، لترين مذعورات ما أريقه فيه من دماء !
من قصر إصفهان في ٨ من ربيع الأول سنة ١٧٢٠ .

الرَّسَالَةُ الْجَادِيَّةُ وَالسُّنُونُ بَعْدَ الْمَاءِ
من روكان إلى أوزبك في باريس

نعم ، لقد خدعتك ، وأغريت خصيانك ، وسخرت من غيرتك ،
وعرفت كيف أجعل من حرمك المقيت مجالا للبلاد والمتع .

سأموت ، ويجري السم في عروقي ، لأنني ماذا أفعل هنا ، مادام الرجل
الوحيد الذي يستبقيني لم يعد معي ؟ إني أموت ولكن روحي ستطير في
صحبة طيبة : لقد انتهت من إزهاق هؤلاء الحراس الدنسين الذين أراقوا
أذكي دما في الدنيا .

كيف فكرت في أن أكون ساذجة لأتصور أنني لم أكن في الدنيا
إلا لكي أرضي نزواتك ، وتعطي نفسك كل شيء في الوقت الذي ترى
فيه من حقل أن تكبت كل لذاتي ؟ لا . لست ساذجة لقد استطعت
أن أعيش حرة وأنا في أسر العبودية ؛ لقد واءمت بين قوانينك وقوانين
الطبيعة ، وعاشت روحي مستقلة دائما .

كان ينبغي لك أن تصفح غني بمقدار ما ضخيت من أجلك ، لأنني
انحدرت حتى أظهر وفيه لك ، ولأنني احتفظت في قلبي بحزن ما كان ينبغي
أن أظهره للناس جميعا ، وأخيرا لأنني دنست الفضيلة إذ سمحت بأن
يُسمى خضوعي لأهوائك فضيلة .

لقد عجبت لأنك لم تعد تجدد عندي لواعج الهوى ، ولو عرفني حق
المعرفة لو وجدت عندي أعنف الحقد .

لقد تمتعتَ زمنا طويلا باعتقادك أن قلبا كقلبي كان يخضع لك ، وكنا
سعيدين إذ كنت تظن أنك تخدعني ، والواقع أنني كنت أخدعك .

هذه طهجة تبدو لك جديدة بلا شك ، ولكن هل من الممكن بعد أن
كبدتك الآلام أن أجبرك فوق ذلك بأن تُعجِب لشجاعتى ؟ ولكن
كل شيء قد حدث ، والسم قد سرى في أعضائى وقوّتى تزايدت ، والقلم
يقع من يدي ، وأشعر بضغفى ، وضعف حقدى . إننى أموت .

من قصر أصفهان فى ٨ من ربيع الأول سنة ١٧٢٠ .

هذا الكتاب

يعد مونتسكيو من أبرز فلاسفة عصر التنوير في فرنسا . فقد أسهم مع غيره من فلاسفة هذا العصر ، أمثال فولتير وروسو ، في إحداث ثورة عقلية وفكرية وأدبية وفنية ، تجسدت في أول دائرة معارف عرفت في فرنسا ، وهي التي أسهم مونتسكيو في كتابتها .

ويعد كتاب رسائل فارسية من أهم كتاباته ، إذ جمع أهم العناصر التي تميز بها القرن الثامن عشر في فرنسا . فهو ينقد المجتمع الفرنسي في هذا العصر نقدا لاذعا ، يستوى في ذلك نقده للحكومة والسياسة والدين ، أو لعادات المجتمع نفسه من نفاق وتفاهة وتناقض واحتقار لكل ما هو أجنبي . وعلى المستوى الفني ، تناول النقد الجدل الأدبي السفسطائي والتسرع في الحكم على الأشياء والسخرية من الشعراء والأدباء المدّعين . ويتجسد هذا النقد اللاذع عبر أسلوب مونتسكيو الساخر واجوئه للتهكم الذي تشبوه المرارة أحيانا . وقد كان هذا الأسلوب الساخر من أهم أسلحة مونتسكيو للتعبير عن آرائه وتحقيق فلسفته .

كما نجد في هذا الكتاب دراسة عميقة للسياسة وفلسفة التاريخ ، وهي دراسات كانت تعد جديدة في فرنسا في تلك الفترة . ولم يكن لجوء مونتسكيو للإطار الفارسي مجرد إسقاط للنيل من حكم لويس الرابع عشر الشمولي وستارا لنقد المجتمع الفرنسي في ذلك الوقت . بل أراد أيضاً أن يفتح على عوالم ومجتمعات أخرى غير أوروبية كنوع من الاعتراف بالآخر واحترامه والاستفادة منه ، والتأكيد أن الحضارة الأوروبية بصفة عامة والفرنسية بصفة خاصة ليست هي النموذج الأمثل الذي يستوجب التعالي على الآخرين .

لذلك يعد كتاب رسائل فارسية لمونتسكيو من أهم معالم القرن الثامن عشر في فرنسا .

دار سعاد الصباح
ص.ب : ٢٧٢٨٠
الصفحة ١٣١٣٣ - الكويت
ص.ب : ١٣ - القطيف - القاهرة

